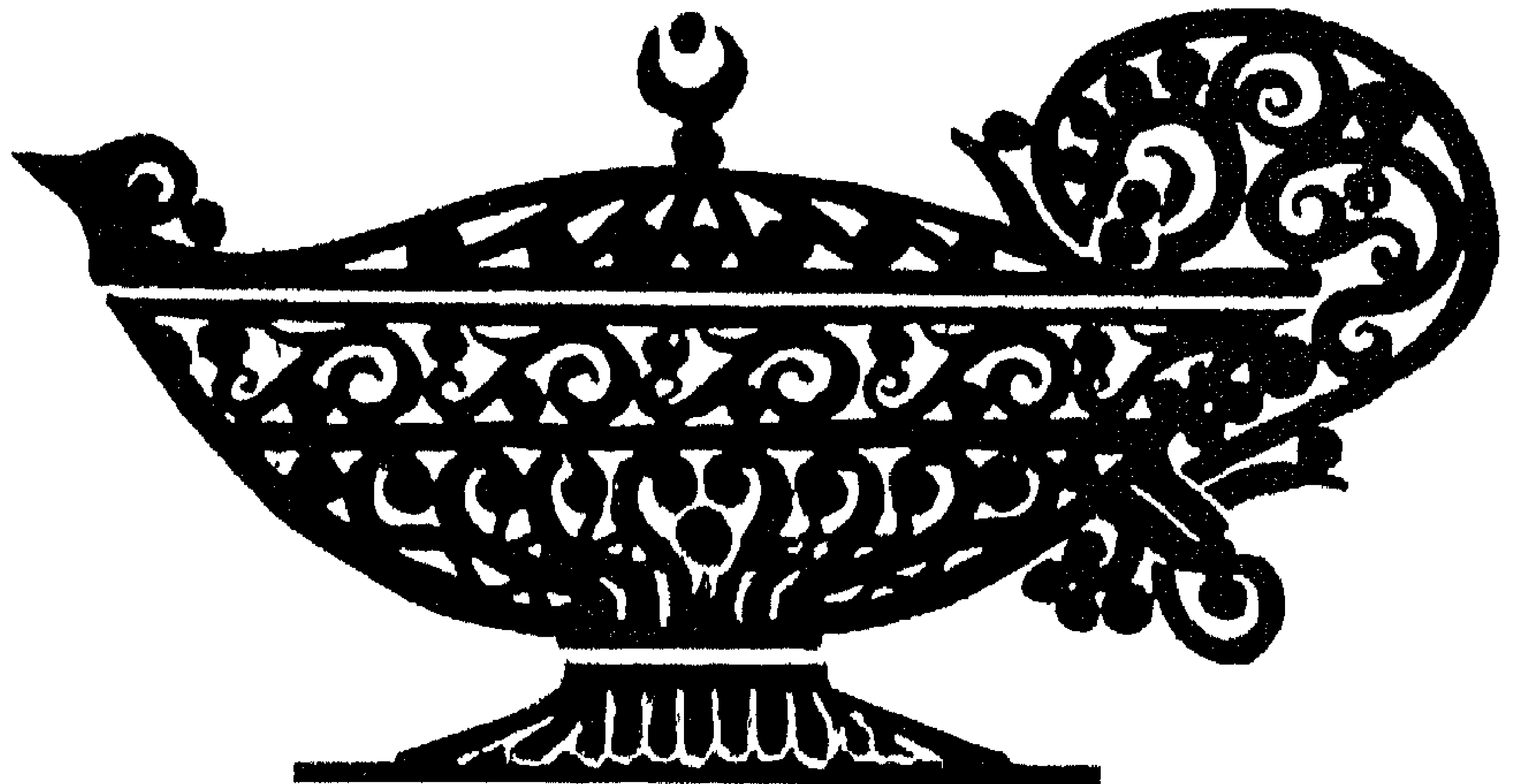


جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

من قادة الفكر الصوفي الإسلامي..

السيد إبراهيم الدسوقي

يقام : أحمد عز الدين عبد الله خلف الله



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

من قادة الفكر الصوفي الإسلامي..

السيد إبراهيم الدسوقي

يقام : أحمد عز الدين عبد الله فلفل الله

القاهرة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

**وصل اللهم صلاة كاملة وسلم تسليماً تاماً على من أرسلته رحمة للعالمين
وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .**

وبعد ، فان السيد « ابراهيم الدسوقي » رضى الله تعالى عنه ، من قادة الفكر الصوفى البارزين فى العالم الاسلامى ، وهو فى تصوفه انما ينحو الناحية التطبيقية للاسلام كما بينه وفصله امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه ، وكما عاشه الصفوة من خلق الله عز وجل ، والخيرة من عباده الذين اعتصموا بحبل الله تعالى فخصهم من رحمته بما شاء ، وقسم لهم من العلم به والفهم عنه بما قسم ، وفتح لهم فى مشاهدات كمالاته فتحات مبيها يبهى العقول ويخطف الابصار .

فهو من اعلام الصوفية وأئمتهم الذين أحيوا مبادئ التصوف الخالص ، تلك المبادئ التى تعبر عن روح القرآن العظيم وجوهر السنة المشرفة ، فتحيط بحقائق الوجود وتحيلها الى مظاهر للقرب أو السن ناطقة بالحكمة ، وينابيع تتفجر منها أسرار المعرفة تفجيراً يشعل الحب الإلهى المقدس فى القلوب فتسمو بالإنسان الى حياة الصفاء والطهارة ، وتشرح صدره للإيمان ، وتذيقه حلاوة المعرفة : وعندئذ تشرق الكمالات الإلهية على أرض النفس فتتألأ مشرقة بجمال كمال أنوار « فان لم تكن تراه فانه يراك » فلا يصفو للإنسان وقت ، ولا يطيب له عيش الا فى الانس بالله تعالى ، ويسرى هذا الصفاء فى أوقانه فلا تخلو لحظة منها عن مشاهدة أو الهام أو ذوق ، أو وجدان .

**ولكن نادينا بوجوب دراسة المدارس الصوفية الشهيرة دراسة منهجية دقيقة
تفتح للعلماء ابواباً جديدة فى آفاق العلم ، فكل مدرسة منها لها معانيها
المبتكرة فى علوم الشريعة ، ولها مناهجها التربوية التى تفوق بكثير أحدث
المدارس التربوية المعاصرة سواء من ناحية فلسفة التربية أو أهدافها أو**

أصولها أو أساليبها ، كما تمدنا بدراسات عالمية خصبة في مبادئ العلوم النفسية ، وهي دراسات أثبتت الخبرات والتجارب والعلوم المعاصرة أنها ذات أهمية حيوية في صحة الفرد النفسية والعلاقات الانسانية .

والمدارس الصوفية ترسي قواعد الاخلاق العملية على أساس متين يركز على التخلق بالخلق القرآنى ، والطهارة من الاشرار بالله تعالى في جميع الحركات والسكنات ، ومراقبته عز وجل في كل شأن من شئون الوجود النفسى لتصبح الاعمال خالصة له تعالى ، خالية من شوائب العاهات الخلقية كالنفاق والرياء والغش والحقْد ، ولا يصح ذلك الا اذا كانت القيم مصدرها الاهداء بهدى المثل الانسانى الاعلى صلوات الله وسلامه عليه ، وحينئذ يكون السلوك مبنيا على دوافع وانفعالات سليمة مطابقة لسعادة الانسان وخير المجتمع .

وهذا هو الاساس الاول لبناء مجتمع قوى تسوده العلاقات الاجتماعية المبنية على ارفع ألوان الادب الانسانى ، كالايتثار والبذل والتضحية والسعى لسعادة الغير .

ومن السهل تقييم هذا المنهج لو درسناه جنبا الى جنب مع أحدث النظريات أو المناهج الاخلاقية في علم الاخلاق المقارن .

فالمدارس الاخلاقية : مثل مدرسة ما وراء الطبيعة ، والمدارس العقلية كمدرسة الواجب ، والمدارس التجريبية ، كالنفعية والتطورية والوضعية والانثروبولوجية ، والمدارس المادية : كالمدرسة الحيوية والسلوكية المبنية على الفعل المنعكس الشرطى ، كلها لم تستطع أن تفعل شيئا في المشكلة الاخلاقية ، وكل ما فعلته أى مدرسة منها : أنها أضافت مشكلة جديدة الى المشاكل السابقة لها ، وبرهنت من الناحية التطبيقية على أنها جميعا نظريات نسبية صالحة للصواب والخطأ بحسب ظروف تطبيقها . وبحسب ادراك المؤيدين أو المعارضين لها .

هذه الصورة المشرقة للتصوف جعلت كل من يدرسه دراسة صادقة جادة يحنى رأسه اجلالا لمكانة الصوفية في الفكر الانسانى : يقول ماسينيون : « ان رجال المعرفة الصوفية في الاسلام كانوا دائما النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار في الاسلام » (١) .

(١) مقدمة كتاب الملح : ص : ٩ .

ويقول الشاعر محمد اقبال : « ان الاسلام عند الصوفية يأخذ طابعا من
الجمال والكمال والانسانية العالية والاخوة العالمة لا نجده في اسلام الفقهاء
او المتكلمين .

ولكن التصوف ابتلى بمن يدرسه دراسة لا تمت الى الصوفية بأية صفة ، اذ
يبدأ الباحث من هؤلاء بقضية مسلمة خاطئة : يختلط فيها التصوف بالجوع
والعطش والسلبية والحرمان ، وفريق آخر يختلط عليه التصوف الحق
بالتصوف الذى يدعيه كل محتال : فيصبح التصوف فى نظره مرادفا للتصليل
والغش ، والبعض يدرس التصوف على أنه غاية وهدى للصوفى .

وهذه كلها افكار هامشية خاطئة ، يبطلها أمرواض للناس جميعا وهو أن
الصوفى الصادق لا هدف له الا العمل بالكتاب والسنة ، ولا يحيد عن هذا النبع
المقدس ، ويبرأ ممن حاد عنه قيد شعرة . فهو لا يطلب المكاشفات ولا يطلب
العلوم الدنيوية ، انه لا يطلب الا الله عز وجل فى جميع شئونه . والعلوم
الصوفية كلها وهبية ذوقية ، فكيف يتصنع ويتكلف ليتلقاها ! .

ولا يطعن فى التصوف وجود متصوفة أدعياء ، فالادعياء موجودون فى كل
فن أو علم أو حرفة ، ولم يبطل وجودهم كل ما يمت الى الفنون أو العلوم أو
الحرف .

هذا وقد سجلنا فى الباب الخامس مختارات من أقوال هذا القطب
الصوفى ، وحرصنا على تسجيلها من أوثق المصادر لتكون شريطا ناطقا على
لسان قائلها يبين لنا بوضوح منهج المدرسة الصوفية البرهامية فى القرن
السابع الهجرى .

ولابد أن نذكر أن أكبر عقبة واجهتنا اثناء البحث ، هى عدم وجود مراجع
أصيلة أفردته بالترجمة اذا استثنينا كتاب الشيخ جلال الدين الكركى « لسان
التعريف بحال الولي الشريف » ويمتاز صاحب هذا المؤلف بأنه من كبار العلماء
المؤلفين الصوفية فى القرن العاشر الهجرى ، وأنه من الاساتذة المشهورين فى
الطريقة البرهامية ، وقد مكث فترة طويلة شيخنا للمسجد البرهامى بدسوق ،
فكان أولى من يقوم بتعريفنا بالقطب الدسوقى ، ولهذه الاسباب قمنا
بتحقيقه وتقديمه للنشر .

وفيما عدا هذا المرجع : ترجم له المؤلفون فى كتب التاريخ أو الطبقات أو التصوف دون أن يفردوه بالترجمة ، وكانت العقبة فى هذا الصدد أن المراجع أما مخطوطة وأما مصورة فى معظمها .

ولعلنا بتقديم هذا المؤلف نوفى بعض ما علينا من واجب نحو علم من الاعلام الذين كان لهم أثرهم الفكرى العميق فى جميع أنحاء العالم الاسلامى .

البَابُ الأولُ

نَسَبُهُ وَنَشَأَتُهُ

نسبه ونشأته

أجمع علماء الانساب والمؤرخون على اتصال نسب القطب الدسوقي بالامام الحسين السبط رضى الله تعالى عنه : شأنه فى ذلك شأن أقطاب الطرق الاربعة فى شرف الاصل ، فالسيد أحمد الرفاعى والسيد أحمد البدوى حسينيان .

والسيد عبد القادر الجيلانى ، والسيد أبو الحسن الشاذلى حسينيان . ولا يطعن فى صحة النسب وجود خلافات بين المؤرخين فى أعمدة النسب ، اذ انها خلافات اعتدناها فى علم الانساب ، وهى خلافات عرضية لا جوهرية : وهى ترجع الى أن بعض الناقلين قد يخلطون ما بين الاسم والمقب والكنية - وكلها مسميات لعلم واحد - فممنهم من يجعل ذلك لشخصين ، وممنهم من يعتبرها أسماء لثلاثة أشخاص ، وممنهم من يفتن الى الحقيقة بالنسبة لفرد من أفراد سلسلة النسب ويقع فى الخطأ بالنسبة لفرد آخر ، ويأتى ناقل آخر فينقل الخطأ كما هو أو يعدل فيه .

وهناك خلافات من نوع آخر وهى ترجع الى أن الناقل قد يختصر فى عمود النسب بحذف أحد الأبناء فيشيع هذا الحذف عن طريق نقل غيره عنه .

ثم يأتى دور المؤلفين الذين يدونون ما يجدونه فى المراجع المخطوطة التى يعتمدون عليها فيبدأ الخلاف بينهم بحسب المراجع من جهة وبحسب اختلاف النسخ من جهة أخرى ، ومن هنا يبدأ الخلط فى سلسلة النسب .

والواقع أن كل ما يذكر فى عمود النسب نقلا عن المصادر المعتمدة فهو صحيح ، واذما يرجع الخلاف للأسباب التى أشرنا اليها : ولتطبيق ذلك على عمود نسب القطب الدسوقي نقول :

١ - جده رضى الله تعالى عنه هو السيد على قريش بن محمد أبو الرضا ، فنقل البعض هذا الاسم وجعله : أبو الرضا السيد على قريش ، كما هو فى

مسرة العينين للشيخ حسن شمة ، وتابعه على ذلك الشيخ الابيارى فى مختصره لمسرة العينين .

٢ - ومن آبائه رضى الله تعالى عنه أبو الطيب محمد ، فنقله البعض على أنه اسمان ، فقال : محمد بن أبى الطيب ، كما هو فى مسرة العينين والطبقات الكبرى .

٣ - ومنهم موسى القاسم أو موسى أبو القاسم ، وعند السيد مرتضى الزبيدى موسى بن القاسم .

٤ - ومنهم أبو القاسم بن جعفر الزكى ، وعند الامام الوترى والمشهدى والطبرى الحسينى أنه أبو القاسم الزكى .

يقول الشيخ عبد القادر الطبرى الحسينى فى هذا الصدد : ؟ اختلاف الاقوال لا يضر بالنسب الاشراف : فان كل الانساب الشريفة ما خلا أئمة أهل البيت مختلف فيها على الغالب اختلاف رواية لا يطعن عند العالم المتشرع (١) بتلك الانساب .

وبمقارنة جميع المصادر التى بين ايدينا نذكر اتفاقها على النسب التالى :

١ - الامام الحسين السبط رضى الله عنه .

٢ - الامام على زين العابدين .

٣ - الامام محمد الباقر .

٤ - الامام جعفر الصادق ٥ - الامام موسى الكاظم .

القسم الاول :

٦ - الامام على الرضا .

٧ - الامام محمد الجواد .

٨ - الامام على الهادى ٩ - السيد جعفر الزكى .

(١) كشف النقاب عن انساب الاربعة الاتطاب : ص ٣ .

القسم الثانى :

- ٩ - السيد جعفر الزكى ١٠ - السيد أبو القاسم (موسى)
- ١١ - السيد عبد الخالق .
- ١٢ - السيد عبدالله (الكاتم أو الكاظم أو المثلث) .
- ١٣ - السيد محمد الطيب [أو أبو الطيب] .
- ١٤ - السيد عبد الخالق .
- ١٥ - السيد على زين العابدين .
- ١٦ - السيد محمد أبو النجا .
- ١٧ - السيد محمد أبو الرضا .
- ١٨ - السيد على قريش ١٩ - السيد عبد العزيز أبو المجد .
- ٢٠ - السيد ابراهيم الدسوقي (١) .

ولسهولة الاشارة الى أوجه الخلاف بين الروايات قسمنا عمود النسب الى مجموعتين : المجموعة الاولى وتضم الاباء من ٩:٦ ، والثانية من ٩:١٧ . وفيما عدا ذلك فلا خلاف فيه مطلقا .

١ - أوجه الخلاف فى القسم الاول ،

أ (جعفر الزكى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ، كما فى الجوهرة ، والطبقات الكبرى ، وطبقات الفقهاء للمذيلة لى المدنى ، ومسرة العينين ومختصره للابيارى ، وبحر الانساب وحديقة الاولياء لخواجه زاده احمد حلمى ، والسيد محمد مرتضى الزبيدى ، الا انه أثبت جعفر المصدق بدلا من جعفر الزكى .

ب (الزكى بن على بن حسن العسكرى بن جعفر بن على الرضا ، كما فى منة الوهاب للحسن القادرى .

(١) للعارف السيد محمد عبد الرحيم النشابى قضية تسمى « الحصن الفخيم » ضمنها نسب القطب الدسوقي طبقا لهذا الترتيب ، وهى فى مجبوع الاوراد له ص : ٧٣ - ٨١ .

جـ) جعفر بن عبد الخالق بن أبي القاسم لزكى بن علي بن محمد أنجواد ابن علي الرضا . عند الإمام الوترى والمشهدى والطبرى الحسينى .

٢ — أما القسم الثانى فالخلاف فيه بين (أ) : (ب) كما يلى :

أ) أبو النجا بن عبد الخالق بن القاسم بن جعفر [الإمام الوترى والمشهدى] .

ب) أبو النجا بن زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد بن أبي الطيب بن عبد الله الكاتم بن عبد الخالق بن أبي القاسم بن جعفر الزكى (عدد الاءاء تسعة) : رواية الشعرانى والحسن بن حسين القادري (مع اختصار اسم جعفر الزكى بحذف جعفر) والشيخ حسن شمة فى مسرة العبنين (عبد الله الكاتم جعله محمدا الكاتم ، وبدلا من أبي القاسم قال موسى القائم) ، والمذيلة لى المدنى فى طبقاته (بدلا من أبي الطيب قال الطيب ، وبدلا من عبد الله الكاتم قال عبد الله الكاتب) .

جـ) ناجى بن زين بن محمد بن عبد الله المثلث بن عبد الخالق بن أبي القاسم بن جعفر الزكى ، رواية الجوهرة والكتب التى نقلت عن كتاب الجوهرة ، وجملة الاءاء هنا سبعة .

د) محمد أبو النجا بن علي زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد ابن محمد بن عبد الخالق بن موسى بن القاسم بن ادريس بن جعفر المصدق (جملة الاءاء عشرة) وهى رواية السيد مرتضى الزبيدى .

ونلاحظ أنها خلافات لا تخرج كلها عن الاسباب التى ذكرناها ولا تؤثر مطلقا فى جوهر النسب .

« أول من استقر من أسرة القطب الدسوقي »

بدسوق مع كلمة عن دسوق

يقول السيد عبد القادر الطبرى (١) : « ولم أقف على ترجمة أول من استقر من أجداد القطب الدسوقي بدسوق » ، وكلامه يوهم أن الأسرة قد استقرت قديما ببلدة دسوق .

(١) كشف النقاب عن انساب الاربعة الاقطاب : ط القاهرة سنة ١٣٠٩ ص : ١٤ .

الا أن الوقائع تدل على أن أول من نزل من أسرته بدسوق هما والداه وقد قرر الشيخ حسن شمة (١) في شرحه لحزب القطب الدسوقي أن والده قد انتقل الى دسوق من قرية مرتص الواقعة على الضفة الغربية للنيل .

ووالده هو العارف أبو المجد عبد العزيز (أو عبد المجيد) وقد وصفه المؤلفون بالولاية ، وهو من أصحاب العارف الكبير محمد بن هارون السنهوري ، ولا يبعد أن يكون قد اجتمع بالامام الشهير أبي الحسن الشاذلي وتلقى عنه الطريق ، اذ كان الامام الشاذلي يزور هذه النواحي ليجتمع مع أصحابه ومريديه فيها ، وسيأتى تفصيل ذلك في علاقة القطب الدسوقي بالشاذلية .

الا أن والد القطب الدسوقي لم يقطع صلته بالقرية التي جاء منها حتى توفي بها وله مزار مشهور بها ، فيكون انتقاله الى دسوق ليس انتقال استيطان وانما ارتبط بها ارتباط اقامة استدعتها مصالحه وروابط اهل الطريق مع أخوانه .

فهل كانت والدته من دسوق ؟ ومن هي والدته ؟

يقول الجلال الكركي : « ولقد أخبرني من أثق به من علماء العصر أن والدته أستاذنا هي السيدة فاطمة ابنة ولي الله تعالى الشيخ أبي الفتح الواسطي قدس الله سره » (٢) .

وممن صرح بذلك : الشيخ عبد القادر الطبري اذ يقول أن « أمه فاطمة الصالحة الولية العابدة بنت القطب الكبير العارف الشيخ الجليل أبي الفتح بن أبي الغنائم الواسطي نزيل الاسكندرية أحد أجلاء خلفاء السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه » (٣) .

وممن قرر هذا ، العارف الشيخ حسن شمة الفوى .

ولكن اذا كانت وفاة الامام أبي الفتح الواسطي نحو سنة ٥٨٠ هـ ، فلا يجوز أن تكون ابنته مباشرة ، لطول المدة بين مولد القطب الدسوقي ووفاته

(١) مسرة العين بشرح حزب أبي العيين — طبع بولاق — ص ٤ .

(٢) لسان التعريف في ١١/ب .

(٣) كشف النقاب : ص ١٤ .

الامام أبى الفتح الواسطى . فهى أما أن تكون من ٥٨٠ - ٦٢٣ هـ لو أخذنا بالرواية المستبعدة التى تزعم بأن مولد القطب الدسوقي ٦٢٢ هـ .
أو أنها من ٥٨٠ - ٦٥٢ هـ ، لان تاريخ مولده فعلا هو سنة ٦٥٢ هـ .
وحينئذ تكون حفيدته وليست ابنته ، ولكنها نظرا لكونها ترعرعت فى بيت جدها التمس الامر على من روى أنها ابنته .

الا أننا نشك فى أن هذا هو تاريخ وفاة الامام أبى الفتح الواسطى بدليل أن جميع تلامذته من كبار رجال القرن السابع الهجرى مثل عبد السلام القليبي وجامع الفضلين الدنوشرى والعارف على المليجى ، وبعضهم توفى فى أواخر القرن السابع مثل الامام عبد العزيز الدرينى سنة ٦٩٤ هـ ، ولا يصح لهؤلاء الاخذ عنه من الناحية الزمنية الا اذا كانت وفاته فى القرن السابع الهجرى فى نصفه الاول .

وعلى هذا الاساس تكون والدة القطب الدسوقي ابنته مباشرة ولا لبس فى هذا .

والروايات تثبت أنها أصلا من الاسكندرية ، وعلى ذلك فان والد القطب الدسوقي ، يعطى حكم النازح الى دسوق ، اذ لم يثبت أن أحدا من أفراد أسرته من ناحية الاب أو الام توفى بدسوق . أما القطب الدسوقي نفسه فهو دسوقي مولدا ونشأة ووقاة .

دسوق

يظن البعض أن لفظ دسوق أطلق على البلدة المعروفة بهذا الاسم بعد وفاة القطب الدسوقي . فتكون نسبته اليها محدثة ، وهذا وهم لا مبرر له . اذ أن كتب البلدان تثبت أن لفظ دسوق أطلق على هذه الناحية قبل ظهور القطب الدسوقي : فقد ذكرها العالم الجليل الاسعد (١) بن مائى فى كتابه قوانين

(١) هو الوزير الاسعد بن مائى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) من أهم رجال العصر الايوبى وقد اسند اليه السلطان صلاح الدين ديوان الجيش وديوان المال واستمر كذلك على عهد العزيز ابن صلاح الدين - وكان فوق خبراته الادارية عالما جليلا ، ومؤلفا محققا ، برك نحو من خمسة وعشرين مؤلفا فى مختلف العلوم والفنون كاللغة والبراجم والسر والادب والادارة : وأهمها كتاب : قوانين الدواوين الذى يعبر من أهم وثائق العصر الايوبى لمكانة مؤلفه وقد تولت نشره الجمعية الزراعية سنة ١٩٤٣ وقام بجمعه ونحققه الدكتور عزيز سوريال .
وكانت بين الامر بهاء الدين قراقوش (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) - وهو أششد أمراء صلاح الدين اخلاصا وكفاءة - وبين الاسعد بن مائى حزازة دفعت هذا الكاتب السذالى اليهم من هذا الامر فى كتابه الذائع الصيت (الفاشوش فى احكام قراقوش) ممسحا جعله سخريه للأجيال ، مع أنه كان من اكفأ القواد وأبرعهم فى عصره - وقد صاغه الاسعد بن مائى فى هذا الاسلوب الفكاهى اللاذع لينبه على اخطاء الأمير ويتخلص من مضايقاته له .

الدواوين (١) الذى الفه فى القرن السادس الهجرى ، وقد عد دسوق أثناء ذكره
لأعمال الغربية .

وكان زمام ناحية دسوق فى القرن الثامن الهجرى ٩٥٢ فداناً منها خمسون
فداناً (٢) رزقة والباقى للمقطعين — من رجال الجيش — وكان خراجها ٢٧٠٠
دينار (٣) .

وقد ضبط السيد مرتضى الزبيدى (٤) لفظ دسوق على وزن صبور ثم
قال : « وقد يضم أوله : قرية كبيرة عامرة من أعمال مصر واليها ينسب سيدى
ابراهيم الدسوقى صاحب المقام العظيم الكائن بها ، وهذا القطب هو سبب
عمرانها وشهرتها » .

ولفظ دسوق (بفتح أوله) له أصل عربى : فالدسق (محركة) امتلاء
الحوض حتى يفيض ، وملات الحوض حتى دسق أى امتلا حتى ساق مأؤه .
والديسق الحوض الملان ويطلق على وعاء من أوعية العرب ، والخوان من
فضة الخ . . وأدسقه : ملأه .

فتكون الإشارة الى أن المدينة تقع على أوفى مكان يشبه الحوض المليء
بالماء .
وتقع دسوق شرق فرع رشيد جنوبى مدينة فوه بنحو ١٢ كم ، وتبعد عن
طنطا بالسكة الحديدية بمسافة قدرها ٦٦ كم (٥) .

وفى سنة ١٨٤١ أنشئ بمديرية الغربية قسم ادارى باسم قسم المندورة
وجعل مقعد بلدة دسوق لانها أكبر بلادها .

(١) قوانين الدواوين ص ١٣٥ .
(٢) الرزقة أطيان يمنحها السلاطين أو الخلفاء بهتضى حجج شرعية الى بعض النساس
على سبيل الاحسان أو الانعام مع الاعفاء من ضريبتها ، ومنها الاراضى التى يوقف صرف ريعها
على المساجد والخوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء ببطالها ،
ومنها ما يوقف صرف ريعه الى مستحقه وينحل بوائده (وراجع النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٣
الحاشية رقم ٦) .
(٣) هذه الاحصائية من كتاب التحفة السنية بأسماء : البلاد المصرية — ص ٧٧ — قارن
بين مساحه زمام دسوق فى ذلك الوقت ومساحة زمام طنطا وكان ٢٧٩٠ فداناً ، وكانت الاخيرة
من اقطاع أمراء الطبلخانات (الانصار بواسطة عقد الامصار ج ٥ ص ٨٤) .
(٤) أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدى (١١٤٥ — ١٣٠٥) ه تاج العروس وجواهر القاموس .
(٥) القاموس الجغرافى للقطر المصرى ط . بولاق ١٨٩٩ — ص ٢٨٢ .

وفى سنة ١٨٧١ صدر قرار نظارة الداخلية بتسميته^١ مركز دسوق ، ولكن
نظارة (اى وزارة) المالية لم تصدر قرارا بذلك فبقى فى دفاترها معروفا باسم
مركز المنصورة .

وفى سنة ١٨٩٦ أصدرت نظارة المالية قرارا بتسميته مركز دسوق لتوحيد
التسمية فى سجلات النظارتين .

ومركز دسوق الان يتبع محافظة كفر الشيخ وكان حتى سنة ١٩٤٥ يضم ٥٥
ناحية منها ٢٩ ناحية قديمة و ٢٦ ناحية حديثة (١) .

ومن البلدان القديمة التابعة لمركز دسوق مدينة « ابطو » الشهيرة ، وكانت
قاعدة مملكة الوجه البحرى قبل عهد الملك مينا ، وكان بها محراب بيت
النار (٢) المخصص للوجه البحرى ، واسمها القبطى « بوتو » أو « بوطو »
اما « ابطو » فهو اسمها العربى . وقرية « ابطو » الحالية تبعد مسافة ٦٠٠
متر جنوب بوطو» الاثرية التى يعرف مكانها بكوم الفراعين نسبة الى
الفراعنة .

التبشير بمولده

كان فى سنهور (٣) المدينة وهى قرية من القرى العامرة المشهورة القريبة من
بلدة دسوق شيخ من كبار الصوفية العارفين اسمه محمد بن هارون (٤) وكانت

(١) محمد رمزى القاموس الجغرافى . القسم الثانى . الجزء الثانى ط وزارة التربية والتعليم
سنه ١٩٥٨ — ص ١٤ .

(٢) د. سليم حسن : مصر القديمة ج ٦ هامش ص ٦٠١ — ط دار الكتب سنة ١٩٤٩
(٣) سنهور المدينة من القرى القديمة ولا تزال الى اليوم تعرف باسمها القديم لشهرتها
بى المدن المصرية القديمة . وذكر ايلينو فى جغرافيته ان اسمها القبطى (Sunhour) ^(١)
وذكرها ابن حوقل فى كتابه المسالك عند كلابه على الطريق البرى بين الفسطاط والاسكندرية
فقال سنهور مدينة ذات اقليم كبير واسواق وحمامات ومنادق ولها غلات كثيرة من قمح
وكتان وقصب سكر . وفى نزهة المشتاق اسمها (سنهور) ووردت محرفة فى بعض الكتب
تحسب اسماء سنهون وبنهون والصواب سنهور . وهى مذكورة فى قوانين ابن مباتى والمشارك
طباقوت والتحنة السنية .

(٤) فى الكواكب الدرية للبناوى عند ترجمة ابن هرون قال (محمد بن هرون السنهورى
ابن جليل وصوفى نبيل فنان الاقران . ستوطن سنهور وبنى له زاوية وقبره بها مشهور .
الى ان قال ومن كرامات ابن هرون انه كان اذا مر به المرشدى والد البرهان الدسوقى
يقول : فى ظهر هذا ولى يبلغ صيته المشرقين) .

مخطوط — دار الكتب العامة بالقاهرة تاريخ رقم ٢٦٠ — الفقرة الاولى من الوجه ٣٦٨
والفقرة الثانية من وجه ٣٦٩ .

بينه وبين والد القطب الدسوقي صحبة ، ولاحظ أصحابه عليه أنه كلما رأى أبا
المجد عبد العزيز قام له ، وعجبوا منه لشدة تكريمه إياه ، حتى سألوه عن
السبب فقال لهم : « ان فى ظهره وليا يبلغ صيته المشرق والمغرب » .

ورأوه بعد مدة وقد ترك القيام ، فسألوه عن ذلك فقال : « ما كان القيام له
بل كان لبحر فى ظهره وقد انتقل الى زوجته » ،

وكان مولده رضى الله تعالى عنه ليلة الثلاثين من شعبان (١) سنة ٦٥٣ هـ
وموضع ولادته هو مكان دفنه ، طبقا لما جاء فى لسان التعريف اذ يقول الجلال
الكركى : « ودفن بدسوق (٢) محل مولده » .

ويروى لنا الجلال الكركى الكرامة المتواترة عن القطب الدسوقي وهى كرامة
صيامه فى المهد اذ يقول :

« فلما وضعته فى الليلة التالية للتاسع والعشرين من شهر شعبان سنة ثلاث
وخمسين وستمائة ، اتفق وقوع الشك فى هلال رمضان فقال ابن هارون :
انظروا هذا الصغير هل رضع فى هذا اليوم . فأخبرت والدته أنه من الاذان
فارق ثديه ولم يرضع » (٣) .

ولم يقصد ابن هارون أن يثبت بذلك دخول شهر رمضان ، فان الصوم لا
يصح شرعا الا بثبوت رؤية هلال رمضان ، ولكنه قصد من ذلك تعريف الناس
بولادة ذلك القطب .

وقد سجل القطب الدسوقي نفسه هذه الكرامة فى كتابه « الحقائق ! وقد نقل
الجلال الكركى ذلك فى كتاب لسان التعريف فكتب ما نصه :

« قال الاستاذ - يعنى القطب الدسوقي - فى الحقائق : ان الفقير - يعنى
نفسه - من الله عليه من ظهر أبيه ولطف به فى الاحشاء : فحين وضعتنى أمى

(١) هناك روايات تذكر أن مولده كان سنة ٦٣٣ هـ وقد فندناها فى الباب السادس عند
الكلام على تاريخ مولده ووفاته .
(٢) لسان التعريف ظهر الورقة ٦٤ .
(٣) وتكملة الكرامة فى لسان التعريف (فأرسل ابن هرون يقول لها لا تحزنى فانه اذا
غربت الشمس شرب) ظهر الورقة ١١ .

كنت مبشرا فى ذلك العام بالصيام ، ولم ير الهلال ، وان ذلك اول كرامتى من الله « (١) انتهى .

وسأله مؤدب الاطفال فيما بعد : « هل شعرت بصومك فى المهد ؟ »
فقال الاستاذ : « وهل يتقبل ممن يعبد الله على جهل كما خلق الله
التميز لعيسى عقب ولادته فنادى أمه مريم : الا تحزننى ، الى آخر ما قص
الله علينا » (٢) .

وممن حكى صومه فى المهد : صاحب كتاب التذكار وكنز الاخبار فى كتابه
مراسم الطريقة فى فضائل اهل الشريعة والحقيقة .

ومسألة الصوم فى المهد لم ينفرد بها القطب الدسوقي بل وردت عن كثير من
كبار العارفين مثل القطب الجيلانى (٣) ، وأبى السعود بن أبى العشائر (٤)
والقطب الشهير السيد أحمد البدوى وغيرهم رضى الله تعالى عنهم . الا أن
هذه الكرامة لصقت به دون غيره ، لان العارف محمد بن هارون جعلها دليلا
على ولادته ، ولانه هو تولى تسجيلها بنفسه فى مؤلفاته وتواترت روايتها عنه
وعن معاصريه .

وقد عنى والده بتعليمه منذ طفولته ، وكان نبوغه واضحا ظاهرا ، ملفتا
للنظر ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم وتفقه على المذهب الشافعى بنيت له خلوة
بدسوق ، فدخلها وأقام بها عشرين سنة طبقا لما وصلنا من الروايات .

قال الجلال الكركى : « ولما أتم الاستاذ بخلوته من السن ثلاثا وعشرين
سنة توفى والده (٥) فخرج من الخلوة وصلى عليه ، ثم أراد أن يدخلها فحلف

(١) و (٢) لسان التعريف وجه وظهر الورقة ١٢ على التوالى .
(٣) هو الامام المجمع على جلالته فى العلم والمعرفة السيد عبد القادر بن موسى الجيلانى
او الكيلانى الشريف الحسنى (٤٧٠ — ٥٦١ هـ) كان امام عصره فى علوم الشريعة والحقيقة
واسس الطريقة الصوفية المنسوبة اليه ولها مكانة خاصة فى جميع انحاء العالم الاسلامى
وله تراجم حافلة لو جمعت لخرجت فى عدة مجلدات .
(٤) أصله من العراق وهاجر الى مصر واستوطنها وتخرج بصحبته كثير من كبار العارفين
توفى سنة ٦٤٤ هـ ومن كلامه (لا ينصحك من لا ينصح نفسه ، ولا تأمن الغش ممن غش نفسه
ومن كان سببا لغفلتك عن مولاك فأعرض عنه ، وعليك بحسم مادة الخواطر الشاغلة التى
يتولد عنها محبة الدنيا واذا صدر منها خاطر فأعرض عنه وأشتغل بذكره عز وجل عن
ذلك الخاطر) .

(٥) هذا يخالف ما ذكره الطبرى الحسينى اذ قال « وقد كان سيدى ابراهيم صغيرا يرم
وفاة أبيه » وعلى هذا القول يكون والده قد توفى سنة ٦٥٦ هـ وهو عام ونساة القطب
الشاذلى .

عليه بعض الفقراء ألا يدخلها ، فجلس تجاهها ، فقطع الناس أسباب معاشهم واشتغلوا بالنظر اليه ، وكيف لا وهو مفلح ، ومن لا يقع عليه نظر مفلح لا يفلح ، فأرعى له برقعا على وجهه » ، حتى لا يفتتن الناس به وينشغلوا بالتطلع اليه .

والذى نرجحه أن مدة الخلوة كانت عشر سنوات .

وإذا كان قد التجأ الى الخلوة من صغره فما هى صلته بأساتذة الطرق الصوفية المعاصرة له ؟ وهل كان فتحه وهيبا أم كسبيا ؟ هذا ما سنناقشه فى الباب التالى .

البَابُ الثَّانِي

المنابع التي استقى منها طريقته في التصوف

صلة القطب الدسوقي بالطرق الصوفية

المعاصرة له وأساتذتها

شهد القرن السابع الهجرى حركة بعث صوفية عميقة الجذور بعيدة الاثار، وكانت رد فعل لابد منه للابتعاد التدريجى عن المفاهيم الاصلية للاسلام، وهو ابتعاد جعل ذلكم الدين الخالد الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقف غريبا بين معتقدين: معظمهم لا يعمل بتعاليمه، أو يفسرونه تفسيراً يلائم انحطاطهم الادبى والمعنوى، وبدلاً من التمسك بحبل الله المتين وسلوك صراط الله العزيز الحميد، يتعثر هؤلاء فى اودية النفس وغاباتها ومهاويها يؤول كل منهم الدين طبقاً لما يسوله له الهوى .

فالجهد فى سبيل الله تعالى اصبح يفسر على أنه القتال فى حروب الكفار والمشركين، مع أن الجهد فى سبيله عز وجل يشتمل على أرقى المعانى وأكملها، فهو يشتمل أولاً على الجهد الأكبر، ألا وهو جهاد النفس وتطويعها للأوامر والنواهي الالهية، وتدريبها على التخلق بالاخلاق الايمانية التى لا يصح الايمان السليم بدونها، كما أنه يشمل التضحية ببذل النفس والمال فى سبيل الله تعالى، كما يشمل تحرير النفس والغير من الظلم والطغيان والمذلة والعبودية لمخلوق^{٠٠} فالجهد فى سبيل الله تعالى له جوانبه: النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحربية والعسكرية، الادبية والمعنوية^٠

ولكن ضعيف الايمان يؤمن بما وافق الهوى، ويترك مائتلى على النفس، وأصبح من المألوف سفك الدماء لا فى سبيل الله عز وجل ولكن فى سبيل السيطرة والحكم ونهب الاموال فى سبيل الوصول الى الاغراض التى لا تمت الى المصلحة العامة بصلة ثم يقال أن هذا هو الجهد .

وأصبح الصبر يفسر على أنه الصبر على الفساد والظلم والمنكرات وسلب الحقوق وانتهاك الحرمات !

وأصبح الاستسلام والخنوع من الاسباب الموصلة الى الرضوان الاكبر
والنعيم المقيم ! لا الى عذاب الله تعالى وسخطه .

مع أن الصبر في الاسلام بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن لا صبر له لا ايمان
له ، لانه الصبر على طاعة الله عز وجل ، والجهاد في سبيله مهما تجرع
الانسان من مرارات ، أو لاقى من مشقات فعلامة حب الله تعالى استعذاب
العذاب في سبيله تعالى لا في سبيل الشيطان .

وبدلا من أن يكون الاسلام هو اسلام النفس لخالقها فلا تبغى سوى
مرضاته ، أصبح الاستسلام للبؤس والظلم من علامات الاسلام الكريم التي لا
تخطيء !

وأصبح تعالى على الآخرين والترفع على الغير وسلوك جميع السبل التي
تمكن الانسان من الاستحواذ على جميع أدوات الظهور كاملة غير منقوصة ،
أصبح ذلك هو مقياس المجد والرفعة والعظمة ، وتغلغلت الفتن في أغوار
النفوس حتى أصبحت هي الدافع المحرك للسلوك والميزان الذي تقاس به
صحة الاعمال .

فحيث يأمر القرآن العظيم ، يفعل أصحاب الهوى العكس : فاذا أمر بالوفاء
غدروا وخانوا ، واذا أمر بحفظ الامانات ضيعوها ، واذا أمر بالصدق
كذبوا ، واذا أمر بحفظ الاعراض وغض الابصار ، انتهكت الاعراض وأطلقت
الابصار ، يستحيون من الناس ولا يستحيون من الله تعالى ، أفعالهم صادرة
عن حب الذات والهوى ولا تصدر عن الاخلاص لله تعالى أبدا .

وحيث ينهى القرآن العظيم يحلو لهم ارتكاب المنهيات : يتلون القرآن لا
يتجاوز حناجرهم ، وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه .

وفي الوقت نفسه كان زئير الحوادث وقصف الرعود يجتاح العالم الاسلامي
نذيرا بحلول الكوارث ، وأخذت أسنة الرماح تدق الابواب من كل جانب محذرة
المسلمين : فاما التمسك بحبل الله تعالى ، واما الاسترقاق وسفك الدماء ما لم
ينتبهوا من غفلتهم ، ويهبوا من سباتهم .

وفى هذا الجو هب قادة الفكر الصوفى فى كل مكان لتجديد مفاهيم المسلمين للاسلام ولدعوة الناس الى التمسك بحبل الله عز وجل العروة الوثقى التى لا انفصام لها ليسعدوا دنيا وأخرى .

كبار الصوفية المجددين فى القرن السابع الهجرى

وقد بدأت حركة البعث الصوفى فى منتصف القرن السادس الهجرى وبلغت أوجها فى القرن السابع الذى نحن بصدد الكلام عليه .

ونكتفى هنا بذكر كبار الصوفية المجددين فى هذا القرن لتربط بينهم وبين المدرسة البرهامية وسنذكرهم بحسب ترتيبهم التاريخى فى كل بلد :

١ - فى مصر :

أبو الحسن على بن حميد الصباغ ت ٦١٢ هـ - وهو من أجل أصحاب القطب القنائى .

• أبو العباس أحمد بن على البونى ت ٦٢٢ هـ .

• أبو العباس أحمد البصير : ٥٠٦ - ٦٢٣ هـ .

• عمر بن الفارض : ٥٧٦ - ٦٣٢ هـ .

عبد الله بن مسعود بن مطر الرومى : ٥٤٠ - ٦٣٥ هـ وهو من تلامذة أبى النجيب السهروردى .

كمال الدين أحمد بن على القسطلانى المالكى : ٥٥٩ - ٦٣٦ هـ من أجل تلامذة أبى عبد الله القرشى .

الشريشى : تاج الدين أحمد بن محمد البكرى ٥٨١ - ٦٤١ هـ وأصله من المغرب ونزح الى مصر واستوطن الفيوم وبها توفى ، وهو صاحب الرائية المشهورة فى سلوك الطريق .

أبو الحجاج الاقصرى : يوسف بن عبد الرحيم من تلامذة الشيخ عبد الرزاق ابن محمود الجزولى تلميذ أبى مدين التلمسانى ت ٦٤٢ هـ - بالاقصر وابنه نجم الدين أحمد ت ٦٨٠ هـ ، وجمال الدين محمد ت ٦٩٦ هـ .

أبو السعود بن أبي العشائر الباذيني أصله من العراق واستوطن مصر ت
٦٤٤ هـ بالقاهرة ، وكان السلطان ينزل الى زيارته وتخرج بصحبته : داود
المغربى وشرف الدين الكردي وخضر الكردي وغيرهم .

أبو داود مسلم المسلمى : ٦٦٠ هـ ، وله عقب باق الى الان ومن عقبه الشيخ
مسلم المسلمى : ٧٦٤ هـ ، وأبو مسلم سليم دفين الصوة من أعمال
الزقازيق ، وأبو مسلم دفين عزبة السيد عمر مكرم ، والحاج عليوة أبو مسلم
دفين بلدة الاحراز مركز شبين القناطر ، وأبو مسلم بالزاوية المعروفة
باسمه بالجيزة .

عز الدين بن عبد السلام السلمى ت ٦٦٠ هـ .
أبو القاسم القبارى بن منصور المالكى الاسكندرى ، مقامه مشهور بالاسكندرية
ت ٦٦٢ هـ .

أبو الحسن على بن عبد الله الششتري أصله من ششتري من أعمال
وادي آس بالاندلس ، وكان من الاسرة المالكة بها ، وهاجر الى مصر
واستقر بدمياط ت ٦٦٨ هـ .

داود بن مرفع الاعزب من تلامذة أبي السعود بن أبي العشائر ت ٦٦٨
يتقنها العزب ومناقبه كثيرة جمعت فى مجلد .

عبد الغفار بن نوح القوصى صاحب كتاب الوحيد فى علم التوحيد : ٦٧٠
هـ .

أبو عبد الله الشاطبى ، محمد بن سليمان المعافى الشاذلى ت ٦٧٢
هـ بالاسكندرية .

أبو العباس أحمد المثلث ت ٦٧٢ هـ بقوص .

أبو الفتىان السيد أحمد البدوى الشهير : مؤسس الطرق السطوحية
الاحمدية ولها فروع فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ت ٦٧٥ هـ .

أبو الغنائم نجم الدين محمد المطوعى ، من أجل تلامذة داود الاعزب التفهنى
ت ٦٨٣ هـ .

أبو عبد الله بن السائح المغربي ت ٦٨٤ هـ بدمنهور .

قطب الدين القسطلانى ٦١٤ — ٦٨٦ هـ وطريقته سهروردية .

إبراهيم بن معضاد الجعبرى الشافعى وكان يخشاه السلطان فمن دونه ولا يخشى فى الحق لومة لائم ت ٦٨٧ هـ .

عبد العزيز الدرينى ت ٦٩٤ هـ .

أسد الحديث عبد الله بن أبى جمرة ، صاحب الشرح المشهور على مختصره لصحيح البخارى المسمى « بهجة النفوس وتحليها » ت ٦٩٩ هـ .

كمال الدين بن عبد الظاهر الجعفرى الاخميمى ت ٧٠١ هـ .

ابن دقيق العيد ، محمد بن على بن وهب ت ٧٠٢ هـ .

ومن أئمة السادة الشاذلية :

الامام أبو الحسن الشاذلى ت ٦٥٦ هـ .

أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى ت ٦٨٦ هـ بالاسكندرية .

مكين الدين الاسمر ، أبو عبد الله بن منصور الاسكندرى ت ٦٩٢ هـ .

البوصيرى : شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجى : ٦٠٨ — ٦٩٤ هـ .

ومن الجيلانية :

نور الدين أبو الحسن على بن يوسف بن جرير الشطنوفى ولد سنة ٦٤٤

هـ ، وجمع سيرة القطب الجيلانى فى مجلدات .

٢ — الشام :

السادة الأئمة العارفون :

عبد الله بن عثمان اليونينى ٥٣٠ — ٦١٧ ويونين قرية تابعة لبلبك .

شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى ت ٦٣٢ هـ ، وهو من

أكبر رجال الطريقة السهروردية التى أسسها أبو النجيب عبد القاهر بن عبد

الله السهروردى البكرى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ .

أبو الحسن علي بن أحمد بن إبراهيم الحرالي ت ٦٣٧ هـ . وتنسب اليه
الحرالية .

علي بن حسن الحريري ت ٦٤٥ بحوران .

أبو بكر بن قوام : محمد بن عمر ت ٦٥٨ هـ بقرية علم ثم نقل الى دمشق
سنة ٦٨٠ هـ بسفح قاسيون .

أبو بكر العردوك بن فتيان بن معن الشطبي الفراتي المنجي ت ٦٧٢ هـ .
محيي الدين يحيى النووي ت ٦٧٦ هـ .

سعد الدين الجبوي ت ٦٨٢ هـ ، مؤسس الطريقة الجبوية

صفي الدين الحموي ت ٦٩٣ هـ بدمشق وهو أجل أصحاب السيد أحمد
الصيد .

محمد بن أبي بكر العردوك ، استشهد في قتال القتر سنة ٧٠٠ هـ .

٣ - العراق :

السادة الأئمة العارفون :

أبو البركات بن صخر بن مسافر بن أخ عدى بن مسافر مؤسس
الطريقة العدوية (توفي سنة ٦٣٠ هـ .

أبو بكر بن هوار البطائحي ، وهو من قبيلة كردية تعرف بالهوارين .

ومن السادة الرفاعية في العراق وغيرها :

السيد إبراهيم الاعزب ٥٤٦ - ٦٠٩ هـ ، وقطب الدين أبو الحسن علي
الرفاعي ٦٣٠ هـ .

السيد نجم الدين أحمد بن علي ت ٦٤٥ هـ .

السيد عز الدين أحمد الصيد : ٥٧٤ - ٦٧٠ هـ .

والامام الرفاعي جده لأمه . دخل مصر ٦٢٨ هـ وتزوج الاميرة درية حفيدة.

الملك الافضل ورزق منها بالسيد علي الشهير بابي شباك .

- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد المستعجل ت ٦٧١ هـ •
- ومنهم بمصر : على أبو شباك بن السيد عز الدين أحمد الصياد ٦٣٥ هـ —
- ٧٠٠ هـ بمسجد الرفاعي بالقلعة •
- وحسن الراعي القطناني بالشام •

٤ - اليمن وحضرموت :

الائمة العارفون :

- عيسى الهتار ٦٠٦ هـ •
- محمد بن أبي كير الحكمي صاحب عواجه ت ٦١٧ هـ ومن تلامذته محمد بن حسين البجلي ت ٦٢١ هـ •
- محمد بن اسماعيل الحضرمي ، مختصر شعب الايمان للبيهقي وله فيه زيادات حسنة ت ٦٥١ هـ •
- محمد بن علي بن محمد صاحب مرباط ويلقب بالاستاذ الاعظم توفي بتريم : ٦٥٣ هـ •
- أبو الغيث بن جميل ويلقب بشمس الشمس اليمني ت ٦٥٦ هـ •
- عمر بن سعيد بن أبي السعود الهمداني ت ٦٦٣ هـ •
- عيسى بن حجاج العامري من أصحاب أبي الغيث بن جميل ت ٦٦٤ هـ •
- عمرو بن علي بن عمر التباعي ت ٦٦٥ هـ •
- صفى الدين أحمد بن علوان اليمني ، وهو من أجل تلامذة السيد أحمد البدوي باليمن ت ٦٦٥ هـ •
- سعيد بن عيسى العموري الحضرمي ت ٦٧٦ هـ •
- عيسى بن مطير الحكمي ت ٦٨٠ هـ •
- أبو العباس أحمد بن أبي الخير الصياد اليمني •
- أحمد بن موسى بن عجيل ت ٦٩٠ هـ •

على بن عمر الاهدل ، مؤسس الاهلية وهى شعبة من الجيلانية ومن أبنائه
أبو بكر بن على بن عمر بن الاهدل ت ٧٠٠ هـ .

أبو العباس أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى ت ٧٠٤ هـ .

٥ - تونس :

أبو يوسف يعقوب الدهمانى : ٥٤٩ - ٦٢١ هـ .

ومن تلامذته عبد السلام بن عبد الغالب المسراتى ت ٦٤٦ بالقيروان وأبو
هلال السدادى وتلميذه أبو على سالم بن أبى عثمان القديدى ت ٦٩٩ هـ .

٦ - المغرب الاوسط والاقصى :

الجزائر ومراكش :

عبد السلام بن بشيش الحسنى ت ٦٢٦ هـ ، وفى رواية ٦٢٢ هـ .

أبو عبد الله محمد الهزميرى ت ٦٧٨ هـ .

الاندلس :

الشيخ الاكبر محمد بن على الحاتمى الطائى سلطان العارفين محبى الدين
ابن العربى ، ولم يشهد التصوف بعده مثله فى علوم التصوف ت ٦٣٨ هـ
بدمشق ، ومؤلفاته تزيد على المائتين ، وأكبرها يزيد على مائة مجلد .

وممن أفردته بالترجمة من الائمة العارفين الجلال السيوطى ، وعلى ابن
ميمون ، والجلال الدوانى ، والفيروز أبادى ، والعيدروس ، والنابلسى ،
وغيرهم .

ومن أجل تلامذته صدر الدين القونوى ، محمد بن اسحاق الرومى ت ٦٧٢
هـ فى قونية .

عبد الحق بن سبعين المرسى توفى سنة ٦٦٧ أو سنة ٦٦٩ هـ بمكة ومن
تلامذته على بن عبد الله الششتري ، توفى بالقدس ٦٦٨ هـ .

٨ - خوارزم :

نجم الدين أحمد بن عمر الخوارزمى الشهير بالكبرى ت ٦٨١ هـ .

وهو مؤسس الطريقة الكبروية ولها فروع متعددة .

« هجرة زعماء الصوفية الى مصر

في القرن السابع الهجرى «

من الظواهر الملفتة للنظر هجرة الصوفية الاعلام الى مصر فى القرن السابع الهجرى ، ولعل السبب فى ذلك أنها تزعمت حركة المقاومة الصليبية فى العالم الاسلامى .

ومعظم المهاجرين اليها كانوا من المغرب ، ونذكر منهم :

القطب عبد الرحيم القنائى الحسنى وأصله من سبقة ، قدم مصر واستقر بقنا وتوفى سنة ٥٩٢ هـ ، واستوطنتها أسرته ، فتوفى بها ابنه الحسن سنة ٦٥٥ هـ ، والسيد محمد سنة ٦٩٢ هـ .

يوسف بن محمد بن على الهاشمى توفى بقنا سنة ٦١٩ هـ .

أبو العباس أحمد بن محمد البصير الانصارى الاندلسى كان أبوه من ملوك المغرب ، واختار التصوف وهاجر الى القاهرة وأقام بها وتخرج عليه سبعة آلاف عالم فى القراءات السبع ت ٦٢٣ هـ .

القطب الاقصرى يوسف بن عبد الرحيم بن غزى أصله من المغرب .

ابراهيم بن على بن عبد الغفار الاندلسى ، توفى بقنا سنة ٦٥٦ هـ .

أبو الحسن الشاذلى على بن عبد الله بن عبد الجبار مؤسس الطريقة الشاذلية ، توفى بصحراء عيذاب بقنا سنة ٦٥٦ هـ .

أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن الملوانى القاسمى : ٥٤٨ - ٦٥٧ هـ . تجاوز عمره مائة وتسع سنوات .

صفى الدين أبو الحسن بن على بن أبى المنصور بن ظافر الازدى : ٥٩٥ - ٦٨٢ هـ ، وهو من أجل تلامذة العارف الشهير أبو العباس الحرار التجيبى الاشبيلى .

وللصفى بن أبى المنصور رسالة جمع فيها من لقيهم من كبار الصوفية اثناء رحلاته فى العالم الاسلامى .

والسادة الغنيمية في مصر أصلهم من المغرب . فقد هاجر جدهم غنيم بن سلامة الغنيمي الى مصر وبها توفي سنة ٥٠٣ هـ ، وتزوج السيد ادريس بن غنيم الغنيمي ت ٥٦٧ هـ شقيقة القطب الرفاعي ، وخلفه ابنه يوسف أبو طاقية الغنيمي الذي حضر وفاة أبي الفتيان القطب السيد أحمد البدوي ، وأسندت اليه من خدمة المولد الاحمدى : حراسة المولد واطعام المحتاجين عاش : ٥٥٦ — ٦٧٩ هـ وتوفي في أتريب بينها العسل .

محمد بن موسى بن النعمان التلمساني ثم المرسى ٦٠٧ — ٦٨٣ هـ .

أبو العباس المرسى ت ٦٨٦ هـ بالاسكندرية .

والسادات الوفائية المشهورون في مصر أصلهم من المغرب وبيتهم من بيوت الصوفية التي كان لها أثر كبير في تاريخ التصوف الاسلامي في مصر ، وقد قدم جدهم السيد محمد النجم الادريسي الحسنى واجتمع بالقطب الدسوقي واليه تنسب الزاوية النجمية بالاسكندرية .

ومن الفقهاء الذين هاجروا من المغرب .

شمس الدين عثمان بن سعيد الصنهاجى الشافعى ٥٦٥ — ٦٣٩ هـ .

والقرطبي أحمد بن عمر المالكي ٥٧٨ — ٦٥٦ هـ .

ابن الجرح التلمساني ت ٦٥٦ هـ .

ومن أئمة القراء أحمد بن على بن محمد الاندلسى ت ٦٤٠ هـ .

ابراهيم بن محمد الاموى الاشبيلي ت ٦٥٤ هـ .

على بن عبد الله بن أبى بكر أبو الحسن بن القلال الجزائرى ت ٦٦٨ هـ .

وسنذكر فيما يلى الائمة الذين قيل أن القطب الدسوقي قد تلقى عنهم ونناقش مدى صحة هذه النسبة :

أئمة الطرق الصوفية الذين نسب اليهم

القطب الدسوقي

ندرس فى هذا البحث صلته بأئمة الطرق الاتية :

١ - المدينة بالمغرب .

٢ - السهروردية .

٣ - الرفاعية .

٤ - الشاذلية وفرعها الوفاية .

٥ - الاحمدية البدوية .

١ - الطريقة المدينية بالمغرب :

فى الطبقات الكبرى للشرنوبى أن القطب الدسوقي والقطب الاقصرى أبى الحجاج يوسف أخذوا الطريق عن العارف عبد الرزاق [١] وهو تلقاه عن أبى مدين (٢) شعيب التلمسانى .

وممن نص على أخذ القطب الدسوقي عن العارف عبد الرزاق السيد محمد توفيق البكرى [٣] .

وهذه الرواية لا تصح لوفاة العارف عبد الرزاق الجزولى قبل ولادة القطب الدسوقي .

(١) هو العارف الكبير السيد عبد الرزاق بن محمود الجزولى صاحب أبى مدين ومن مشايخ أبى الحسن على بن حيد الصباغ الذى تخرج فى التصوف على القطب القنائى .

(٢) هو أبو مدين شعيب بن الحسن الاندلسى ثم التلمسانى أستاذ العارفين فى عصره وكان من أعلام العلماء فى الشريعة والحقيقة وكان من حفاظ الحديث ولزم دراسة جامع الترمذى وأحياء علوم الدين للامام الغزالى وأفرده ابن الخطيب القسنطينى بالتأليف . توفى سنة ٥٩٤ هـ وله كتاب ربيع فى الحكم . ومن كلامه (إذا رأيت من يدعى مع الله تعالى حالا وليس على ظاهره شاهد فاحذروه) (حسن الخلق معاشره كل شخص بها يؤنس ولا يوحشه . فمع العلماء بحسن الاستماع والانتقار ، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار ، ومع أهل المقامات بالنوحيد والانكسار) .

(٣) تراجم بعض رجال الصوفية خط - تاريخ دار الكتب العامة ص ٨٧ .

٢ - السهروردية :

ذكر في مسرة العينين أن القطب الدسوقي تلقى الطريق عن نجم الدين البكري ونور الدين الطوسي ، وهما من رجال الطريقة السهروردية (١) وساق الاسناد كما يلي :

• أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه .

• الحسن البصري : ١١٠ هـ .

• حبيب العجمي : ١٢٥ هـ .

• داود بن نصير الطائي : ١٦٢ هـ .

• معروف الكرخي : ٢٠٠ هـ .

• السري السقطي : ٢٥١ هـ .

• أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي : ٢٩٧ هـ .

• رويم البغدادي : ٣٠٣ هـ .

• أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي : ٢٧١ - ٣٧١ هـ .

• أبو العباس النهرواني (أو النهرجوري أو النهاوندي) .

• فرج الزنجاني .

• ممشاد الدينوري : ٢٩٧ هـ .

• أحمد الدينوري : ٣٤٠ هـ .

• محمد السهروردي (البكري)

• القاضي وجيه الدين السهروردي .

أبو النجيب السهروردي (ضياء الدين عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن

عمر السهروردي البكري ٤٩٠ - ٥٦٣ هـ ، ابن أخ السابق] .

(١) سار على هذا الشيخ حسن بن حسين القادري في كتابه منة الوهاب .

أبو حفص سراج الدين عمر السهروردي : ٦٣٣ هـ [ابن أخ السابق]
برغوث الشيرازي وصحة اسمه نجيب الدين علي بن برغش الشيرازي ت ٦٧٨ هـ .

نور الدين النظري (نور الدين بن عبد الصمد النظري) : ت ٦٩٥ هـ .
نجم الدين البكري ونور الدين الطوسي . كلاهما عن نور الدين النظري .
تصحيح هذا الاسناد :

١ - لا يصح تلقى القطب الدسوقي عن نور الدين الطوسي ولا عن نور الدين
ابن عبد الصمد النظري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ .

وان صح فان الاخذ يكون أخاه أبا العمران موسى .

٢ - لا يصح تلقيه عن النجم البكري مباشرة لطول الفارق الزمني ، والنجم
البكري هو « شيخ الاسلام نجم الدين بن أبي المكارم عيسى بن أبي المحامد
شعبان (١) الصديقي البكري الشافعي » وكان موجودا سنة ٥٨١ هـ ، كما
ورد في وقف لابن أخ السلطان صلاح الدين الأيوبي : وهو المظفر بن عمدة
الدولة بن أيوب ، وقد ساق نص الوقف على مبارك في الخطط التوفيقية .

وان صح التلقى عن النجم البكري فلا بد أن يكون ذلك بواسطة ولا يستبعد أن
يكون والد القطب الدسوقي هو المتلقى عن النجم البكري .

وفي الاسناد خطأ تاريخي واضح : إذ لا يصح تلقى النجم البكري وهو من
أهل القرن السادس الهجري عن نور الدين النظري وهو من أهل القرن السابع
الهجري .

٣ - خلط العلامة الحريري عند ذكره لمشايخ القطب الدسوقي ما بين النجم
البكري هذا وما بين النجم الاصفهاني إذ ساق الاسناد المروي عن الشيخ حسن
شمه في مسرة العينين ، وهو الاسناد المذكور آنفا ، ثم قال عنه : انه مسطور
في الاجازة التي تلقاها عن الشيخ محمد المصري شيخ السجادة البرهانية
بمصر ، وبعد أن ساقه قال مستدركا : « ان النجم البكري والنور الطوسي هما
نجم الدين محمد بن سعد الله الاصفهاني وبدر الدين محمود الطوسي شيخا أبو

(١) بيت الصديق ط القاهرة ص ١٠٥ وما بعدها .

المحاسن جمال. الدين يوسف العجمي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١) ، ، فالنجم
البكرى غير النجم الاصفهاني ولا يصح هذا الخلط .

٤ - سلسلة الاسناد عن العارف محمد السهروردي الى الامام الجنيد فيها
اخطاء تاريخية وتصحيحها هكذا :

ممشاد الدينوري : ٢٩٧ هـ . والجنيد البغدادي : ٢٩٧ هـ .

رويم البغدادي : ٣٠٣ هـ .

أبو يعقوب النهوجوري : ٣٣٠ هـ ، وأبو العباس أحمد بن محمد
الدينوري .

أبو عبد الله محمد بن خفيف الضبي الشيرازي ٢٧١ - ٣٧١ هـ .

فرج الزنجاني (٢) .

محمد السهروردي .

ولمعروف الكرخي اسناد آخر عن أئمة أهل البيت كما يلي :

الامام الحسين السبط رضي الله تعالى عنه .

الامام علي زين العابدين : ٣٨ - ٩٤ هـ .

الامام محمد الباقر : ٥٧ - ١١٨ أو ١١٣ هـ .

الامام جعفر الصادق : ٨٠ - ١٤٨ هـ .

الامام موسى الكاظم : ١٢٩ - ١٨٣ هـ .

الامام علي الرضا ٢٠٣ هـ .

معروف الكرخي : ٢٠٠ هـ .

ولحبيب العجمي اسناد آخر عن محمد بن سيرين عن أنس بن مالك رضي الله
تعالى عنه ، ولجعفر الصادق اسناد عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق
عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم :

(١) العلامة جمال الدين الحريري : تبيان الحقائق في بيان سلاسل الطرائق -
مخطوطات جامعة الدول العربية ميكروفيلم في ٣ - أجزاء .
(٢) في مئة الوهاب . أبو الفرج الطرطوسي .

٥ - يقول نور الدين على بن الحسن الشاذلي البرهاني في كتابه الزهرة المضية (١) .

« ويقولون ان معروفا صاحب داود الطائى - اى أخذ عنه - وهذا لا أصل له ، وليس فى أخباره المعروفة ما ذكر أخذه عن داود الطائى شيئا » وقال الحافظ ناصر الدين ذكر بعضهم ان معروفا لم يكن ممن اجتمع بعلى بن موسى الرضا وأنه لم ينقل معه أنه اجتمع به ولا أخذ عنه شيئا بل وكأنه ما رآه لان الرضا عاش ٢٠ سنة وتوفى سنة ٢٠٣ هـ . ومات معروف سنة ٢٠٠ هـ . وقيل ٢٠٤ هـ والاول أصح . واجتماع معروف بالامام على الرضا ثابت لانهما متعاصران فكيف ينفذ من ذلك الى أنهما لم يجتمعا !

هذا الى أن على الرضا ولد عام ١٥٠ هـ وتوفى عام ٢٠٢ .

كلمة عن الاسناد فى الطريق

يلاحظ على كثير من أسانيد الطرق الصوفية اما عدم اتصال الاسناد أو اضطرابه ، بعدم ترتيب رجال السند أو تكرار بعضهم ، والسبب فى ذلك هو خلط اسناد أحد رجال السلسلة باسناد آخر متقدم أو معاصر ، وقد يختصر البعض رجال الاستناد فيحذف منهم رجلا أو رجلين ، وينتهى كلا الأمرين باختلاط رجال السند فيقدم النازل ويؤخر العالى ، ولا يمكن تصحيح الاسناد لا بالرجوع الى كتب الطبقات والتراجم .

وبعد تصحيح جميع الروايات نجد أن الاسانيد متفقة فى النهاية ولا اختلاف بينها وهذا يؤيد المذهب الذى ذكرناه فى أسباب الاختلاف بين الاسانيد .

وتلقى الطريق نوعان :

أ) رواية

ب) هداية .

ولا يهم ذكر الاسناد عند من تلقى الطريق من جهة الهداية « فعلى الانسان أن يلبسها من غير أن يرفعها بأن يقول لبستها من فلان عن فلان الى على بن أبى

(١) الزهرة المضية فى أسماء طرق السادة الشاذلية نسخة خطية بدار الكتب العامة . الورقة ٥٤ والمؤلف من علماء القرن العاشر الهجرى . فرغ من تأليفه سنة ٩٠٧ هـ .

طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أو : ألبسها كما لبسها أو ألبسنيها فلان عن فلان ، وكذلك تلقين الذكر حذرا من أن يدخل في زمرة الكذابين ، (١) .

أما من تلقاها رواية فيجب عليه أن يذكر الاسناد صحيحا ، وفي ذلك يقول العارف نور الدين، على بن الحسن الشاذلي البرهاني « يلزم ذكر مشايخ السند اذا كانت الطريق لبس خرقه فانها رواية والرواية ينبغي ذكر رجال سندها أما الهداية فلا » [٢]

وقد تكلم أهل الحديث على اسناد الخرق الصوفية ومنهم الحافظ شمس الدين السخاوي في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الاسنة وتكلم غيره بما فيه الكفاية .

وفي معظم أسانيد الطريقة البرهامية نجد أن الاسناد منقطع بين القطب الدسوقي ومشايخه في الطريق، ويرجع ذلك الى أن من ذكر رجال الاسناد قد حذف أباه العارف أبا المجد عبد العزيز بن قريش من رجال السلسلة مع أننا نعتبره أستاذه الاساسي وعلى هذا فلا انقطاع في الاسناد .

٣ - الرفاعية :

ذكر الوترى (٢) أن القطب الدسوقي أخذ عن نجم الدين محمود الاصفهاني الذي تلقى الطريق عن شيخين :

الاول : نجيب الدين على الشيرازي السهروردي (وقد سبق الكلام على اسناده) .

الثاني : الحافظ عز الدين أحمد الفاروشي الكازروني وهو من رجال السادة الرفاعية ، وقد تلقى الطريق عن أبيه الحافظ محيي الدين ابراهيم عن أبيه أبي الفرج عمر الفاروشي عن القطب الرفاعي .

(١) نور الدين على بن الحسن الشاذلي البرهاني : الزهرة المضية في أسماء طهريق السادة الشاذلية نسخه خطية بدار الكتب العامة بالقاهرة الفها سنة ٩٠٧ هـ ظهر ق ٥٤ .
(٢) نفس المرجع وجه الورقة ٥٥ .
(٣) الامام الرب : روضة الناظرين ط القاهرة ١٣٠٦ .

والظاهر أنه نقل هذا الاسناد عن الامام الواسطى (١) الذى قال عند كلامه على مشايخ السادة الرفاعية « ومنهم النحرير الكبير الولي العارف نجم الدين الاصفهاني ، وعنه أخذ السيد ابراهيم الدسوقي بن السيد أبى المجد العلوى أحد أقطاب الوجود المدفون بدسوق مصر ، شيخ الطائفة الابراهيمية » .

ويخالفهم في هذا الاسناد السيد محمد أبو المهدى الصيادى الرفاعى (٢) الذى روى أن القطب الدسوقي قد أخذ مباشرة عن الحافظ عز الدين أحمد الفاروشى فحذف العارف نجم الدين الاصفهاني المذكور فى رواية الواسطى والوترى .

ويرى العلامة الحريرى (٣) انه لا يصح أخذ القطب الدسوقي عن نجم الدين محمود بن سعد الله الاصفهاني وهو من أهل القرن الثامن الهجرى وأحد شيوخ العارف الكبير أبى المحاسن جمال الدين يوسف العجمى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ .

وان كان المراد من النجم الاصفهاني : نجم الدين عبد الله بن محمد الاصفهاني لا يصح ايضا ، لان هذا النجم من تلامذة أبى العباس المرسى ، وقد توفى بمكة سنة ٧٢١ هـ ودفن قرب الفضيل بن عياض وكان انتقاله الى مكة بعد وفاة شيخه الامام المرسى (٤) .

وهناك رواية أخرى تصله بالسادة الرفاعية : ذكرها السيد عبد القادر بن محمد الطبرى الحسينى (٥) المكى فقال « وكان أبوه السيد أبو المجد من أعيان خلفاء الشيخ أبى الفتح الواسطى الاحمدى ، وقد لبس خرقته الاحمدية (٦) لولديه الجليلين : السيد موسى والسيد ابراهيم » .

وهذه هى الرواية التى نعتمدها .

(١) هو الامام المفتى على المذاهب الاربعة بقرى الدين أبر الفرج عبد الرحمن بن عبد المحسن ابن عمر بن شهاب الواسطى محدث واسط ولد سنة ٦٧٤ هـ وتوفى ببغداد سنة ٧٤٤ هـ ونقلنا هذا النص من كتابه تزيين المحبين فى طبقات خرقه المنايخ العارفين ط القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ص : ١٨ .

(٢) تنوير الابصار فى طبقات السادة الرفاعية ه القاهرة ١٣٠٦ هـ ص ٣٧ .

(٣) كمال الدين الحريرى : تبیان الحقائق — ميكروفيلم — دار مخطوطات جامعة الدول العربية .

(٤) الامام صفى الدين القشاشى (٩٩١ — ١٠٧١ هـ) : السمط المجيد فى شأن البيعة والذكر وتلقينه وسلاسل أهل التوحيد — ط الهند سنة ١٣٢٧ ص ١٢٣ .

(٥) كشف النقاب عن أنساب الاربعة الاقطاب ط القاهرة ١٣٠٩ هـ : ص ١٤ .

(٦) الاحمدية هنا يراد بها الرفاعية فلا تلبس بالاحمدية اليدويه .

٤ - الشاذلية :

ان دراسة صلة القطب الدسوقي بالسادة الشاذلية ذات شقين :

الاول : يبحث فيمن نسبه الى الشاذلية دون تحديد لطريقة التلقى .

الثانى : فيمن نسبه الى الشاذلية وحدد اسم من تلقى عنه الطريق .

اولا : من نسبه الى الشاذلية دون تحديد لطريقة التلقى .

نسب القطب الدسوقي الى الطريقة الشاذلية جماعة من العلماء منهم :

١ - الحافظ أبو الفيز محمد مرتضى الزبيدي ، اذ قال (١) عند تعريفه الطريقة البرهامية : « البرهانية » (٢) شعبة كبيرة من الشاذلية واحدى الطرق المشهورة فى الديار المصرية منسوبة الى الولي الكبير والقطب الشهير المرشد للصواب المنقطع عن الخلق فى السرداب (٣) سيدى برهان الدين ابراهيم بن أبى المجد عبد العزيز بن قريش الحسينى الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ (٤) .

٢ الحسن بن الحاج محمد الكوهن (٥) الفاسى وقد ترجمه فى طبقات الشاذلية ونسبه اليهم فقال : « سيدى ابراهيم الدسوقي القرشى الحسينى الهاشمى الشاذلى » .

٣ - أبو المعارف محمد عبد الرحيم النشابى الحسنى الشاذلى الاحمدى الشافعى الطندائى قال : « فالشاذلى مشيشى ، والدسوقي شاذلى ، والشناوى احمدى (٦) وهكذا » .

وهناك نص من كلامه رضى الله تعالى عنه يفهم منه ان هناك صلة بينه وبين الامام الشاذلى اذ يقول : « أنا فككت طلاس سورة الانعام التى لم يقدر على فكها الشاذلى خالى والامام الشاذلى لم يكن خاله قطعا من ناحية القربى وانما

(١) عقد الجواهر الثمين فى الذكر وطرق الالباس واللقين - من مخطوطات المكتبة التيمورية ص ٣٢ .

(٢) النسبة هنا الى أحد القاب القطب الدسوقي وهو (برهان الدين) والذى نسبه الى اسمه قال (البرهامية) .

(٣) يعنى فى الخلوة رقد اشهر بذلك لأنه قضى أكثر من عشر سنوات مختليا . ولو قال المنقطع من الخلق فى الخلوة لكان أفضل ، لان لفظ السرداب ملازم للشيعة الإمامية وذكره متصل بانقطاع الامام .

(٤) اختلف العلماء فى تاريخ وفاته وقد رجحنا الروايات التى تقرر أنها كانت سنة ٦٩٦ هـ كما سيأتى فى بابيه .

(٥) طبقات الشاذلية الكبرى ط القاهرة ١٣٤٧ هـ ص ٧٩ .

(٦) أسرار الحقيقة لمن يسلك الطريقة ط القاهرة ١٩٢١ م ص ٢٨ .

يقصد أنه خاله في الطريق • وفي دار الكتب العامة مخطوط تحت عنوان « ورد الدسوقي الذي تلقاه عن خاله الشاذلي » •

ومما يؤكد صلة القطب الدسوقي بالشاذلية أن الحزب الكبير للقطب الدسوقي قد اشتمل على الحروف المركبة في الدائرة الشاذلية الشهيرة وهي « ظهور بدعق محبيه صورته سقفاطيس سقاطيم أحون قاف ادم حم ماء آمين » • ووجود هذه الحروف في الورد لا يأتي عن طريق المصادفة ، بل لابد أنه تلقاها عن الشاذلية •

ثانيا : المصادر التي حددت شيوخه من الشاذلية

ان المصادر التي تعرضت لذكر أسماء شيوخ القطب الدسوقي من السادة الشاذلية تنقسم الى :

(ا) مصادر قررت أنه اخذ الطريق عن شيخ الامام الشاذلي يعني العارف الكبير السيد عبد السلام بشيش الحسنى •

(ب) ومصادر قررت أنه اخذ عن الامام الشاذلي مباشرة •

(ج) ومصادر قررت أنه اخذ عن تلامذة الامام الشاذلي •

وسنبحث هذه الروايات •

(١) صلته بشيخ الامام الشاذلي

ذكر الامام (١) القشاشي أن القطب الدسوقي قد اخذ الطريق عن سيدي عبد السلام بن بشيش الحسنى •

وقال العالم الصوفي محمود بن عفيف الدين (٢) الرفائي الشاذلي عند كلامه على العارف الشهير عبد السلام بن بشيش : « ويكفيك في فضله وجلالة قدره أنه أستاذ الأقطاب الثلاثة : سيدي ابراهيم الدسوقي وسيدي أحمد البدوي وسيدي أبي الحسن الشاذلي رحمة الله تعالى عليهم أجمعين » •

(١) الامام صفى الدين القشاشي الدجاني (٩٩١ — ١٠٧١ هـ) السمعط المجيد ط . الهند سنة ١٣٢٧ •

(٢) معاهد التحقيق له : ط . القاهرة ١٩٠٥ ص ١٧٠ •

وقال العلامة كمال الدين الحريرى (١) فى معرض الرد على هذه الرواية : « وأغرب من هذا ما ذكره القشاشى فى السمط المجيد من أن القطب الدسوقى أخذ عن عبد السلام بن بشيش وذلك لا يمكن : لأن القطب عبد السلام توفى سنة ٦٢٢ هـ على ما ذكره أحمد بن عجيبة فى شرح الصلاة (٢) وذلك قبل ولادة القطب الدسوقى باحدى وثلاثين سنة ، ولعله أخذ عن روحانيته ولم يشعر (٣) القشاشى بذلك » .

ولا شك فى بطلان هذا التلقى رواية ، وهو تلقى يحيله الفارق الزمنى والظاهر أن المقصود من هذه العبارات هو : التقاء اسناد الطرق المشار اليها عند العارف الكبير عبد السلام بن بشيش الحسنى ، وبهذا المعنى لا يوجد أى أشكال ، ويتحول البحث الى فحص صحة الاسناد .

ب صلته بالامام الشاذلى نفسه

هناك فريق قرر أن القطب الدسوقى قد أخذ الطريق مباشرة عن الامام الشاذلى ومن هؤلاء :

١ — العالم الصوفى الجلال (٤) الكركى اذ قال عقب ذكره لسند السادة الشاذلية [وهكذا نقله شيخنا السيد ابراهيم الدسوقى فى كتابه الحقائق عن الشيخ أبى الحسن نفسه] .

٢ — السيد محمد توفيق (٥) البكرى اذ قال عند كلامه على سند الطريقة البرهامية (أخذ سيدى ابراهيم الدسوقى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى ثم ساق الاسناد .

(١) تبيان الحقائق — ميكروفيلم — باب (البرهامية) .
(٢) يعنى الصلاة الشيشية المشهورة وهى من بين الصيغ المخنارة فى دلائل الخيرات ومطلعها (اللهم صلى على من منه انشقت الاسرار وانفلقت الانوار) وقد عنى كثير من العارفين يشرحها لجلالتها .
(٣) أى لم ينبه على ذلك : لان الاخذ عن روحانية أستاذ من أساندة الطريق معتبر عند جماعة الصوفية بشرط الا يحتج به أحد فى أسناد الرواية وذلك كأخذ الامام بهاء الدين النقشبندى عن روحانية الامام عبد الخالق الفجدوانى . وهذا الاخذ يكون دائما للرقى لا للتربية .
(٤) نور الحديق فى لبس الخرق مخطوط فى دار الكتب العامة بالقاهرة ظهر الورقة ٦٨ .
(٥) السيد محمد توفيق البكرى : بيت الصديق . ط القاهرة ١٣٢٣ هـ ص ٣٨٣ — وقد صرح بذلك أيضا فى كتابه (تراجم بعض رجال الصوفية) مخطوط بدار الكتب العامة ص ٨٧ .

٢ - نص العلامة كمال الدين الحريرى على أنه تلقى الطريقة البرهامية عن الشيخ محمد المصرى شيخ السجادة البرهامية بمصر وفى هذه الاجازة ان سيدى ابراهيم الدسوقى أخذ عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى * وقد عقب العلامة الحريرى على ذلك بقوله (والشيخ الشاذلى توفى سنة ٦٥٦ هـ فكان عمر سيدى ابراهيم كان ثلاث سنوات ، ويمكن أن يصح أخذه عنه كما أجاز سيدى عبد الغنى النابلسى الشيخ مصطفى الرحمتى وكان عمره اذ ذاك سنة - ورأيت فى بعض الاجازات ايضا انه قدس سره قال فى كتاب الحقائق اخذت الطريقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد البيعة عن القطب أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه) هـ *

وهناك من وقف موقف الشك من هذا التلقى مثل السيد عبد القادر (١) ابن محمد الطبرى الحسينى المكى اذ عبر عن شكه بقوله (ويقال ان الدسوقى لبس الخرقه من الشيخ الجليل أبى الحسن على الشاذلى) *

وزيارة الامام الشاذلى لنواحي دسوق تؤيد وجود صلة بينه وبين والد القطب الدسوقى

روى ابن فارس (٢) فى المنح الالهية عن القاضى ناصر الدين بن قوز بن أبى المواهب الشافعى : عن أبيه عن جده أبى المواهب المذكور أنه قال ان :

الاستاذ أبا الحسن الشاذلى قدس الله سره العزيز لما توجه للحج أرسى مركبه التى هو فيها على ساحل البحر المقابل لسنهور المذكورة وكان بها رجل من أكابر الصلحاء يقال له ابن هرون - وضريحه بها بسنهور - قال فجاء بأصحابه قاصدا زيارة الاستاذ أبى الحسن ، فوجده قد نصب له خيمة ، وهو بها ، فاغتسل الشيخ وقصد الامام ابا الحسن ، ومكث اسبوعا يطوف حول خبائه ولا يدخله ، ينتظر الاذن حتى أذن له ، فدخل : وأقام عنده قليلا ثم خرج * فأنكر عليه أصحابه ذلك * فقال (لما دخلت اليه حصل لى فى هذه اللحظة فوق ما حصل لى فى صحبتة الشيخ أبى السعود (٣) فى خمس

(١) كشف النقاب عن انساب اربعة الاقطاب - ص ١٤ .
(٢) المنح الالهية من مناقب السادة الوفاية - مخطوط بدار الكتب العامة بالقاهرة ظهر الورقة ١٥ ووجه ١٦ .
(٣) هو الصوفى الشهير أبو السعود بن أبى العشائر الباذينى توفى سنة ٦٤٤ هـ .

وعشرين سنة) قال : ثم دعاه الى بيته وأضاه ورفع له علما على رأسه وصار يقول : بسم الله يا ملك الاولياء . والتفت الامام ابو الحسن الى ابي المواهب المذكور وقال له (أنا رجل عيسوى (١) وسيظهر بغدى المحمدى (٢) .

ولا يخفى أن والد القطب الدسوقي كان من أجل أصحاب العارف محمد بن هرون ، وقد نصت الرواية على أن هذا قد قصده فى وفد من أصحابه ، ومقابلة هذا الامام الشهير هى مقابلة يسرع ويبادر اليها كل من كانت له قدم فى التصوف ولو على سبيل الترحيب بضيافته .

فاذا علمنا ان القطب الشاذلى قد قصد الحج فى عام وفاته اى سنة ٦٥٦ هـ ، فان عمر القطب الدسوقي يكون فى هذا التاريخ حوالى ثلاث سنوات .

وعلى هذا فان والد القطب الدسوقي يكون ضمن الوفد الذى استقبل الامام الشاذلى حين شرف ناحية سنهور بالزيارة ، وهى زيارة قصد منها تسوديع اصحابه فلعله لا يراهم فيما بعد ، وقد صحب معه اهله : اذ ان زوجته - والسدة القطب الدسوقي - السيدة فاطمة الواسطية - عرفت فى كتب التاريخ بأنها الولية العابدة الزاهدة ، وكان القطب الدسوقي يشير الى الامام الشاذلى بأنه خاله وهذا اما لقربة نسب بين أسرة والدته وأسرة الامام الشاذلى واما لانها قد تلقت طريق السادة الشاذلية فكانت من أخلص اتباع الامام الشاذلى أوهما معا . وكان معهما فى هذه الزيارة ابنهما الحبيب السيد ابراهيم ليتبرك بالامام الشاذلى على عادة المصريين كلما زاروا رجلا مباركا .

(١) العيسوى فى اصطلاح الصوفية. هو الذى ينتقل منه الحال الى من له استعداد عن طريق الملامسة : كاللمس بالرد أو المعانقة أو أن يلبس الرداء الذى يهبه صاحب الحال ، وقد يأمرن الشخص ببسط ردائه فيغرمون له على قدر ما يجد لهم من الغرفات ثم يأمرن بضم الرداء الى صدره : قال الامام التلمسانى (فأى شيء فعلوا من ذلك سرى ذلك الحال فى ذلك الشخص المأمور المراد به فى وقته لا يتأخر وخرج مما كان فيه وانقطع) ونسب هذا المقام لسيدنا عيسى عليه السلام لان أشهر معجزاته الحسية كانت باللمس أو النفخ : لانه متولد من النفخ الجبرائلى ثم قال الامام التلمسانى من الحركة التى تصاحب هذا الحال (ما ظهر شيء من ذلك الا بحركة محسوسة لاثبات الاسباب التى وضعها الله تعالى ليعلم أن الامر الالهى لا ينخرم وانه فى نفسه على هذا الحال ا هـ وقد بسط الكلام على هذا المقام محمد بن أحمد التلمسانى فى كتاب النصوص له تحت عنوان (العيسوى من الاقطاب) مخطوط بدار الكتب العامة .

(٢) اعتبر السادات الوفاية هذه الاشارة تبشيرا بظهور القطب الكبير السيد محمد وفا الشاذلى .

ج) صلته بخلفاء الامام الشاذلى

نقصد بالخلفاء هنا تلامذة الامام الشاذلى بلا واسطة الذين اذن لهم بالتربية على طريقته ، وهم كثير : وقد ذهب الشيخ محمود بن (١) عفيف الدين الوفائى الشاذلى الى أن الامام الشاذلى لما دخل مصر كان معه من المتجربين نحو من سبعين ألفا - وقد تضاعف عددهم حينما استقر الامام الشاذلى فى البلاد المصرية .

ومن أجل المعاصرين من خلفاء الامام الشاذلى للقطب الدسوقى :

بالاسكندرية :

منهم العارف القبارى : أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى ت ٦٦٢ هـ .
وأبو عبد الله الشاطبى محمد بن سليمان المعافى الشاذلى الشهير بالشاطبى ت ٦٧٣ هـ .

وأجلهم جميعا القطب المرسى . أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى ت ٦٨٦ هـ .
وأجل خلفائه ابن عطاء الله السكندرى : أحمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٧٠٩ هـ .

وبدمنهور :

أبو عبد الله السائح المغربى : سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد المغربى الدمنهورى الشهير بالسائح : أصله من المغرب وساح فى البلدان الاسلامية وتولى الاقراء فى الحرم المكى ثم رحل الى مصر . واستقر بدمنهور واتصل بالامام الشاذلى وصار خليفته على ناحية دمنهور ت ٦٨٤ هـ - بدمنهور .

وقد اقتصرنا على الاسكندرية ودمنهور لانهما الناحيتان اللتان كانتا للقطب الدسوقى بهما علاقة وطيدة .

وسنذكر المصادر التى اثبتت للقطب الدسوقى الاخذ عن احد خلفاء الامام الشاذلى : قال العلامة حسن (٢) بن حسين القادري عند ذكره لمشايخ القطب الدسوقى (وفى مشايخ سيدى ابراهيم الدسوقى فى العهد أيضا روايتان :

(١) معاهد التحقيق له - ط - القاهرة ١٩٠٥ ص ١٤٤ .
(٢) منه الوهاب - مخطوط بدار الكتب العامة وجه ظهر الورقة ١١ .

إحداهما أنه أخذ العهد من نجم الدين البكرى) وبعد أن ساق أسنادهما قال (ثانيهما أنه أخذه عن سيدى يوسف بن حجاج الاقصرى عن أبى الحسن الشاذلى) .

والرواية الأخيرة مردودة لأن القطب الاقصرى توفى سنة ٦٤٢ هـ ، والقطب الدسوقى ولد سنة ٦٥٣ هـ (١) فلا بد أن يكون بينه وبين القطب الاقصرى رجل ولا يبعد أن يكون هذا الرجل هو والده .

ومن المقطوع به أن القطب الدسوقى لم يأخذ الطريق عن أحد من تلامذة الامام ولو حدث ذلك للزم القطب الدسوقى الامام المرسى وهو الخليفة المطلق على الشاذلية بعد وفاة الامام الشاذلى .

صلة القطب الدسوقى بالسادة الوفاية الشاذلية

روى ابن فارس فى المنح الالهية (٢) عن السيد على وفا : أن والده القطب محمد وفا الشاذلى دخل بلدة دسوق (وكان بهاسيدى ابراهيم الدسوقى فقصد الاجتماع به فى محل تعبد ، فسلم عليه . فلم يلتفت اليه . فنظر اليه سيدى (٣) وقال : ليس الشأن هذا ، قم معى . فمسك بيده ونزل به من الغرفة التى كان بها الى أرض الفلاة ، وكان وقت الربيع والأرض مكسوة بالزرع . فاستغرق سيدى فى وادى الذكر يقول : الله . الله . الى أن صارت كل عشب فى الأرض تقول معه : الله . الله . فقال له كذا يكون الشأن) أى أن يستغرق الذاكر فى المذكور حتى يذكر معه كل شيء .

ويرد على ذلك بأن القطب السيد محمد وفا بن محمد الاوسط بن محمد النجم الحسنى الادريسي ولد سنة ٧٠٢ هـ بالاسكندرية وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦٥ هـ وله ضريح مشهور بمسجد السادات الوفاية - ومن هذا نستطيع أن نحدد من كان معاصرا له من البيت البرهامى .

(١) قد نكون هذه حجة للروايات التى تقول أنه ولد سنة ٦٣٣ هـ وهى روايات أبطلناها . وعلى فرض أنه ولد سنة ٦٣٣ هـ فلا يصح أن يقال أنه تلقى الطريق عن القطب الاقصرى وهو فى سن التاسعة ثم لا يتلقى الطريقة الشاذلية على يد صاحبها وهو فى سن الثالثة والعشرين . ثم أنه لو كان هناك أى رواية صحيحة فى هذا الصدد لاشتهرت واستفاضت وعدت من أكبر مناقب القطب الاقصرى .

(٢) المنح الالهية من مناقب السادات الوفاية - مخطوط - ظهر الورقة ٦ .

(٣) يعنى أقط ب محمد وفا .

ومعلوم ان القطب الدسوقي بعد وفاته ، قد خلفه اخوه ابو العمران شرف الدين موسى وبعد وفاته سنة ٧٣٩ هـ خلفه ابنه شمس الدين محمد والراجع ان الاجتماع كان مع الاخير . والظاهر أن القطب الوفائي قد زار دسوق معزياً في وفاة شقيق القطب الدسوقي فحدثت الواقعة المذكورة آنفاً فيكون في القصة حذف تصحيحه أنه (دخل بلدة دسوق وكان بها خليفة سيدي إبراهيم الدسوقي) أو (ابن شقيق سيدي إبراهيم الدسوقي) . والخليفة يطلق على القائم بأمر الطريق .

والذي صح اجتماعه بالقطب الدسوقي من آباء السادة الوفائية هو السيد محمد النجم جد القطب محمد وفا وهو أول من نزل من أصول بني الوفا بالديار المصرية وافداً من المغرب ، وكان نزوله بثغر الاسكندرية واليه تنسب الزاوية النجمية بالثغر الاسكندري .

٥ - صلته بالسطوحية الاحمدية

تقول الروايات أن هذين القطبين الجليلين السيد أحمد البدوي في طنطا والبرهان الدسوقي بدسوق كانا على اتصال عن طريق مريدي كل منهما ، اذ كان هؤلاء يتولون تبليغ ما يطلب منهم فيترددون ما بين دسوق وطنطا . والمشهور أن كلا منهما كان يكن لاختيه الحب الخالص في الله عز وجل ، ومما ينسب للقطب الدسوقي في بيان فضل القطب السيد أحمد البدوي هذا البيت المشهور :

فضل الله عليهما عم كل الجماعة تبع والسيد عم

على أن الدليل القاطع الذي يثبت قوة الصلة بينهما هو اشتغال الحزب الدسوقي الكبير على الفاظ من حزب أبي الفتيان ولا يتعقل اشتراك الحزبين في هذه العبارات بدون وجود رابطة روحية قوية بين هذين القطبين الجليلين :

وحزب القطب النبوي السيد أحمد البدوي هو هذا

لووا [١] عما نووا ، فعموا وصموا عما طووا رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين .

(١) مبنى للمجهول : بمعنى صرفوا .

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم يجعل كيدهم في تضليل • وأرسل عليهم طيرا أبابيل • ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم كعصف مأكول •
اللهم اكفنيهم بما شئت — اللهم أنى أعوذ بك من شرورهم وأدراكك في نحورهم ، بك أحاول وبك أقاتل — اللهم واقية (١) كواقية الوليد — بكهيعص كفيت — بحم عسق حميت — فسيكفيكم الله وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين •

وجاء في الحزب الكبير للقطب الدسوقي :

(رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين نووا فلووا عما نووا ثم لووا عما نووا فعموا وصموا عما نووا فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا • أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا) الى ان قال بعد حوالى اربعة عشر سطرا
(بكهيعص كفيت • بحم عسق حميت — فسيكفيكم الله وهو السميع العليم (ثلاثا) ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، الى آخر الحزب •
ومما يؤكد ما قلناه ما رواه البقاعي (٢) في طبقاته نقلا عن العارف أحمد الشناوى : أن أبا الفتيان قال للقطب الدسوقي •

أما سمعت وعلمت أننا أخذنا العهود والمواثيق على بعضنا ؟
أما سمعت وعلمت ان الله حرم على من يفرق بيننا خيرى الدنيا والاخرة ؟
أما سمعت وعلمت ان الله لعن من يقول هذا على طريقة وهذا على طريقة ؟
أما تعلم ان الله لعن من يقول هذا له مجلس ذكر وهذا ليس له مجلس ذكر ؟
أما تعلم ان الله تعالى فتح على من لم يفرق بيننا ؟

ولاشك أن هذا الحديث جرى أثناء المراسلات التى تمت بينهما وهو حديث يدل على مبلغ ما كان بينهما من ود وحب وصفاء وقوة ارتباط فى الله عز وجل •

(١) فى رواية : وقاية وفى أخرى كلاءة •

(٢) طبقات الإمام البقاعي — مخطوط بدار الكتب العامة بالقاهرة ظهر الورقة ١٢٦ •

« فتحه رضى الله تعالى عنه كان وهبيا لا كسبيا »

مما يستلفت النظر فى تاريخ حياته رضى الله تعالى عنه أنه كان ينطق بالعلوم الوهبية منذ طفولته مما يدل على أن فتحه كان وهبيا .

ولا توجد رواية واحدة تدل على أنه سلك الطريق على يد شيخ للتربية لازمه حتى وصل على يديه وأذنه بتربية المريدين ولو كان ذلك والده رضى الله تعالى عنه، إذ لو حدث ذلك لأشتهر واستفاض عن المعاصرين نسبة القطب الدسوقي الى أستاذ معين، بل لأعلن القطب الدسوقي ذلك فى مجالسه العلمية وما أكثرها، كما هو شأن العارفين مع أساتذتهم وهو من قبيل شكر من وصلت النعمة على يديه : وأى نعمة أكبر وأجل ممن كان سببا فى معرفة العبد بخالقه عز وجل ؟

والروايات التى صرحت بذكر شيوخه فى الطريق، إنما هى روايات تبرك لا تربية، ومعظمها لا يتم اتصاله بالقطب الدسوقي الا عن طريق والده الذى يجب أن يكون من ضمن رجال الاسناد فى الطريقة البرهامية والا انقطعت رواية هذا الاسناد .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه - من أن فتحه كان وهبيا - أنه لم يشتهر عنه أنه قام برحلات فى طلب الاساتذة العارفين - شيوخ التربية - كما هى عادة كبار الصوفية المشهورين، وكل ما نعرفه عنه أنه كان ينتقل لتربية المريدين فى دائرته . ومن المدن التى تردد عليها : دمنهور .

حكى فى الحقائق [١] أنه [سافر الى دمنهور الوحش بالبحيرة، فمر ببئر، فطلب منها ماء ليشرب فقليل له أن ماءها مالح - فتقل فيها، فحلت ببركته فقال :

إذا وردوا الاطلال تاهت بهم عجا
وان لمسا عودا زها غصنه رطبا

(١) الجلال الكركى : لسان التعريف ظهر ق ٤٤ - نور الحدق له ظهر ٦٢ .

وان وطئوا يوما على ظهر صخرة
لأنبتت السماء من وطئهم عشباً

وان وردوا البحر الأجاج شواربا
لأصبح ماء البحر من ريقهم عذبا (١)

قال ابن مغيزل : (٢)

ومن شاهد عذوبة الماء ببركاتهم أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي لما دفن
بحميثرا (٣) وغسل من مائها ، عذب الماء بعد ذلك وكثر حتى صار يكفى
الركب اذا نزل عليه ، ولم يكن كذلك قبل ذلك ، والى ذلك اشار ابو
عبد الله بن النعمان بقوله فى قصيدة له :

رأيت له بعد الممات عجائبا تدل على من كان للفتح يجسد

ونقل الجلال الكركى عن كتاب «مراسم الطريقة فى فضائل اهل الشريعة
والحقيقة» أن (الشيخ له كرامات كثيرة وانه كان مجذوبا من صغره)
واستدرك عليه الجلال الكركى بقوله (وليس (٤) المراد بالجذبة لاستاذنا غيبته
عن التدبير بالعقل ، لانه كان له استنباط وتأليف لمصنفات كما سيأتى . بل
المراد والله أعلم : أنه سبحانه جذبه اليه من صغره حتى بلغ حالة الكمال فى
رتبة المشيخة فصار مجذوبا متداركا بالسلوك) .

يقول الامام السهروردى (٥) فى هذا الصدد فالشيخ قد يكون (٦)

(١) فى نور الحديق خلاف فى ترتيب الابيات اذ وضع الثانى مكان الثالث وبالعكس .
(٢) الامام عبد القادر بن الحصبين الشذير تاجه مغيزل (الكواكب الزاهرة) مخطوط بالمكتبة
الازهرية . وقد قمنا بتصحيحه والتعليق عليه فى انتظار من يتفضل بنشره .
(٣) وترسم أيضا (حميثرة) مكان فى صحراء عذاب بين قنا والقصر فى طريق الحج فى
ذلك الوقت .

(٤) لسان السعيرف — مخطوط ظهر ق ١٢ ق
(٥) هو الامام الصوفى العالم العارف شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله
الصدىقى السهروردى المتوفى سنة ٦٣٣ هـ وهو أجل رجال الطريقة السهروردية ومن أشهر
كتبه عوارف المعارف .

ولا يلبس الأمر بعمه الامام ضياء الدين عبد القاهر بن عبد الله أبو النجيب السهروردى
الصدىقى المتوفى ببغداد سنة ٥٦٣ هـ .

وهناك سهروردى آخر هو الحكيم الاشراقى شهاب الدين يحيى بن حبشى السهروردى ،
ولد سنة ٥٥٠ هـ مصر وأعدم بأمر من السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ وهو ليس من هذه
الاسرة — وسهرورد باقليم الجبال قرب زنجان وتعرف بعراق المعجم .

(٦) عوارف المعارف — طبعة ملحقة بكتاب الاحياء للامام الغزالى ص ٧٥ : ٧٦ .

مأخوذاً في ابتدائه في طريق المحبين ، وقد يكون مأخوذاً في طريق المحبوبين ،
وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام :

(سالك مجرد ، ومجذوب مجرد ، وسالك متدارك بالجملة ، ومجذوب متدارك بالسلوك : فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والريضة ولا يرتقى إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة .

(والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب ، ولا يؤخذ في طريق المعاملة - والمعاملة اثر تام سوف نشرحه في موضعه ان شاء الله تعالى - وهذا ايضا لا يؤهل للمشيخة ويقف عند حظه من الله مروحاً بحاله غير مؤاخذ في طريق اعماله ماعدا الفريضة .

والسالك الذي تدورك بالجملة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالاخلاص والوفاء بالشروط . ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال فوجد العسل بعد العلقم ، وتروح بنسمات الفضل وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة ، فوجد دواءه وقاوض وعاءه وصدرت منه كلمات الحكمة ، ومالت إليه القلوب ، وتوالت عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسدداً ، وباطنه مشاهداً ، وصالح للجلوة وصار له في جلوته خلوة ، فيغلب ولا يغلب ويفتقر ولا يفقر ، يؤهل مثل هذا للمشيخة لانه أخذ في طريق المحبين ، ومنح حالاً من أحوال المقربين بعدما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين . ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوساً في حاله محكما حاله فيه ، لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال السؤال ، يقف عند حظه ، وهو حظ وافر سني ، والذين أوتوا العلم درجات .

(ولكن المقام الاكمل في المشيخة القسم الرابع وهو المجذوب المتدارك بالسلوك : يباديه الحق عز وجل بالكشوف وأنوار اليقين ، يرفع عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح قلبه ، ويتجافى عن دار الغرور ، وينيب إلى دار الخلود ويرتوى من بحر الحال ، ويتخلص من الاغلال .

والاعلال : ويقول معلنا « لا أعبد ربا لم أره [١] ثم يفيض من باطنه على ظاهره وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء بل بلذائذ وهناء حتا يصير قلبه بصفة قلبه (٢) لامتلاء قلبه بحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه : وعلامة لين جلده أجابة قلبه للعمل كأجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى ارادة خاصة ويرزقه محبة خاصة المحبوبين المرادين : يقطع فيواصل ويعرض عنه فيراسل ، ويذهب عنه جمود النفس ، ويصطلى بحرارة الروح ، وتنكمش عن قلبه عروق النفس قال الله تعالى ؟ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** » (٣) أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين ولا يكون هذا الا حال المحبوب المراد .

(فالمحبوب المراد هو الذي اهل للمشيشة ، وقد سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده فصار قلبه بطبع الروح ، ونفسه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت اشارة بالسوء مستعصية ولان الجلد للين النفس ، ورد الى صورة الاعمال بعد وجدان الحال ، ولا تزال روحه تنجذب الى الحضرة الالهية فيستتبع الروح القلب ، ويستتبع القلب النفس ، ويستتبع النفس القلب : فامتزجت الاعمال القلبية والقلبية وانخرق الظاهر الى الباطن ، والباطن الى الظاهر ، والقدرة الى الحكمة ، والحكمة الى القدرة ، والدنيا الى الآخرة ، والآخرة الى الدنيا : ويصح له أن يقول « لو كشف الغطاء (٤) ما ازددت يقينا » فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطرا على الحال ويصير حراما من كل (٥) وجه .

(١) يعنى بالقلب فيستغرق القلب في مشاهدة آيات الله عز وجل وعظمته وعجائب قدرته وبدائع حكمته وجبيل صنيعه ، ويتغذى الروح من هذه المشاهدة وتفيض أنواره على وجود الإنسان : فيتصف بكارم الاخلاق ، وينزه نفسه عن سفاسفها ، ولا يشرك بالله عز وجل أحدا في جميع أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته ، يختار أن يلقي في النار ولا يحتجب عن الله عز وجل طرفة عين .

(٢) يعنى يصبح جسده تابعا لروحه وتتخلص الروح من أسر الشهوات الحسية التي تفرضها النفس على الإنسان فتحجبه عن معرفة الخالق سبحانه وتعالى .

(٣) من الآية ٢٣ سورة الزمر .

(٤) هذا من كلام أمير المؤمنين سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

(٥) هذه هي الحرية الحقبة التي جرى رءاها فلاسفة السياسة والاجتماع والاقتصاد وعلماء النفس والتربية والاخلاق فلم يتجاوزوا في معرفتها سوى القشور بقى اللب وراء الوراها انها التحرر من كل عبودية لغير الله عز وجل ، أنها التحرر من العبودية للأشياء في جميع صورها ، وتخليص النفس من الارتباط بشيء سوى الخالق سبحانه وتعالى : هذه هي الحرية

بل يؤخذ من كلامه رضى الله تعالى عنه أن فتحه كان وهيبا ولم يكن على يد
مرب : فقد اشتهر عنه أنه (كان إذا مد القلم وكتب افتتح الكلام بقوله « هذا ما
فتح الله به من فتوح الغيب من روضة النفس فى حظيرة القدس » ولا يزال
يكتب بتلك المدة الواحدة حتى ينقطع الكلام سواء قل أم كثر) .

وقال فى الجوهرة (١) عن نفسه .

[لقد أخذنى حبيبى من اياى ، وسلبنى عن معنای ، وأفنانى عن فناء ،
فتلقيته لا من تلقاى ، واستجليته لا بمرآى ، وخاطبته لا بايائى ، وناجيته لا
باصفاى ، واجلسنى على سرير الصفا وسقانى بكأس الوفا ، وعقد لى لواء
الولا فاستعذبت فيه اليم العذاب والبلا ، ورضيت فيه بتقديم القضا : فلو
جرعنى كؤوس المنية لشربتها ، ولو عذبنى بفنون الرزية لاستعذبتها ، ولو
أوردنى موارد الهلكة لوردتها ، فأنا معه كما يريد لا كما أريد فهو المراد وأنا
المريد) .

وفى شرح هذه العبارة يقول الجلال الكركى :

يستفاد (٢) من قول الاستاذ (وأفنانى عن فناء) انه صار من عباد الله
الذين محق الله سبحانه أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه ، وذواتهم بذاته ،
وحملهم من أسرار ما تعجز عامة الاولياء عن سماعه فارتفعوا بفنائهم عن رؤية
فنائهم ، وهم الذين غرقوا فى بحار الذات وتيار الصفات .

[فهى اذا فناءات ثلاث أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله ، وعن
أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته . فالاول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه
بصفات الحق ، ثم الثانى فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق ، ثم الثالث
فناؤه عن شهود فناءه باستهلاكه فى وجود الحق : وهذا مقام الخاصة ، اذ
العامة نظرهم الى الخلق والخاصة نظرهم الى الحق ، فلا تدبير لهم ولا اختيار
فهم محجوبون بالحق عن الخلق) .

الكبرى التى جاء بها خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه فأعجز العالمين فى الكشف
عنها وبيانها وتأسيسها ووضعها وتأمينها ، وتعميمها بحيث تشمل البشر جميعا فى كل زمان
ومكان .

(١) نقل هذا النص الجلال الكركى فى لسان التعريف وجه الورقة ١٤ .

(٢) لسان التعريف ظهر ق ١٩ وما بعدها .

ويعنى من قوله « فلا تدبير لهم ولا اختيار » اى لا يتعدى أحدهم حدود الشريعة بالانغماس فى الملمات والشهوات ، فلا وجه له فى كل لحظة أو فى كل فعل أو قول سوى رضى مولاه عنه .

ثم قال (وأما خاصة الخاصة فيشهدونهما لا يحتجبون بأحدهما عن الآخر لوصولهم الى مقام البقاء ، ومن وصل الى هذا المقام يكون اختياره من اختيار الله لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه .

وقول الاستاذ [وخاطبته لا بايى وناجيته لا باصغى] يعنى لم أسمع مناجاته لى وقت مناجاتي له باصغاء السمع بل بالقلب والسر لان سماع كلام الله تعالى يحصل بجميع وجود السامع لا بحاسة من حواسه فهو يسمع من الله بالله كما جاء فى الحديث القدسى [كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به] فهو السامع السميع ، الشاهد المشهود ، ومن توهم الطول أو الجهة فقد كفر . فالحجاب الذى بين الانسان وخالقه انما هو حجاب معنوى وليس بحجاب حسى ، وهو حجاب منسوج من أوهام النفوس التى أصيبت بمصيبة الاعراض عن الله تعالى لانصرافها عن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمشاهدة التى يعنيها الصوفية : ليست من الرؤية البصرية ولكنها مشاهدة القلوب لعظمة الله عز وجل واستغراقها فى هذه المشاهدة بقدر معرفة صاحبها وفى هذا يقول ابن عروس :

من لم يشاهد بالبصرة ذاته فلقد أحاط به حجاب عماه

فالاعمى هو الذى انطمست بصيرته فلم تشهد عظمة الخالق وجلاله وجماله وكماله ، فانطلقت النفس ترتع بلا حسيب ولا رقيب فى ميادين حجب الغرور والظلم والفساد ، ولا رادع يردعها ولا لجام يكبح جماحها .

يقول الجلال الكركى : (وأما قوله « وسقانى بكأس الوفا » فمن جملة قصيدة له .

شربت دنان الصرف فى حضرة الرضا وكان دليلى للهدى سيد العرب

لا شك ان صفاء معاملاتهم توجب لهم ذوق المعانى ، والذوق عند ساداتنا

الصوفية أول درجات شهود الحق بالحق فى اثبات البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلى البرقى . فاذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهودسمى شربا ، فاذا بلغ النهايةسمى ربا ، وذلك بحسب صفاء السر عن ملاحظة غيره ، فالمراد بالشرب فى كلامهم النور الساطع المسفر عن جماله ، والمراد بالكأس اللطف الموصل لذلك الى أفواه القلوب) .

ويقول رضى الله عنه عن نفسه فى كتابه الحقائق :

(اعلّموا وفقكم الله : ان الفقير - يعنى نفسه - كان بقرية لا بها فقيه ولا معلم ، ولكن ذلك بما فتح الله به من فتوح الغيب من بركة سيد الانبياء والمرسلين خير الانام ومصباح الظلام ورسول الملك العلام على قلب عبده ابراهيم الدسوقي القرشى الصوفى المقتدى بالقرآن) يعنى ان علومه الوهبية لا منه لأحد عليه فيها سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد صرح فى مكان آخر من كتابه « الحقائق » بقوله (ان النبى صلى الله عليه وسلم أخذ على العهد بيمينه وصار يكشف لى عن الامور ويفتح لى أقفال الحجب) .

يقول الجلال الكركى [من هنا قيل أنه رحمة الله عليه كان اذا لبس أصحابه خرقة الفقر^(١)] يقول تلقيتها عن سيد الاولين والاخرين : اعلّموا البسنا الله واياكم لباس حبه والحقنا وأنتم بموجبات قربة ، ان العارف قد يجذبه الله اليه فلا يجعل عليه منة لاستاذ ، وقد يجمع شمله بالنبى صلى الله عليه وسلم فيكون آخذا عنه وكفى بهذا منة) .

وهذا مقام لم ينفرد القطب الدسوقي به ، بل صرح ببلوغه كثير من أقطاب الطرق الصوفية : وقد تواترت الروايات عن كل العارفين انهم لا يعرفون لهم مرشدا سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الذين صرحوا بذلك قبل القطب الدسوقي :

الامام عبد القادر الجيلانى الشريف الحسنى ت ٥٦١ هـ . والامام أحمد الرفاعى الحسينى ت ٥٧٨ هـ ، والشريف القطب عبد الرحيم القنائى ت ٥٩٢ هـ

(١) يعنى التصوف .

وكان يقول (أنا لا منة لاحد على الا رسول الله صلى الله عليه وسلم)
والعارف الشهير عبد السلام بن بشيش الحسنى ت ٦٢٦ هـ والشيخ الاكبر
محيى الدين بن العربى الحاتمى الطائى ت ٦٣٨ هـ والامام الشاذلى ت ٦٥٦ هـ
ومن المعاصرين له :

أبو القتيان السيد أحمد البدوى القطب الشهير رضى الله تعالى عنه وكان
يقول :

ليس لى شيخ ولا لى قدوة غير خير الرسل طه الأولا
وأبو العباس أحمد بن عمر المرسى ت ٦٨٦ هـ وكان يقول [والله لو غاب
عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين]
وقال مقالته الكثيرون من بعده حتى الان .

والعارف الشهير مكين الدين الاسمر : عبد الله بن منصور الاسكندرى
٦١٠ - ٦٩٢ هـ وكان يقول (انا ماريانى الا رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

والحافظ الامام عبد الله بن أبى جمرة ت ٦٩٩ هـ .

وممن جاءوا بعده :

العارف الكبير السيد محمد وفا الشاذلى ت ٧٦٥ هـ وابنه القطب السيد على
وفات ٨٠١ هـ والعارف المتبولى ت ٨٨٨ هـ والامام جلال الدين السيوطى
٩١١ هـ وتاج العارفين شيخ الاسلام أبو الحسن البكرى ت ٩٥٢ هـ وابنه
شيخ الاسلام الشمس محمد البكرى ٩٤٤ هـ والامام اللقائى . وقد سئل
العارف عبد الجيد بن أبى القاسم البادسى ت ١٠٠٤ هـ من أين اعترتك
هذه الاحوال ؟ فأجاب « والله ما لاحد على منة الا لرسول الله صلى الله
عليه وسلم » الى آخر ما قاله .

وممنهم القطب الصوفى عبد الله بن ابراهيم الشريف العلمى ت ١٠٨٩ هـ
وابنه العارف السيد محمد ت ١١٢٠ هـ .

والعارف الكبير السيد عبد العزيز بن مسعود الدباغ الحسنى الادريسى ت

١١٣١ هـ وتلميذه الحافظ أحمد بن المبارك السجلماسي ت ١١٥٥ هـ وقد نقل عن استاذة ما يبهر العقول في كتابه الأبريز .

ومنهم الامام العارف مصطفى بن كمال الدين البكري ت ١١٦٣ هـ والقطب محمد بن عبد الكريم السمان ١١٨٩ هـ ، والشمس محمد بن سالم الحفني شيخ الاسلام ت ١١٨١ هـ ، والعارف على الجمل بن عبد الرحمن الحسني الجهراني : ١٠٨٨ — ١١٩٤ هـ ، ومؤسس الطريقة التيجانية أبو العباس أحمد التيجاني الحسني ت ١٢٣٠ هـ ومولاي العربي بن أحمد الدرقاوي ١٢٣٩ هـ ، وتلامذته البوزيدي والحراق وابن عجيبه ومحمد حسن بن حمزة ظافر المدني .

والقطب أحمد بن ادريس الحسني ت ١٢٥٣ هـ ومن خلفائه المشهورين السيد محمد عثمان الميرغني والشيخ ابراهيم الرشيد .

والقطب الصقلي : الطيب بن محمد ت بين ١٢٦٠ ، ١٢٧٠ هـ وابنه الشريف محمد الصقلي ت ١٢٧١ هـ .

والسيد محمد الشاذلي المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ وتلميذه المجاهد الكبير أمير العلماء السيد عبد القادر الحسني الجزائري ١٣٠٠ هـ وله كتاب المواقف في ثلاثة مجلدات أتى فيه بفرائب الفتح .

والشريف العارف الشهير محمد بن عبد الكبير الكتاني ت ١٣٢٧ هـ وغيرهم وغيرهم . وهؤلاء الذين ذكرنا : منهم من ترك لنا من المؤلفات ما تجاوز المائة والمائتين ، ومنهم من فسر القرآن العظيم في ستين مجلدا .

وقد تكلم العارفون والائمة على هذا المقام : ومنهم الامام عبد القادر بن الحسين بن علي الشهير بأبن مغيزل في كتابه (الكواكب الزاهرة في اجتماع الاولياء يقظة بسيد الدنيا والاخرة) وهو قسم من كتابه (الفتح المبين بمعرفة مقامات الصديقين) وكلاهما مخطوط — وممن حاول تعريفه من المتأخرين العلامة يوسف بن اسماعيل النبهاني في كتابه (سعادة الدارين) (١)

(١) ط — بيروت سنة ١٣١٦ هـ . من ص ٤٠٩ : ٤٦٥ .

يقول العارف محمد المغربي الشاذلى ت [حوالى ٩١٠ هـ] فى هذا المعنى [المراد برؤيته صلى الله عليه وسلم كذلك — أى يقظة — يعنى يقظة القلب لا يقظة الحواس الجثمانية ، لان من بالغ فى كمال الاستعداد والتقرب صار محبوبا للحق واذا احبه كان نومه من كثرة اليقظة القلبية كحال اليقظة التى لغيره] .

فهو مقام من مقامات العارفين كالمقام الخضرى الذى يتحدث فيه العارف عن اجتماعه بالحضر عليه السلام ، وقد أكد الامام داود بن محمود القيصرى أن هذا الاجتماع الخضرى انما هو مقام من مقامات المعرفة وأفرد ذلك فى رسالة سماها (تحقيق ماء الحياة فى تحقيق أن الخضر مقام من مقامات الصوفية) وهى مخطوطة بدار الكتب العامة .

ومرتبة الاخذ عنه صلى الله عليه وسلم مرتبة عزيزة من مراتب كمل العارفين يصلون فيها الى درجة مشاهدته صلوات الله وسلامه عليه فى جميع شئونهم وأمورهم ومن هذه المشاهدات تسرى اليهم العلوم والمعارف التى تنمى استعداداتهم وتسقيهم بالعلوم فى كل لحظة .

وللعارفين بالله عز وجل علامات فىمن بلغ هذه المرتبة أهمها : العلم بالكتاب والسنة ، والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم فى جميع الاقوال والاعمال والاحوال ، والتحقق بشعب الايمان ، ومعرفة أدب كل وقت وكل حال وابتغاء الله عز وجل فى كل أمر من أمور الوجود الى آخر ما ذكرناه من الشروط التى لا تخفى على أحد .

البَابُ الثَّالِثُ

بعض صفاته من شريف أحواله

ان معرفة الانسان لنفسه من اصعب الامور واعقدها ، مع ان النفس اقرب مخلوق الى الانسان ! ويكفى هذه المعرفة شرفا وعلوا ان من عرف نفسه عرف ربه ، وتختلف مراتب العارفين بحسب تفاوتهم فى معرفة النفس ، فاعلام معرفة بنفسه اعلام معرفة بربه . ولا يعلم اسرار النفس البشرية مثل المؤمنين ، ولا يهتدى الى امراضها ودسائسها سوى من اهتدى بهدى المرسلين : ولذا نجد ان اقرب المؤمنين من العمل بكتاب الله عز وجل وهدى الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم اشداهم علما بخبايا النفوس ونزعاتها واهوائها . ولا تعرف النفس الا من هذا الباب فقط ما ثم باب غيره .

ومن المتفق عليه بين العلماء ان الانسان لا يستطيع ان يرسم لغيره صورة متكاملة عن نفسه التى بين جنبيه ! هذا الانسان الذى قد يذهب به الغرور الى الادعاء بأنه يعلم كل شئ : يجهل نفسه فلايكاد يدرك عن طبيعة وجودها شيئا ما لم يسترشد بالوحي الالهى .

ولذا نجد ان آراء العلماء لا تتعدد وتختلف وتضطرب مثلما تتعدد وتختلف وتضطرب عند بحث موضوع النفس البشرية وطرق تقييمها ! بل ما لنا نذهب بعيدا ، ونحن نلمس الاختلاف الفاضح عندما يتعرض العلماء لبحث الصفات التى يجب اعتبارها عند تقييم مهنة من المهن .

فمثلا نجد ان علماء التربية وعلماء العلوم النفسية فردية وتجريبية وتحليلية واجتماعية ينقسمون الى مدارس متعددة بصدد الصفات التى يجب توافرها فى المدرس الناجح ، والمتقف الهامشى يظن ان هذا التعدد فى الاراء انما مرجعه الى اختلاف المقومات الثقافية لكل شعب . والواقع ان هذه الصفات اصبحت تختلف من دولة الى دولة طبقا لمفهوم التربية عند الدولة : فالمدرسة النازية لها شروطها ، والمدرسة الفاشية لها شروطها ، والمدرسة الشيوعية لها شروطها وتنقسم بعد ذلك الى اقسام . وكل مدرسة بعد ذلك كله تحرص كل الحرص على مصادرة حجج المدارس الاخرى وتتفنن فى اظهار عيوبها . وقد وصلت نقاط التقييم فى بعضها الى ٦٠ نقطة كل نقطة تنقسم الى خمسة انواع ! هذا كله عن

الصفات اللازمة لمهنة من المهن التي يمارسها الانسان فما بالك بالانسان نفسه .

لقد حاولت مدارس التربية والنفوس والاخلاق والاجتماع وضع المعايير لتقييم الشخصية والحكم عليها، فكانت النتيجة ان كلاً منها وصلت الى موازين لا تصلح الا للحكم على الاعمال الظاهرية ليس الا ، وتبقى الشخصية الحقيقية للانسان مخفية وراء غوامض أسرار النفس البشرية بعيدة كل البعد عن متناول احكام هذه الموازين السطحية .

ولذا نجد ان الكتاب المتخصصين فى الكتابة عن الشخصيات يتناولون شخصية واحدة بالدراسة والبحث والتحليل ويبدل الواحد منهم ما عنده من جهد ويحاول ماوسعته المحاولة العلمية ان يلم بأطراف الشخصية التى يكتب عنها واذا بكل منهم يطالعنا بجديد لم يكشفه غيره .

نقول هذا لأن البعض يظن ان التعريف بالشخصية امر بسيط او هو فى متناول العلوم الحديثة ، ولذا نجد ان امثال هؤلاء يتسرعون باصدار احكام هامشية لاتمت بصلة الى الشخصيات التى يتحدثون عنها ويرغبون فى تصويرها وقد يتمادى بهم الجهل الى الظن بأنهم قد نجحوا فى سبر غورها، وكشف خباياها وخفاياها ، والجهل بالجهل هو الجهل المركب :

قال حمـار الحكيم يوما لو انصف الدهر كنت اركب
فأنا جهلى بسيط وراكبى جهله مركب

فهو يجهل انه جاهل :

هذا فى حق الشخصيات الدنيوية التى لم يتعد وجودها ابعاد الانطباعات الحسية وما يدور حولها من رغبات واهداف واهواء وشهوات ومطامع واخلاق ودوافع وسلوك .

فما بالك بشخصيات اكمل البشر بعد الانبياء والمرسلين وصحبهم ؟ الا وهم الاولياء . ان كل ما يستطيعه الانسان بصدد هؤلاء الكمل هو ان يعرض احوالهم وشئونهم ليعطر بذكرهم صفحات التاريخ البشرى ليقندى بهم من يسعى الى خيرى الدنيا والاخرة ، وليهتدى بهم من يطلب الله عز وجل وهو صادق فى الطلب .

ولكن عرض احوالهم وشئونهم ليس بالامر الهين : ذلك لان هؤلاء القوم ابعد الناس عن حب الظهور والمظاهر الكاذبة والدعاية المقيتة التي اُضاعت المتمسكين بتلابيب الدنيا فضلوا واضلوا .

ان القوم لا يعرفون سوى الله عز وجل ولا يتصلون بالناس الا بقصد جمعهم على خالقهم تبارك وتعالى ، فلا يجد الكاتب سوى شذرات وصلتنا عن تاريخ حياتهم وما اقلها وعلى ضوء هذه الشذرات يكتب كل على قدر فهمه لمن يكتب عنه . واقوم السبل للتعريف بهم هو دراسة آثارهم العلمية ثم الاستدلال بها على شريف احوالهم .

وسنبذل الوسع لنعرفه رضى الله تعالى عنه من نفس عباراته واحواله كما رواها الثقة عنه ، ونفرد فصلا نعرض فيه مختارات من اقواله لعلها تكون اصدق تصوير لكثير من ملامح شخصيته .

« مخاطباته في مشاهداته »

قال رضى الله تعالى عنه فى الحقائق : « اننى ذات يوم جالسا فى مكانى فاخذتنى سنة من النوم ، فنوديت فى سرى يا ابراهيم نمت عن النظر الينا (١) والمشاهدة فى هذه الساعة ، اترضى ان تكون من الغافلين ، فقامت مرعوبا ، .

وفى ذلك يقول :

كلى بكلك مشغول عن البشر فكيف انساك يا سمعى ويا بصرى
ولو ان عينى اليك الدهر ناظرة دنت وفاتى ولم اشبع من النظر

وللعارفين فى مقام المشاهدة احوال تدق عن الوصف فلا يدرك معانيها الا من ذاقها ، شأن كل علوم الاذواق : يقول سلطان العاشقين السيد عمر بن الفارض فى التائية الكبرى :

يشاهد منى حسننها كل ذرة بها كل طرف جال فى كل طرفة
ويثنى عليها فى كل لطيفة بكل لسان جال فى كل لفظة

(١) لسان التعريف : وجه ق ٢٠ .

وأنشق رياها بكل رقيقة بها كل أنف ناشق كل هبة
ويسمع منى لفظها كل بضعة بها كل سمع سامع متصنت
ويلثم منى كل جزء لثامها بكل فم في لثمه كل قبلة

فالإنسان يصل الى حالة يكون ادراكه فيها بسائر ذرات وجوده ، ولا يعلم هذه الحالة الا من ذاقها، فيكون كله ذرات تشهد وتصفى وتعقل عظمة الله عز وجل . ولا يصل الى هذه المرتبة الا من عمل بالقرآن العظيم واهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم ، وحرّم ذلك على غير المؤمنين .

وهذا هو السر فى أن بعض العارفين فى هذا المقام تمضى عليه الايام ولا ينام دون تكلف منه فى ذلك ، وبعضهم قد يمكث اياما لا يكلم احدا لانه لا يطيق الحديث مع الغير .

وقد ورد فى الروايات المتواترة عن ابي الفتيان القطب السيد احمد البدوى انه كان يطوى الاربعين يوما لا ينام بل يمكث شاخصا ببصره لا يجول له فكر الا فى مشاهدة عظمة الخالق الاعظم جل جلاله .

والسمع والمخاطبة والمشاهدة من المقامات التى لا يصل اليها الا من صفت نفسه ، وخلا قلبه من ظلمة الخواطر ، وتجرد من كل وصف دنىء وتخلق بكل خلق سنى ولم يطلب فى الوجود سوى رضا مولاه ، فكان فى كل حركاته وسكناته مجموعا على الله عز وجل لا يبغى سواه .

وللعارفين - فى ضبط انفسهم من الالتفات الى المخلوقات - عجائب : قال الشيخ أبو بكر الكتانى : كنت بوابا على باب قلبى أربعين سنة وما فتحته لغير الله حتى صار قلبى لم يعرف غير الله عز وجل .

وقال الامام ابو الحسن الخرقانى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ : لى اربعون سنة والله ينظر الى قلبى لا يرى فيه غيره ، ما بقى فى لغير الله شئ ولا فى صدرى لغيره قرار .

والمراد بحفظ القلب من الخواطر عدم ثباتها عند مرورها عليه ، فانها اذا ثبتت تحجب العارف عن الفيض وتخرجه من الحضرة .

وفى ذلك يقول العارف علاء الدين العطار (المتوفى سنة ٨٠٢ هـ) حرست

قلبي من الخواطر عشرين سنة ثم جاءت ولكن ما استقرت ، فلا عبرة بالخواطر
إذا لم تتمكن .

وقد جمع بعضهم المخاطبات التي جرت له مثل ابن عبد الجبار النفزي (١) .
قال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل
علمه وعمى قلبه وضيع عمره .

وقال الخراز : الانس محادثة الارواح مع المحبوب في مجالس القرب ولا
يكون ذلك الا بكمال التقوى وقطع العلائق ومحو الخواطر والهواجس .
وروى عن ابي العباس المرسى انه قال : لى الان اربعون سنة ما حجت عن
الله طرفة عين ، وكان ينشد من قصيدة لابن العطار :

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| رفعت مقامات الوصال حجابي | حتى احتجبت بكم عن الحجاب |
| ولزمت محرابي لزوم مجمع | فرايت وجه الحق في محرابي |
| وقتل من نفسي غلاما قتله | سبب النجا من اعظم الاسباب |
| وخرقت لوح سفينتي لاعيبها | فنجوت من ملك لها غصاب |
| وكشفت عن قلبي جدار حجاب | فبدأ كنزه الباقي بغير ذهاب |
| ورقيت في السبع السموات الملا | حتى دنوت فكنت مثل القاب |

وينصح القطب الدسوقي مريديه بالعمل للحصول الى مقام المشاهدة
بقوله : « فاعمل لعلك تكون من الذين عادت ارواحهم روحانية لطيفة نورانية
جواله تجول في الملكوت وتشاهد الحى الذى لا يموت وهى تنظر عجائب
غرائب ما يكون من الامر المكنون » .

قال الجلال الكركي في لسان التعريف (١) : « والظاهر ان استاذنا ترقى
بعد ذلك عن مقام السمع بالسر الى مقام السمع بالاصغاء بحاسة السمع وسائر
الحواس » . والاولى ان يقول بسائر قوى وجوده .

(١) هو العالم الصوفي العارف الشهير محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفزي : المتوفى
سنة ٣٥٤ هـ ، وكتابه المواقف مطبوع في آخره كتابه المخاطبات ، تصحيح ارثريوحنسا
أربرى ، طبع دار الكتب العامة المصرية ١٩٣٤ ، ونقذه بكسر النون قبيلة بالمغرب وبنفثها
بلدة بالمغرب وأخرى بالاندلس .
(٢) لسان التعريف ظهر الورقة ٢٠ .

ومما يروى فى هذا الباب ان ابن عطاء الله دخل على العارف الشهير ابنى العباس المرسى فوجده على حالة لم يعهده عليها ، فسأله عن السبب فقال سمعت البارحة يقال لى السلام عليكم يا عبادى ، وهذا قد اسمعه فى السنة مرة او مرتين ، وهو من الحديث الذى قال فيه أبو العباس بن العريف (١) .

بدا لك سر طال عنك اكتتامة ولاح صباح كنت انت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطبع عليك ختامه
فان غبت عنه حل فيه وطنبت على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سامعه شهى لدينا نثره ونظامه

تمكنه فى مقامات الرضا

يقول القطب الدسوقي : « فاستعذبت فيه اليم العذاب والبلا ، ورضيت بقديم للقضا » .

وفى بيان ذلك يقول الجلال الكركى : « يفيدنا كما لا يخفى عليك اللهم وصلنا به اليك ، انه قدس سره جاوز مقام المحبة وارتقى الى مقام الرضا ، اذ هو اتم من مقامها على الراجح ، لان المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى على وجوده الشغف فاداه ذلك الى طلب ما لا يليق بمقامه ، الا ترى ان المحب يريد دوام شهود الحبيب ، والراضى عن الله راض عنه اشهده ام حجبه . والمحب دوام شهود الوصلة ، والراضى عن الله راض عنه أوصله ام قطعه : اذ ليس هو مع ما يريد لنفسه بل انما هو مع ما يريد الله له ، ومن ثم لما ارتقى بعض المشايخ الى مقام الرضى انشد :

وكنيت قديما أطلب الوصل منهم فلما أتاني العلم وارتفع الجهل
تيقنت ان العبد لا اخيار له فان قربوا فضل وان ابعدوا عدل
وان اظهروا لم يظهروا غير وصفهم وان ستروا فالسنر من اجلهم يحلو

فلما وصل الى هذا المقام استعذب فيه - كما قال الاستاذ - العذاب والالام ، لكن الحق سبحانه لا يعذب قلوبا تركت شهواتها لرضائه ، كيف وهم من خاصته واحبائه .

(١) هو أحمد بن محمد بن عطاء الله المنهاجى الاندلسى عرف بابن العريف كان من الفقهاء المحدثين والقراء المجودين وهو من اعلام الصوفية المشهورين بوفى بمراكش ٥٣٦ هـ . من هامش الديباج (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ص ٥٨ .

ويستفاد من رضى العبد عن الله ٠ : ان الله رضى عن ذلك العبد كما نقل عن الدقاق (١) : ان تلميذا قال لاستاذة : هل يعرف العبد ان الله راض عنه ؟

فقال : لا ، كيف يعلم ذلك وهو غيب !

فقال التلميذ : يعلم ذلك !

فقال : كيف ؟

قال ، اذا وجدت قلبى راضيا [٢] عن الله ، علمت انه راض عني ٠

قال : احسنت يا غلام ٠

فالعبد لا يكاد يرضى عن الحق الا بعدما يرضى عنه الحق كما قاله القشيري

قال : لان الله عز وجل قال : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ٠

ثم ان المشايخ رضى الله عنهم اختلفوا فى الرضا ، هل هو من المقامات او

من الاحوال ؟

فاهل خراسان قالوا انه من المقامات ، وهو نهاية التوكل ، ومعناه يؤول الى

انه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه ٠

واهل العراق قالوا : الرضا من الاحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو

نازلة تحل بالقلب كسائر الاحوال ٠

وجمع الامام القشيري بينهما بأن بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من

المقامات ونهايته من جملة الاحوال وليست بمكتسبة ، وبالجمله فقد تكلم القوم

فى الرضا ، فكل عبر عن حاله ومشربه : فهم فى العبارة عنه مختلفون ، كما

انهم فى الشرب والنصيب من ذلك متفاوتون ٠

ومن شاهد قول الاستاذ : « فاستعذبت فيه اليم العذاب والبلا ، ولو

(١) هو أبو بكر أحمد بن نصر الدقاق الكبير كان من اقران الامام الجنيد ، قال الكنانى لما مات الدقاق انقطعت حجة الفقراء فى دخولهم الى مصر — ومن كلامه : من لم يصحبه التقى فى فقره اكل الحرام ، ومن هتف به هاتف أى حقيقة لا تتبع الشريعة فهو كفر ٠

(٢) ومن أين له العلم بأنه راض الرضى الحقيقى ؟ اذ من الضلال أن يعتقد العبد أنه راض عن الله عز وجل بينما هو فى الواقع راض عن الله تعالى فى كل ما وافق هواه ، والاستحسان هنا للجواب ينصرف الى صادق مخلص تحقق فى مقام الرضى بعد التخلص من الهوى ٠

عذبني بفنون الرزية لاستعذبتها ، ولو أوردني موارد الهلكة لوردتها « قول
رابعة[١] لما سئلت متى يكون العبد راضيا ؟

قالت : اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وقول رويد (٢) : الرضا ان لو جعلت جهنم على يمينه ، ما سأل أن يحولها
الى يساره .

وقول ابي بكر بن طاهر (٣) : الرضا اخراج الكراهة من القلب حتى لا يكون
فيه الا فرح وسرور .

وقول ذي النون (٤) : ثلاثة من علامات الرضا : ترك الاختيار من قبل
القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب في حشو البلاء .

وقول ابي سليمان (٥) : ارجو أن أكون عرفت طرفا من الرضا : لو أنه
ادخلني النار لكنت بذلك راضيا .
وقول النوري (٦) : هو سرور القلب بمر القضا .

(١) هي السيدة العائدة العارفة الزاهدة رابعة العدوية البصرية توفيت سنة ١٨٥ هـ .
(٢) رويد بن أحمد البغدادي كان من مشايخ الصوفية في بغداد توفي سنة ٣٠٣ هـ
وكان يقول (لا ينال هذا الامر الا ببذل الروح فان مكك الخول فيه على هذا والا فلا تشتغل
بزخارف الكلام) من قعد مع القوم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الايمان
من قلبه) وسئل عن المحبة فقال : هي الموافقة في جميع الاحوال وأنشد :

ولو قيل لي مت قلت سسما وطاعة
وقلت لسداعي الموت أهلا ومرحبا
(٣) هو أبو بكر عبد الله بن طاهر الابهرى من أقران الشيلي توفي سنة ٣٣٠ هـ . وكان
يقول (همة الصالحين الطاعة بلا معصية ، وهمة العلماء مزيد من الصواب ، وهمة
العارفين اعظام الله تعالى في قلوبهم ، وهمة أهل الشوق سرعة الموت وهمة المقربين سكون
القلب الى الله تعالى) .

(٤) هو أبو الفيز ثويان بن ابراهيم : وهو أول من عبر عن علوم المنازلات . فأنكر
عليه أهل مصر وقالوا (أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة !) وسعوا به الى الخليفة
المتوكل ورموه بالزندقة ، فأرسل اليه من يصله الى بغداد . فلما مثل بين يديه وسمع
كلامه بكى الخليفة ورده مكرما . وهو ممن حدث عن الامام الليث والامام مالك بن أنس
رضي الله تعالى عنهم ، مولده بأخميم (محافظة سوهاج) وتوفي سنة ٢٤٥ هـ وقد ناهز
التمسين .

(٥) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني من داريا — من قرى دمشق — كان
من كبار أهل الحقيقة توفي سنة ٢١٥ هـ . وكان يقول (اذا سكنت الدنيا في قلب ترحلت عنه
الآخرة) . وسأله رجل عن اقرب ما يقترب به العبد الى الله عز وجل ؟ فقال (ان يطلع
الله على قلبك وانت لا تريد في الدارين غيره) وكان يقول (من لم يتلأش في قلبه ذكر كل شيء
يضاد ذكر الله تعالى ، لم يجد صفوة ذكر الله تعالى) .

(٦) أبو الحسن أحمد بن محمد النوري البغدادي : صاحب سريا السقطي ومحمد بن
القصاب ، وكان من أقران الجنيد توفي سنة ٢٩٥ هـ ، وكان يقول (أمر الاشياء في زماننا
هذا شيثان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة) (ليس التصوف رسوما
ولا علوما وانما هو أخلاق) (من لم يعرف الله في الدنيا لم يعرفه في الآخرة) ، (هذا
زمان المعروف فيه زلل والصواب فيه خطأ ، والوداد فيه دخل)

وقول عتبة الغلام (١) : ؟ ان تعذبني فانا لك مدب وان ترحمني فانا لك محب ! .

وهنا دقيقة : هل محل الرضا قبل القضا بما يقضى او بعد القضا بما قضى ؟

فالجواب : ان قوله صلى الله عليه وسلم : « اسألك الرضا بعد القضاء » ظاهره الثانى ، وقد بينه أبو عثمان (٢) لما سئل عن الحديث فقال : لان الرضا قبل القضا عزم على الرضى ، والرضا بعد القضا هو الرضا

دقيقة اخرى : هل الرضا افضل من الزهد فى الدنيا ؟

الجواب : نعم ، كما قال الفضيل (٣) . .

لبشر (٤) : قال : لان الراضى لا يتمنى فوق منزلته .

الكنز التاسع : قول استاذنا « فلو جرعتى كؤوس المنية لشربتها » دليل على اثبات ولايته ، اذ من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ، وهذا ميزان اعطاه الله للمريد ليزن به على نفسه اذا ادعى فيه او ادعى ولاية الله ، فان من شأن النفس وجود الدعوى والتوثب الى المراتب العلية من غير ان يسلك السبيل

(١) هو عتبة بن أبان عرف بالغلام ، عاش مجتهدا فى طاعة الله عز وجل ، ومجاهدا فى سبيله حتى استشهد فى قتال الروم . .

(٢) هو أبو عثمان الخيرى النيسابورى صاحب يحيى بن معاذ الرازى وشاء بن شجاع الكرماني وصاهر أبا حفص الحداد بنيسابور ، وهو امام الطريقة بنيسابور توفى بها سنة ٢٩٨ هـ وكان يقول (أنت فى سجن ما تبعث مرادك) (لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا ، وانما يرى عيوب نفسه من يتهمها فى جميع الاحوال) .

(٣) هو الفضيل بن عياض القهيمى اليربوعى كان من أئمة التسليك وأقطاب العارفين توفى بالحرم ١٨٧ هـ وكان يقول (أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم) وكان يقول (من أحب أن يسمع كلامه اذا تكلم فليس بزاهد) (لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له حاجة عند أحد من الامراء والافنياء ، انما ينبغي أن يكون حوائج الخلق اليه هو) (قراء الرحمن أصحاب خضوع وذبول ، وقراء الدنيا أصحاب عجب وتكبر وازدراء للعامة) (من عرف ما يدخل جوفه كان عند الله صديقا ، فانظر من أين يكون مطعمك يا مسكين) يقصد بذلك أن يكون كسبه حلالا لا يشوبه ظلم ولا حرام .

(٤) هو بشر بن الحرث الحافى أصله من مرو وسكن بغداد وبها مات سنة ٢٢٧ هـ ومن كلامه (لا يجد خلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس) أى لا يسعى فى الدنيا الا للشهرة فهو عبد للشهرة ، ومن أحب أن يطلع الناس على صفاته لينظروه بعين التعظيم فقد أحب أن يعبد من دون الله تعالى وهذه هى الغرمنية وكان يقول (سيأتى على الناس زمان تكون فيه الدولة للحمقى والاراذل على أهل العقول والاكابر) (انى لأجل الله تعالى أن أذكره عند من لا يعرفه ولا يتعرفه) صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار ، وصحبة الاخيار تورث حسن الظن بالاشرار . وسئل عن التصوف فقال هو اسم لثلاث معان : وهو أن لا يغطى نور معرفة العارف نور ورعه . وان لا يتكلم فى علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك استار محارم الله تعالى .

الموصلة اليها . ولهذا قال سبحانه : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » (١) .
وقال : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، ولا يحب الموت من فيه البقايا ،
ولا من هو مصر على شيء من الخطايا ، وجعل الله تمنى الموت شاهدا للولى
بولايته ، وعدم تمنيه شاهدا للغوى على غوايته ، قال سبحانه : « واقيموا
الوزن بالقسط ، والموت ميزان فى دائرة الرتب ، وعلى الافعال والاحوال » .

اما الرتب فلان الولى على الحقيقة لا يكره الموت ان عرض عليه لانه ذاق
انس مولاه ، فأحب لقاءه ، قال تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » قال
القشيري فى باب احوالهم عند الخروج من الدنيا يعنى طيبة نفوسهم ببذلهم
مهجهم لا يتثقل عليهم رجوعهم الى مولاهم .

قال على رضى الله تعالى عنه : « لا ابالى سقطت على الموت او سقط الموت
على » . وقال عمار بصفين : « الان الاقى الاحبة محمدا وحزبه » ، وقال حذيفة
حين احتضر : « لا افلح من قد ندم » اى على التمنى وآثار القوم فى ذلك
كثيرة .

واما الافعال والاحوال : فاذا ألبس عليك امر أنت فيه لا تدرى هل الارضى لله
تركه او فعله ، او حالة أنت بها لا تدرى هل قمت فيها بحق او بهوى ، فاورد
الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال ، فكل عمل وكل حالة تثبت مع تقدير
ورود الموت وأنت عليها ولم تهزم فهى حق وكل عمل وحالة هزمها الموت فهى
باطل ، اذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه قال عز وجل « بل نقذف
بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » ولكم الويل مما تصفون » (٢) .

« قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب - ٤٨ - قل جاء الحق وما يبدىء
الباطل وما يعيد - ٤٩ - » (٣) .

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » (٤) .

(١) من الآية ٩٤ من سورة البقرة وبعدها « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت ايديهم والله عليم
بالظالمين - ٩٥ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر
ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون » ٩٦ .

(٢) من سورة الأنبياء : ١٨

(٣) من سورة سبأ .

(٤) سورة الاسراء : ٨١

فما كنت قائما فيه بحق لم يهزمه الموت اذ هو حق ، والحق لا يهزم الحق ، ومن ثم قيل الذى يقرأ العلم لله هو الذى اذا قلت له غدا تموت لم يضع الكتاب من يده ، اهـ كلام القشيري .

فان قلت ، صح الخبر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم انه قال : « ولا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به » (١) ، اجيب بأن المراد بالضر فى الحديث الضر الدنيوى ، اما اذا نزل بالمرء امر دينى فيجوز له تمنيه خوفا من تطرق الخل فى الدين على أن ذلك لا ينافى ما نقلناه من كلام القوم .

تمكنه من أخلاق أهل الفتوة

الفتوة فى اللغة : السخاء والكرم ، وفى اصطلاح أهل الحقيقة تشمل ،

ايثار الخلق على النفس عند شدة الحاجة ، والصفح عن عثرات الاخوان وستر عيوبهم ، والسعى فى قضاء مصالحهم دون شعور منهم ، والفتوة لها تعريف بحسب كل شأن : فصورتها « فى (٢) البدايات : الوفاء بعهد الايمان وعقود الاسلام وترك الخصومة مع الانام .

وفى الابواب : نسيان الاحقاد والاذنيات والتغافل عن الزلات .

وفى المعاملات : قطع النظر عن الاعمال والاعراض عن الاعواض ، ودرجتها فى الاصول : ألا يتعلق فى المسير اليه بدليل ولا يأنس مما سواه بخليل .

وفى الادوية تنوير العقل بنور القدس وتنزيهه عن الميل الى الجانب الوهم والحس .

وفى الاحوال ، الاكتفاء بالمواهب والارتقاء عن ريب المكاسب .

(١) الحديث (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان كان متمنيا فليقل : اللهم أحيى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفى اذا كانت الوفاة خيرا لى) رواه الشيخان عن أنس — وروى مسلم عن أبى هريرة (لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتية : اذا مات أحدكم انقطع عمله ، وأنه لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا) وروى البخارى عن أبى هريرة « لا يتمنين أحدكم الموت : أما محسنا فلعله يزداد وأما مسيئا فلعله يستعيب) . فالتمنى جائز اذا نزل الضر بالدين وحينئذ يستبسل المؤمن فى الجهاد فى سبيل الله عز وجل وهو يتمنى أن يدركه الموت فى جهاده .

(٢) امام أحمد ضياء الدين الكمشخاتوى — جامع الاصول ص ٣٤٨ — ط القاهرة ١٣٢٨ هـ .

وفى الولايات : التخلّى عن كمالات القلب والتخلّى بصفات الحق .

وفى الحقائق : بذل الروح للفوز بحياة المحبوب .

وفى النهايات : القيام بالحق من غير رسم والوقوف مع الحقيقة لا مع الاسم .

وأصل الفتوة الايمان ، اذ أن شروطها لا تتحقق الا اذا تحقق وجود شعب الايمان . ولا يكمل وجود شعب الايمان الا اذا حرر الانسان نفسه من العبودية لغير الله عز وجل وحينئذ يصل الى الحرية الكاملة التى لا تشوبها شائبة استعباد .

فالحرية شرط فى الفتوة ولا تكمل حرية الانسان الا اذا كمل ايمانه . كذلك من شروطها طهارة القلب من غواشى حجب الشرك والكفر ، ومن شروطها التنزه عن الدنيا والرذائل والخبائث وكان ما هو حقير .

ومنها التخلق بالعدالة الشرعية التى تدفع المؤمن الى انصاف الغير ولو من نفسه وأهله وولده .

ومنها انبساط النفس لفعل الخير دون تكلف .

وجميع ذلك لا يكمل الا بالايمان بالله تعالى والايمان لا يكون ايمانا الا بالاعتداء بامام الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، وقد بين لنا صلى الله عليه وسلم شعب الايمان وبها تقاس درجة الفتوة ، فبقدر نصيب المؤمن من شعب الايمان تكون درجته فى الفتوة الحقة ، فكلما كان حظه منها أوفر كانت فتوته أكبر . . هذه هى الفتوة

أما التماذى فى الباطل والقسوة والاستبداد والتسلط والتعالى فليس بفتوة بل هو من طباع الجبارين والظلمة والسفاحين والقتلة ولا دخل لهذا هنا وأى ناحية من نواحي أخلاق القطب الدسوقي أو أحواله تقودنا الى أخلاق أهل الفتوة :

فهو لا يركن ولا يسكن الى غير الله عز وجل فهو فتى فى ورعه : ينزه نفسه عن الطمع فى فضل مخلوق ، ويخلع الانداد والارباب ولا يقف مع الوسائط والاسباب ، ولا يحول بينه وبين اجابة داعى الحق حائل : روحه منجذبة الى

النور الالهي لا تحيد عنه ، غير ملتفتة الى الاعتماد على طاعة ولا ساكنة الى عادة تظنها عبادة ، ولا ساكنة الى مقام من مقامات الولاية ، ولا تعلقت همته بأمر من أمور الدنيا أو شأن من شئون الآخرة : لا يطلب من الله تعالى الا الله عز وجل .

لو شاء الرياسة لنالها من أوسع الابواب ولكنه كان يعرض عنها كما نعرض عن القاذورات : بل كان السلطان فمن دونه يقصدونه نقضاء مصالحهم أو للفرار من ظلمة أنفسهم ، وطفيلاتها ، ابتغاء التماس الطمأنينة في رياض الايمان بمعية الحق عز وجل وخاصته من أوليائه .

فكان لا يمل من قضاء حوائجهم ، وفي الوقت نفسه لا يركن اليهم ، ولقد مكث بخلوته ما مكث من العمر ما تطلعت نفسه الى الدنيا ولا الى أهلها « ولا أرسل طوال حياته يلتمس شيئاً من أبنائها » (١) .

بل ها هو السلطان يعرض عليه ما شاء من البلاد فيأبى ، ومع شهرته وحب كل مؤمن له ، نجده يخرج من الدنيا ما بنى له لبنة على لبنة ولا اتخذ بستاناً ولا ترك ميراثاً ولا خلف وراءه مالا ولا عقاراً .

يظن بعض الناس في نفسه الزهد ، ولكنه زهد من لا يملك الوسائل والاسباب ، فاذا ما ملكها انقلب هذا الزاهد القانع الى وحش مفترس وذئب متوحش دونه ذئب الحيوان بمراحل : يقتل في سبيل المال ، وفي سبيل الجاه وفي سبيل الرئاسة ، وفي سبيل السلطة ، ويسلب ويعتدى ويمثل بغيره أشنع تمثيل .

وكان من قبل يسمى هذه الوحشية الكامنة في أعماقه زهداً وقناعة ! وهي وحشية تعجز جميع مسابر التحليل النفسي عن اختراق الحجب التي كادت تغلفها .

وقد يظن البعض في نفسه التواضع ، وهو تواضع يغطي به وحش الكبر والتسلط الكامن فيه ، فيغطيه أمام الناس بالذلة والمنسكنة وخفض الجناح ولين الجانب فاذا ما تمكن عاد سفاحاً لا يراعى حرمة أقرب الناس اليه .

(١) لسان التعريف وجه الورقة ٦٠ .

أين الثرى من الثريا؟ أين الذهب من النحاس الأصفر؟ أين القبر من القراب؟

تأمل فى الفوارق يهولك البون الشاسع .
أين هذا الذى يتستقر بالفضيلة ليرتكب أبشع الرذائل ، وليتخذ هذا الساتر حجابا يرتكب وراءه ما شاء من أنواع الفسق ، أين هذا من ذاك الذى يأتية السلطان أو الأمير فيعرض عليه ما عنده - وماذا عنده سوى المال والجاه - فيقف هذا أمامه كالطود الشامخ غير مكترث بما يعرض عليه ، فيهزجلال الموقف الخير الكامن فى أعماق صاحب العرض ، ويتوب الى رشده ، ويشعر بذور ايمانه بدناءة العرض وخسته ، فلا يطلب من القطب الدسوقى سوى أن يلتفت اليه لعله أن يهتدى باذن الله تعالى وينجو بنفسه من حمأة النفس وشهواتها .

أراد السلطان قايتباى أن يقترب الى العارف الكبير محمد المغربى الشاذلى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، والسلطان كالمعتاد اذا أراد أن يعبر عن حبه ورضاه عن شخص أعطاه شيئا من عرض المال أو الجاه ، فوهبه ألف دينار فردها عليه وهو يقول :

اقتع بلقمة وشربة ماء ولبس الخيش

وقل لعقلك ملوك الارض راحوا بيش

فبكى السلطان وكان من خيرة السلاطين مروءة وعدالة وخلقا . فتأمل بربك أمثال هؤلاء وقارنهم بمن يبذل ماء وجهه ويسفح عرضه ويتفنن فى ضروب التذلل فيأتى بالعجب العجاب : كل ذلك كى ينال لقمة من حاكم أو مطلبا كائنا ما كان ، وهو لا يدري أن ما بذله لا يقوم بثمن ، لانه تبرأ من صلته بخالقه كى يعتاض عنها بعوض فان ، قد يبذله له المخلوق وقد لا يبذله وهو الخاسر فى كل حالة .

ومن فتوته ترحيبه ، بل مطالبته للملهوف أن يحتمى به ويلتجىء اليه يقول فى تائيته ،

فنحن نحى الذى قد أتى لنا اذا قال غثنى يا دسوقى بنية
اذا كان فى شرق أو الغرب قال لى اغثنى أغثه من سيوف صقيلة

ومما يروى أن أحد الظلمة كلف أحد مريدى القطب الدسوقي بحلج كمية كبيرة من القطن دون مقابل ، فاعتذر له بعدم الاستطاعة ، وظن أنه لو أخبره بأنه من أتباع القطب الدسوقي فإنه ينصرف عنه تكريما للشيخ ، ولكن الرجل كان لا يعتقد فى ولى فكانت النتيجة عكسية ، أذ زاد له فى الكمية المطلوبة منه وطالبه بحلجها فى أسرع وقت قائلا : « ادع شيخك يساعدك » .

فعاد المريد منكسر الخاطر يائسا ، فرأى الشيخ فى منامه وهو يقول له : « قد حملنا حلج القطن عنك » ، فلما استيقظ وجدده محلوجا .

وكان يقول لمريديه : « اعلّموا لو كان أحدكم بالشرق وأنا بالمغرب وضاعت عليه الأرض برحبها وطلبنى لا تحجبنى عنه قبضة التراب التى بينى وبينه فيها أنا واقف بين يديه » (١) .

وقد يظنه المرء عاجزا لطول صبره على الاساءة تتلوها الاساءة ومع ذلك لا يحرك ساكنا ولا يتغير له خاطر ! ولكنها فتوة الذى يقدر ، فيعفو ويصفح ، أما اذا استلزم الامر ردع المسئء لانه من النوع المستهتر الذى لا يزيده العفو الا تماديا فى الاساءة شأنه شأن كل لئيم لا يزيده كرم الكريم الا لؤما وخسة ، فانه عند ذلك يوقفه عند حده رحمة بالناس خشية الفتنة التى تجتاح النفوس كلما استطار شره .

وفى هذا الصدد تواترت عنه القصة التالية ، وهى مروية فى معظم الكتب التى ترجمت للقطب الدسوقي مثل نور الحدق ولسان التعريف وروضة الناظر ونور الابصار وطبقات الابرار : (٢)

كان قاضى الاسكندرية يبغض الصوفية ويناصبهم العدااء ، وكانت القصص والروايات تبلغه عن القطب الدسوقي فيتبرع بالتصدى له ، فى شخص مريديه . حتى كثرت شكاياتهم منه لاستنادهم ، فكان يأمرهم بالصبر على ايدائه ، وازاء هذا الاضطهاد عزف عن الاسكندرية منهم من تضطره مصالحه الى المثل بين يدى القاضى .

(١) هذا النص نقله الجلال الكركى من كتاب الحقائق للقطب الدسوقي .
(٢) نور الحدق الورقة ٦٣/ لسان التعريف ظهر الورقة ٤٦ ووجه ٤٧/ ونور الابصار للسيد مؤمن بن حسن الشبلنجى ص ٣٥٣/ وطبقات الابرار للامام البقاعى وجه الورقة ١١٥/ والعارف السيد حسن شبه فى مسرة العينين وغيرها .

وحدث ذات يوم أن بعض تلامذة القطب الدسوقي اشترى حاجة من رجل من
السوق فتشاجر هذا معه وسبه ، وساقطهم الشرطة الى المحكمة ، ومثلوا بين
يدى القاضى ، ولما علم هذا بأن خصم البائع من مريدى القطب الدسوقي أمر -
بحبسه وأهانته -

فأرسل زملاؤه الى أستاذهم بدسوق يستغيثون به من ظلم ذلك القاضى فكتب
رقعة وأعطاهما لرجل من عنده وأمره بتسليمها للقاضى ، وكانت تتضمن هذه
الابيات :

سهم الليل صائبة المرمى اذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها الى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم فى دعاء وأجفان تفيض من الدموع
اذا أوترن تم رمين سهمها فما يغنى التحصن بالدروع

ولما وصل الى منزل القاضى استأذن عليه فى الدخول فأذن له ، وكان فى
جمع من أصحابه ، ولما علم أنه مرسل من عند القطب الدسوقي آذاه بالكلام
والتفت الى من عنده وهو يقول : « انظروا الى هذه الورقة التى جاءت من هذا
الرجل الذى يدعى الولاية » !

وبعد أن سب الاستاذ شرع فى قراءتها جهرا ، فلما وصل الى قوله سهمها خر
ميتا .

فهاج الجالسون وعلم الناس بالخبر فأطلقوا الرجل تكريما لاستاذه .
قال الجلال الكركى :

« وأخبرنى بعض علماء المالكية نفع الله به أنه وقف على هذه القضية ، وان
الذى كتبه الاستاذ له هو نقطة الباء ، والتمس منى ما وردت على المحلة الكبرى
وجه ذلك ؟ فأخبرته باطلاعى على الحقائق وان الذى به كتابة الابيات
المذكورة . فنشأ السؤال عن وجه الجمع بين الكلامين مع السؤال الاول فظهر
الجواب عن ذلك ، والله أعلم بذلك : ان الكتابة وقعت من الشيخ مرتين الاولى
بالنقطة ، اشار الى الفقراء وان كانوا بالنسبة لابناء الدنيا فى الدنيا اسفل
منهم كنقطة الباء أسفل منها ، الا انهم فى المرتبة أعلى منهم اذ هم موصولون لهم
الى نيل المقامات السنية فى الدار الاخرية ، فعلى يدهم يكون التعريف بحال

السعيد المحسن اليهم ، والشقى المعرض عنهم أو المؤدى لهم ، كتعريف الباء
بالنقطة ، اذ لولاها لا لتبست بالتاء والتاء .

أو الإشارة بالنقطة الى أن الفقراء ملوك الدنيا والاخرة كالنقطة ركب الحق
منها ما خلق في الدنيا والاخرة .

فلما لم يفهم القاضى الإشارة ، ولم يكف عن أذيتهم نفسه الامارة ، حذره
الاستاذ من تفويف السهام بصريح الكلام لاجئا الى مولاه ، فحكم عليه بما
أمضاه ، فرشقته سهام الرب ، قائلة : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ،
فكيف والوقية فيهم أكل للحومهم ولحومهم مسمومة ؟ والالام والكواين لمتناول
السم معلومة ؟ فلا يبعد أن يخبر من هذا وصفه ميتا .

فان قلت ، قد ذكر الاستاذ في رسالته تبعا للقوم : « ان الفقير لا يكون فقيرا
حتى لا يؤذى من يؤذيه : اذا ابتلى صبر : واذا قدر عفا : فهو كالسلطان
مهاجرة ، وكالعبد الذليل مهانة » (١) الى آخر كلامه ، ولهذا قال المرسى ، ؟ كان
اذا آذاني انسان يهلك للوقت ، وأنا الان لست كذلك . قال التاج بن عطاء الله
فرأنى مستشرقاً لسبب ذلك ؟ فقال : اتسعت المعرفة .

فالجواب : ان انتصار الحق لاوليائه ليس لانهم طلبوه من الله ، بل لما
صدقوا التوكل عليه ، وأرجعوا الامر اليه ، انتصر الحق لهم كما قال
سبحانه « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (٢) « ومن يتوكل على الله فهو
حسيبه » « والله غالب على امره » ، فهو الغالب الذى لا يغلب والقادر الذى لا
يعجز ، والقهار الذى لا قبل لاهل السموات والارض بذرة من بلاه ، ولو وضع
ذرة من ذرات قهره على الجبال لاذابها .

على أن اولياء الله اذا ظلموا على طبقات : فمنهم من يدعو على من ظلمه ،
ليرد عن نفسه ، اذاه ، وليكف ضرره عن الناس ، فهؤلاء لا يردلهم دعاء لماورد

(١) لا يقصد من المهانة مهانة اهل الدنيا فهذه خسة وذلة ولكنه يقصد المهانة لله عز
وجل ومن والاه وهذه في الواقع هي العزة التى ليس وراءها عزة .
(٢) المؤمنون هم المنصوص عليهم في القرآن العظيم والسنة المطهرة أما من حاد عن صفات
هؤلاء فهو إما من العصاة أو من المنافقين أو الكفرة طبقا لدرجة مروقه من الدين ، فهؤلاء
لم ينصروا الله تعالى بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم :

ومسالم بعلمه لا يعملون معذب في النار قبل عباد الوثن

فى الحديث ، « اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله تعالى حجاب ، (١) » .

ومنهم من اذا ظلم لجا الى الله فى طلب النصرة وفوض أمره الى الله عز وجل وهو يعلم أنه سبحانه لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء ، وأنه محيط بالموجودات ولا يضيع عبدا صدق فى توكله عليه عز وجل .

ومنهم من اذا ظلم رحم من ظلمه ومن هذا القبيل أن جنديا قال لابراهيم بن ادهم : أين العمران ؟

فاشار الى ناحية ، وكانت فى الطريق اليه مقابر فظن الجندى انه يشير الى المقابر لا الى العمران استهزاء به ، فضربه على رأسه فشجه فطأأ ابراهيم بن ادهم رأسه وهو يقول : اضرب رأسا طالما عصى الله .

وأقبل جماعة من الناس فخفوا اليهما وقالوا للجندى ، ويلك ، هذا ابراهيم بن ادهم زاهد خراسان !

فوقع الجندى على قدميه يقبلهما ويطلب الصفح ، فقال ابن ادهم ، واللهم ارفع يدك من ضربى الا وأنا أسأل الله لك المغفرة ، لأنى علمت أن الله يثيبنى على ما فعلت بى ويؤاخذك على ما فعلت ، فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر !

ومنهم من تطهر من بقايا النفس فصار لا يغضب الا لتعدى محارم الله تعالى ، والتهجم على أحبابه ، فربما يدعو على من ظلمه لا لانه آذاه بل لكونه تعدى حدود الله عز وجل فهو يدعو غيره على الجناب الالهى ، فلم يستقض الحق لنفسه بل لربه ، وهذه أكمل المراتب .

ومن هذا القبيل ما حدث لسعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه وهو أن امرأة ادعت عليه أنه احتاز شيئا من بستانها ، فقال : اللهم ان كانت كاذبة فاعمها وأمتها فى مكانها ، فعميت وجاءت يوما تمشى فى بستانها ف وقعت فى بئر فماتت .

(١) رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا وأبو يعلى عن أبى سعيد مرفوعا واللفظ له ، وفى رواية (اتقوا دعوة المظلوم وأن كانت من كافر فانه ليس بينها وبين الله تعالى حجاب) .

ومن ذلك أن رجلا تسور الدار فى حادث استشهاد أمير المؤمنين ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، فلطم الرجل زوجة أمير المؤمنين فدعا عليه بقطع يديه ورجليه واخلاه فى النار ، فكان هذا الرجل يرى فى الشام مقطوع اليدين والرجلين وهو يقول : دعوة عثمان استجيبت فى اثنتين وبقيت الثالثة .

ومن هنا قد تلتبس أحوال الرجال على العامة فيفضلون وليا ظلم وانتصر على الوجه المذكور وبالعكس ، وليس الامر كذلك ، فقد يكون صفيح من صفيح لعلمه بالبقايا فى نفسه فيكف عن الدعاء خشية أن يكون طالبا للنصر لشهوة فى نفسه ، وقد يكون من دعا على من ظلمه فأراحه الله منه ، لعلم الداعي بأنه لا يدعو الا غيره على جناب الحق عز وجل .

وكان رضى الله تعالى عنه شديد النصيح فى دين الله تعالى لا تأخذه فى الله عز وجل لومة لائم ، وله مكاتبات يرسلها الى الامراء والحكام ومن له منصب فيه ولاية على الناس ، وهى تشتمل على مواعظ تبهر الالباب لما حوته من علوم ومعارف مع حلاوة فى اللفظ وسمو فى المعنى وهيبة يشعر بها الانسان عند قراءة كلامه أو استماعه .

ولما اختصه الله تعالى من خصائص امتاز بها على أهل عصره ، ناصبه الخاصة العداء ، شأنه فى ذلك شأن كل رجل فذ فى أى مصر من الامصار .

فالامراء والحكام عادوه لجرأته وشجاعته وقوة فهمه لقواعد الحكم وأصوله .

فالحكم ليس غنيمة يستأثر بها الفرد ويبذل كل ما فى وسعه لا لخدمة المحكومين بل للتخلص من كل من يشتم فيه رائحة منازعته للسيطرة أو الرياسة أو الجاه .

والحكم كذلك ليس بوسيلة يتوصل بها الفرد الى استعباد الناس واذلالهم ، ونهبهم وتسخيرهم لاهوائه ومطامعه باسم المصلحة العامة ، والمصلحة من كل هذا براء : بل ان الحكم فى شريعة الله عز وجل تكليف لا تشريف وعبء كبير ، قل من يقبل القيام بمسئوليته : فالحاكم فى الشريعة خادم للناس وليس بسيدهم ، وهو مسئول مسئولية مباشرة عن كل تصرفاته العامة ، ومن حق كل

فرد أن يقاضيه حقه لم ضيعه أو تهاون فيه أو قصر ، هذا الى مسئوليته
المباشرة عن مصالح الشعب مجتمعة •

ولذا أحاطت الشريعة السلطة بسياج من الضمانات لايفلت منها حاكم ، ولو
فهم الناس هذه المعانى حق الفهم وصدقوا فى اخلاصهم لانفسهم لفروا من
مسئولية الحكم فرار السليم من الاجرب أو فرار انسان من حيوان مفترس •

والحكام المستبدون يكرهون اشد الكراهية كل من يفهم القواعد الدستورية
للحكم ، اذ أن هؤلاء يكونون فى نظرهم بؤرة لتجميع الوعى العام لا تلبث أن
تنطلق منها الصرخة المدوية التى تقوض أركان الطغيان والاستبداد ، ولذا نجد
أنهم فى كل بلد يطاردون أمثال هؤلاء ويتخلصون منهم ما وجدوا الى ذلك
سبيلا •

وقد حدث صدام من هذا القبيل بين القطب الدسوقى وبين السلطان الملك
الاشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) نوجزه فيما يلى :

بدأ الصدام بمكاتبات كان يرسلها القطب الدسوقى الى السلطان كلما وجد
منه تهاونا فى كبح جماح رجاله الذين يسيئون فى تصرفاتهم العامة أو يعبثون
بحقوق الرعية • وقد أثار ذلك حنق هؤلاء خشية أن يتنبه السلطان الى ظلمهم
وجورهم • وكالمعتاد فى كل عصر انبرى فريق من المنافقين ليوغر صدر
السلطان على القطب الدسوقى ، ويتكلم باسم الاخلاص والحب الذى يكنه
للسلطان ، ويتهم القطب الدسوقى بالاستهانة والاستهتار بالسلطان مما قد
ينتهى بحدوث فتنة ، وبهذا يضربون على الوتر الحساس عند كل حاكم •
وأخذوا فى اغراء السلطان على الفتك به ، ولما أنسوا منه الاصغاء لوشاياتهم ،
بادروا الى سرعة التخلص من القطب الدسوقى ليأمنوا شره ، ويرتعدوا فى غيهم
باسم المصلحة العامة :

بدأوا بارسال طرد من شهد مسموم هدية للقطب الدسوقى ، وتقول الرويات
أنه حينما تسلم الهدية جمع الفقراء وقال لهم : هذا شهد ان شاء الله تعالى
كلوه ولا مبالاة باذن الله ، فأكله الفقراء ولم يؤثر فى أحد ! •

وما زالوا بالسلطان حتى أرسل اليه الامير عز الدين ، واليه تنسب سويقة
العزى فى القاهرة ، فلما وصل ركب الامير الى دسوق ، نصب خيمته على

شاطيء النيل ، وأرسل من يستدعى الشيخ للمثول بين يديه ، فأرسل اليه الشيخ من قبله من يقول له : « أجلس فى خيمتك » فلم يقدر الامير على الحركة ، ومكث فى خيمته مشلول الحركة .

وأبطأ خبره على السلطان وكثرت الشائعات وأصبحت المسألة مسألة تتعلق بكرامة السلطان وهيئته التى أصبحت فى الميزان ، فاما أن يقتل الشيخ أو يذله على الاقل ، واما ان يعترف بانه اذل من ان يخضع احد رعاياه لسلطانه .

وأرسل السلطان وفدا من قبله ومعهم سباع يرافقه سبع يلقي اليه من يغضب عليهم السلطان ، ولما وصلوا الى دسوق وعلموا بأمر الامير قصدوا خلوة الشيخ ، فلما اقتربوا من خلوته برز لهم الاستاذ ، فهاج الاسد وقطع الطوق من رقبتة ويمم شطر الاستاذ ، فخشى عليه مريدوه — وهم يقدونه بأرواحهم — فطمأنهم قائلاً ، « انه لايفترس الا الغافل » ، وكاد الاسد ان يفترس الوفد المرافق له .

وجرت امور بعد ذلك علم منها السلطان انه قد وقع فى حبالل الوشاة ، وكاد ان يهلك بوقيعتهم فى يد أمام من أئمة العارفين ، ورأى أنه لا يكفر عن هذه سوى سفره بنفسه الى دسوق ليعتذر له عما حدث .

وتقول الروايات ان السلطان شاهد من القطب الدسوقى احوالا خارقة زادته اعتقادا فيه .

يؤيد ذلك أنه عرض عليه ما شاء من العقار والمال ، فرفض أن يطلب شيئا لنفسه ، وطلب من السلطان ان يترك نصف الجزيرة المواجهة لدسوق للفقراء ينفقون منها على مصالحهم ، فوافق (١) ثم بشره بالنصر على الصليبيين فى عكا (٢) .

ومن هذه الواقعة كان السلطان اذا كتب للشيخ يقول له « مملوكك خليل » . فتأمل طريقته فى ترويض السلطان حتى انتهى امره بأن صار يتمنى رضاه ،

(١) يقول الامام شرف الدين يحيى بن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ) عن هذه الجزيرة (جزيرة دسوق مساحتها ٧٠ فدانا عبرتها ٣٠٠ دينار كانت باسم المقطعين (الجنود) والان للعربان النصف ، والنصف وقف لسيدى ابراهيم الدسوقى. عمت بركاته) — التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية بولاق سنة ١٨٩٨ ص — ٨٤ .

(٢) تم فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وهى آخر حصن كان بيد الصليبيين فى الشام وفتحتها انتهت الحروب الصليبية فى الشام فى العصر الوسيط .

وتأمل فى الهيبة التى رزقها الى درجة أنه لا يخشى السلطان ومن دونه ، ويعلق الجلال الكركى على هذه الهيبة بقوله :

« السر فى ذلك — أى فى هذه الهيبة — أن من أراد الله به من أوليائه أن يكون داعيا اليه فلا بد من اظهاره الى العباد ويكسوه كسوتين البهاء والجلالة : أما البهاء فلينظروا اليه بعين المحبة فيكون ذلك باعثا لهم على الانقياد ، قال تعالى : « وألقيت عليك محبة منى » وقال : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » . وأما الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الادب معه ، ويقع له فى قلوب العباد هيبة ينصره بها ليكون ذا أمر ونهى مسموعا أمره ونهيه » .

وهذه الهيبة (١) التى جعلها الحق فى قلوب العباد لأوليائه سرت اليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم ، ألم تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » البسهم الحق ملابس هيبة ، واظهر لهم جلال عظمتهم فهم الملوك وان لم تخفق عليهم البنود ، والقواد وان لم تسر أمامهم الجنود ، والله در القائل فى الامام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه

يأبى الجواب فما يراجع هيبة والسائلون لديه نواكس الانقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع (٢) وليس ذا سلطان
ومن ملكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك « قل اللهم مالك الملك ،
تؤتى الملك من تشاء » .

قال الامام الشاذلى : لكل ولى حجاب ، وحجابى الاسباب .

قال الجلال الكركى فى ذلك : « فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة ، سبب ظهور ذلك الولى بذلك تجلى الحق عليه ، فاذا تجلى عليه بصفة ظهر بها ، فاذا غلبت عليه شهودا ، غلبت عليه ظهورا ، فلا يقدر على صحبتته ويثبت معه

(١) هذه الهيبة بخلاف الهيبة التى يجدها الناس للسفاحين والظلمة فهذا خوف من شدة البطش ، وهيبة الاولياء رهبة من سطوة تجليات الحق ، والفرق بينهما أن طماعة الناس للظلمة مع الكراهية والمقت لهم وتمنى زوال وجودهم ، وطاعنهم للاولياء عن رضى وانبساط نفس وتمنى بقائهم .

(٢) فى رواية شهر المعيب . قالهما الامام الثورى رحمه الله تعالى .

الا من محا الله نفسه وهواه ومن هذا الصنف استاذنا رحمة الله عليه مع ملوك الدنيا ورؤسائها ، لا يجلس واحد منهم بين يديه الا والرعب قد ملك قلبه .
« ومن خلصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز ، فأى ملك أعظم من هذا الملك » .

قال الامام عبد الله بن اسعد اليافعى (من أنس بالله أنس به كل شيء ، ومن هاب الله تعالى هابه كل شيء) . ونقل ابن عباد (١) عن الامام الشاذلى فى معنى عزة المؤمنين بالله : ان عزة المؤمن هى (ان يمنعه الله من التعبد للنفس والهوى والشيطان والدنيا أو لشيء من المكونات فى الغيب والشهادة والدنيا والاخرة . والمنافق لا يعلم العزة الا بالاسباب والتعبد للارباب) (٢) ولذا نجد ان المنافق يفضل الاعتماد على المخلوق ولا يطمئن قلبه الى الاعتماد على خالقه ، ويظن أنه بذلك قد بلغ الحكمة ومنتهى الفطنة ، واجتهد كل الاجتهاد فى نفعه لنفسه ، مع أنه فى الواقع قد حرمها من كل سبيل موصل الى حقيقة العزة والكرامة ، وساقها الى أرض الذل المقيم والنهوان الدائم .

ودخل عليه مرة أحد الامراء فوجده ملثما على عادته ، فقال فى نفسه : « لا يخلو من جذام أو برص فى وجهه » . فما تم هذا خاطر حتى كشف الاستاذ اللثام عن وجهه ، وقال : « يا هذا لا أجزم ولا أبرص » .

فلما رأى الامير وجهه سقط على الارض مغشيا عليه ، لما وقر فى نفسه من الهيبة (٣) .

وتعرض القطب الدسوقي فى نفس الوقت الى هجوم من العلماء لا يقل شدة عن هجوم الامراء .

(١) هو محمد بن ابراهيم بن عبد الله الشهير بابن عباد النغزى الرندى : الفقيه العارف كان من أئمة الصوفية ، وله قلم فى التصوف انفرد به وسلم له فيه ، وأشهر مؤلفاته شرح حكم ابن عطاء الله ، ومن كلامه (من لازم الكون وبقي معه ، وقصر عليه هبته لم تفتح له طريق الغيوب المكتوبة ، ولا خلص له سير الى مشاهدة الوجدانية فهو مسجون بحيطاته محصور فى هيكل ذاته) توفى سنة ٧٩٢ هـ .

(٢) طبعة ١٩٣٧ .

(٣) لسان التعريف وجه الورقة ٤٣ .

ومن النادر أن ينجو عالم من هذا الهجوم يشنه عليه أقرانه إذا ما طالعهم بجديد فى تخصصهم ، فيقفون منه ما بين قلة نادرة مؤيدة ، وأكثرية معارضة ، وجماعة من أهل الشك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وينتهى الامر اما بالقضاء عنى فكرة هذا العالم أو بانتصاره على هذا الهجوم العنيف الذى يوجه باسم العلم .

فكان يأتيه فريق ليمتحنه ، ويسبر غوره ، ليكشفه أمام الناس على زعمه ، فريق يأتى بعنجهيته ليقوم باستعراض علمى يقنع بعده الناس أنهم من أعلم العلماء .

ولكن سرعان ما يتبخر هذا العلم عند مقابلتهم الاولى للقطب الدسوقى اذ يرتج على الواحد منهم فلا يدري ماذا يقول .

ويصف القطب الدسوقى أمثال هؤلاء لتلامذته بقوله : « يا أولادى كم عالم ضافل محجوب مزكوم لا شم ولا لم ولا فهم ولا علم ولا نظر ولا اطلع على ما اطلعت عليه » .

ومنهم من يأتى ليعرف حقيقة الامر فاذا صدقت الحقيقة الخبر ، صار من أتباعه ، لانه يبحث عن الحق أينما كان . وقد استسلم له كبار علماء عصره واعترفوا له بعلو كعبه فى العلوم والى ذلك يشير فى تائيته :

وكم عالم قد جاءنا وهو منكر فرد بفضل الله من أهل خرقتى

ومما يروى عنه :

أن سبعة من القضاة جاءوا ليمتحنوه ، فلما وصلت المركب بهم الى ساحل دسوق ، ونزلوا منها ، قصدوا مكان القطب الدسوقى .

وتقول الروايات أن نقيبهم نهرهم ، فأصيبوا بذهول مدة من الزمن ثم عادت اليهم الذاكرة ، فتعجبوا من أمرهم ، وما آل اليه حالهم من تغير مظهرهم ورثاة ثيابهم وطول لحاهم وشواربهم ، وعلموا أن ذلك من تهجمهم الذى لا مبرر له على عارف من كبار العارفين ، فتأبوا الى الله عز وجل ، وقصدوا الى دسوق مرة اخرى ، واذا بالقطب الدسوقى قد أرسل نقيبهم لاستقبالهم فتلقاهم وقادهم الى الاستاذ رضى الله تعالى عنه فابتدرهم بقوله : « قولوا ما

عندكم من المسائل » يقصد المسائل التي أعادوها لامتحانها فيها قبل فقدان الذاكرة الذي أصابهم ، فضحكوا وقالوا « يكفيننا ما جرى لنا » • وأخذوا عليه العهد ، وصاروا من أخلص تلامذته •

اجماع من كتبوا عنه على علو مقامه

قال عنه فى لوائح الانوار القدسية (١) :

« وقد ترجمه بعضهم بأنه أحد الائمة الذين أبرز الله لهم المغيبات وخرق لهم العادات ، وأوقع لهم الهيبة فى القلوب ، وانعقد على فضله اجماع المشايخ ، وكان مقصودا لحل المشكلات ، وكشف خفيات الموارد رضى الله تعالى عنه •

وترجمه بعضهم أيضا بأنه الشيخ الكامل الراسخ أحد أعيان المشايخ الواصلين وصاحب الكرامات والخوارق فى حياته وبعد مماته ، انتهت اليه رئاسة الكلام على خواطر الخلق وتتلذذ له خلائق من العلماء والصلحاء والقضاة •

وترجمه بعضهم بأنه الشيخ الكامل ، كان له المقام العالى فى قلوب العلماء والملوك ، والمهابة فى الصدور ، وقصد للزيارة والتبرك من سائر الافاق •

وترجمه بعضهم بأنه الشيخ الكامل الراسخ من أجل مشايخ مصر وسادات العارفين ، صاحب الكرامات الظاهرة والافعال الفاخرة ، والاحوال الخارقة والمقامات السنية والهمم الفخيمة ، صاحب الفتح الموفق ، والتصدر فى مواطن القدس والترقى فى معارج المعارف ، وكان له الباع الطويل فى التصريف النافذ واليد البيضاء فى احكام الولاية ، والقدم الراسخ فى درجات النهاية والطور السامى فى الثبات والتمكين ، وهو أحد من ملك أسرارهم ، وقهر أحوالهم ، وغلب على أمرهم ، وهو أحد أركان الطريق •

وترجمه بعضهم بأنه صاحب المحاضرات القدسية والمعراج الاعلى فى المعارف ، والمنهاج الاسنى فى الحقائق ، والطور الارتفاع فى المعالى والقدم الراسخ فى احوال النهايات واليد البيضاء فى علم الوارد والباع الطويل فى

(١) الاسام الشعرانى : لوائح الانوار وجه الورقة ١٠٢ و ١٠٣ •

التصريف النافذ والكشف الخارق عن حقائق الايات ، والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات ، وهو أحد من أظهره الله تعالى الى الوجود وابرزه رحمة للخلق ووقع له القبول التام عند الخاص والعام ، وصرفه فى العالم ومكنه فى أحكام الولاية ، وقلب له الاعيان ، وخرق له العادات ، وانطقه بالمغيبات ، وأظهر على يديه العجائب ، وصومه فى المهد .

وحلاه المناوى (١) فى طبقاته بقوله :

« شيخ الخرقة البرهامية صاحب المحاضرات القدسية والعلوم والاسرار العرفانية ، أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات وخرق لهم العادات ، ذو الباع الطويل والتصريف النافذ واليد البيضاء فى أحكام الولاية ، والقدم الراسخ فى درجات النهاية ، انتهت اليه رئاسة الكلام على خواطر الانام وكان يتكلم بجميع اللغات ، ويعرف لغات الوحش والطيور » ويقصد باللغات الانسان وغيره من المخلوقات كما هو ظاهر كلامه .

ونقل شيخ الاسلام الشيخ أحمد الصاوى (٢) هذه التحلية عن الامام المناوى وحلاه المذيلة لى محمد أمين المدنى (٣) بقوله : كان من صدور المقربين وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة .

وحلاه القطب (٤) محمد البهى بقوله : « فهو قطب الاقطاب ، وعمدة العمدة الانجاب ، وكعبة الحقيقة وبحر الامداد والطريقة ، ومناقبه كثيرة وكراماته شهيرة » .

وحلاه الجلال الكركى فى لسان التعريف (٥) بقوله :

« سلطان الاولياء وسكردان الاصفياء برهان الدين ، جوهرة سلك الصالحين ، واسطة عقد المخلصين ، لسان حال المتكلمين ، الخائض فى بحر العلوم بأقوى قواعد التمكين » . وأطال رضى الله تعالى عنه فى وصفه .

(١) الكواكب الدرية مخطوط — ج ٢ وجه الورقة ٢٢٨ .
(٢) حاشيته «على شرح الخريدة للامام الدردير — ص ٧٩ .
(٣) طبقات الفقهاء والعباد والزهاد — مخطوط ظهر الورقة ٧٨ .
(٤) شرح حزب القطب الدسوتى له ظهر الورقة ١ . مخطوط .
(٥) لسان التعريف مخطوط ظهر الورقة ١٠ .

« تعريفه بعلو مقامه »

وكان رضى الله تعالى عنه يضمن كلامه وشعره التعريف بعلو مرتبته وهو ما يسمونه « الشطح » ، وينسب اليه الكثير فى هذا الباب .
فمن كلامه :

« أعرف تلامذتى من يوم : الست بربكم » (١) .

وقال مثل هذا كثير من العارفين مثل الامام التسوى وغيره .

« ومن كلامه رضى الله تعالى عنه فى كتابه المسمى برهان الحقائق (٢) انه قال يا فوز من رانى او رأى من رآنى او رأى من رأى من رآنى « الى ثلاثة عشر .

قال البقاعى واجتمعت والحمد لله على الشيخ اسماعيل بن محب الدين العيساوى البصرى وهو رأى الشيخ الخرشى أمام المالكية فى عصره وهو رأى الشيخ على الاجهورى العارف الكبير ، وهو رأى الشيخ خير الدين الكركى خليفه المقام ، وهو رأى السيدة فاطمة بنت الشيخ عبد الله أبى الطيور ، وهى رأت أباه ، وهو رأى أباه السيد محمد ، وهو رأى أباه السيد موسى ، وهو رأى أخاه القطب الدسوقى » .

والرؤية هنا لها معنى عند العارفين ، والا فقد يرى العارف الكافر والفاجر والمنافق والمؤمن ، والرؤية المقصودة هنا ، هى رؤية البصيرة اى رؤية الاتباع بشروطه المعلومة والا فلا .

وقد قال هذه المقالة كثير من العارفين ولا تخرج عن هذا المعنى ومتابعته صلى الله عليه وسلم هى أساس كل سعادة ، جاء فى الحديث الشريف « لا تجتمع أمتى على ضلاله » ، والامة على ثلاثة أقسام : أمة الدعوة وأمة الاجابة وأمة المتابعة ، والاخيرة هى التى لا تجتمع على ضلالة أبدا .

والعارف حين يتحدث يكون مستغرقا فى شهوده صلى الله عليه وسلم فيجربى على لسانه كلام يناسب مشاهدته فحيث يشهد بديع أنواره صلى الله

(١) ، (٢) طبقات الابرار للبقاعى ظهر ق ١١٦ .

عليه وسلم ، وأن كل خير متفجر من أقواله وأفعاله وألا نجاة الا بالاهتداء بهديه ، يقول العارف : طوبى لمن رآنى ، وهو يقصد رؤية من استغرق فى أنواره كل عارف ، فمن لم يتحقق بذلك فلا سبيل له الى هذه الرؤية •

ومن هذا القبيل جميع تصريحات القطب الدسوقي فهى خارجة منه وهو مستغرق فى شهود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمة الشاملة للعالمين •

قال القطب البهى فى شرحه على حزب القطب الدسوقي أنه أخبر عن نفسه ان من زاره مات على الاسلام ، وهذا ايضا من هذا القبيل ، فلا يتحقق الموت على الاسلام الا بشروطه فلا اشكال •

ومنها قوله (١)

« انا البحر الذى لاساحل له ، انا نار الله الموقدة ، انا المنتقم لله ، انا وقاد الحرب ، انا سيف الله على أعدائه ، انا الشهاب الثاقب الساطع ، انا السيف القاطع ، انا البرق اللامع ، انا الدرع المانع ، انا القطب الغوث ، الفرد الجامع ، انا صاع يوسف فى حضرة الملك ، لولا حجاب الشريعة على فمى لتكلم الصاع بما فيه » •

ومنه : « حكمت فى مشارق الارض ومغاربها ، وخضت البحار ، ودقت كاساتى فى الاقطار ، وصرت أمام قوم أخيار ، وكل ذلك من العزيز الجبار » •

ومن شعره فى هذا المعنى :

| | |
|------------------------------------|-----------------------------|
| على مذهبي كل المحبين يمموا | ونشأة خمري هيتمهم فهموا |
| وكل ملاح الحى أرخوا لثامهم | على وعن غيرى أبوا وتلثموا |
| انا الصاحي انا السكران من غير خمرة | انا الضاحك الباكي وسرى مكتم |
| اذا ما حضرنا والرقيب بمعزل | ترانا سكوتا والهوى يتكلم |
| بحق الهوى من مات من لفحة الهوى | ويبطل أصحاب الحديث المغمغم |

وله تائيتان ، تائية مختصرة وتائية مطولة :

(١) من لسان التعريف ظهر الورقة ٣٨ ووجه ٣٩ •

وهاهى التائية الاولى :

سقتانى محبوبى بكأس المحبة
ولاح لنا نور الجلالة لو أضأ
ونادمنى سرا بسر وحكمة
وعاهدنى عهدا حفظت لعهد
وحكمنى فى سائر الارض كلها (١)
وفى أرض الصين والأرض كلها
انا الحرف لا اقرا لكل ناظر
وكم عالم قد جاءنا وهو منكر
وما قلت هذا القول فخرا وانما

فتهت على العشاق سكرًا بخلوتى
لصم الجبال الراسيات لدكت
وان رسول الله شىخى وقـدوتى
وعشت وثيقا صادقًا بمحبتى
وفى الجن والاشباح رب البرية
الى اقصى بلاد الله صحت ولايتى
وكل الورى عن امر ربه رعيتى (٢)
فصار بفضل الله من اهل خرقتى
اتى الاذن كى لا تجهلون طريقتى

ونذكر مختارات من التائية المطولة فمنها :

نجلى لى المحبوب فى كل وجهة
وخطبى منى بكشف سرائر
وانظر فى مرآة ذاتى مشاهدا
وما شهدت عينى سوى عين ذاتها
فأغدوا وأمرى بين امرين واقف
ومنها :

فشاهدته فى كل معنى وصوره
تعالى عن الاغيار لطفًا وجلت
لذاتى بذاتى وهى غاية غايتى
لان سواها لا يلم بفكرتى
علومى تمحونى ووجدى مثبتى

نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم
على الدرة البيضاء كان اجتماعنا
وكل ولى للاله مؤيد
انا القطب شيخ الوقت فى كل مذهب
ومنه قوله :

وسرى فى الاكوان من قبل نشأتى
وفى قباب قوسين اجتماع الاحبة
يشهد أنى ثابت فى ولايتى
انا السيد البرهان شيخ الحقيقة

قدمى هذا على كل ولى
كل شيخ آخذ عهدى كذا
والقدم يعنون به : المقام أى أن مقامه على كل قطب
حتى على ابن الرفاعى قد علا
كل قطب كان قبلى أولا

(١) الأرض : فى اصطلاحهم : أرض النفوس .
(٢) الرعية : هى كل قوى الانسان الوجودية .

ومن ذلك قوله :

يقولون ما العلم ما السر الذى هو الجوهر العالى من البحر خبرنا
فقلت لهم هذى مطالع نورنا ومغربها فينا ومشرقها منا
على الدرة البيضاء كان اجتماعنا ومن قبل خلق الخلق والعرش قد كنا
تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس أين توجهنا (١)
ومنه قوله :

ولو القيت سرى فوق ميت لقام بقدرة المولى سعى لى
مريدى لا تخف وأعلم بأنى قريب السر من مولى الموالى
مريدى طب وهم واشططح وغن واطلب ما تشا فالاسم عالى
مريدى أننى ادعى الدسوقي وشيخى المصطفى كأسى ملالى
وكان القطب الدسوقي يتولى بنفسه شرح بعض المعانى المشككة ، حتى لا
يلتبس أمره على السامع ويقول (وما يعلم ما قلت الا من انخلع من طبعه
وصار كالملائكة) .

ويقول (فيا جميع الاخوان والاولاد من جد وجد ومن حصلت له العناية
الربانية اغناه الله من فضله الجزيل) ويقول (فايك يا ولدى أن تعترض على
أفعالنا فان أولياء الله متصلون بحضرة الله تعالى) .

وقد علق الجلال الكركى على بعض (٢) عباراته فى الشططح بقوله :

(١) هذه الابيات ذكرها الدكتور زكى مبارك رحمه الله تعالى فى كتابه التصوف الاسلامى
وقال معلقا عليها (نقلنا هذه الابيات عن (جواهر الحقائق) منسوبة للدسوقي ، اترها
كانت لابن عربى وغفل النابلسى عن صحة النسبة) والبيت الاخير ذكره الشعرانى فى كتاب
البحر المورود وقال ان الشيخ محيى الدين كان ينشده كثيرا — د ١ ص ٢٧٣ ط القاهرة
١٩٣٨ ووجدت ان بعض هذه الابيات منسوب للإمام الجيلانى فقد نقل العلامة التادفى عن
أحد أصحاب القطب الجيلانى أنه قال « كان سيدنا الشيخ محيى الدين عبد القادر رضى
الله عنه قد غاب عن أصحابه فى بعض رياضاته فلما خرج أتوه وسألوه عن حاله مع الله
نعالى فأشده يقول (ثم ساق قصيدة له جاء فيها :

وشمس على المغنى مطالع نورها معاربها فينا ومطلعها منا
وما البحر والمغنى وما الشهل قل لنا وما جوهر البحر الذى عنه عربنا ؟
تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس أين توجهنا !
وتم حديث جليل كنه صفائه عن الوصف ما فهمنا بذاك ولا حنا
شهدنا جهالا ما تجلى لغيرنا تلاحظه أرواحنا عنه ما حدنا

قلائد الجواهر للعلامة محمد بن يحيى التادفى : ص — ٤٠ —
(٢) لسان التعريف وجه الورقة ٣٩ وما بعدها .

(ان قلت ان هذه الامور التي صدرت من الشيخ دعاوى ، ولا يخفى ماورد في كلام القوم من ذمها وان كانت صادقة ، وقد تضمن ذمها نهى الشيخ في رسالته عن أمور منها القول بالمشاهدات قال : فان كل هذا نفوس وشهوات »

قلت : كلام القوم واستاذنا في ذلك انما هو في حق المريد على سبيل التربية له : فأشاروا الى أنه لا يتفوه بما يشاهده • وأما العارف فلا ملام عليه بما يبيديه الحق على لسانه من المعارف اذ قد عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله في معاملاته ثم تنقى من اخلاقه الرديئة ، فحظى من الله بجميل اقباله ، وصدق الله في جميع أقواله ، وانقطع عنه هوى نفسه ، ولم يصنع بقلبه الى خاطر يدعو الى غيره ، فصار من الخلق اجنبيا ومن آفاته النفسية بريئا ومن المساكنات والملاحظات نقيا •

ودام في السر مع الله نجيا • وحق في كل لحظة اليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق بتعريف أسراره ، فيما يجريه من تصاريف أقداره ، فيسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة ، وحينئذ يكون اخباره أعنى العارف بما منه الله عليه من النعم الجسام ، وأنه بلغ من الوصول الى الله لأفضل مرام من باب التحدث بالنعمة ، وقد أمر سبحانه بذلك نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله : (وأما بنعمة ربك فحدث) •

قال المفسرون الخطاب له والحكم له ونغيره عام ، والتحدث بنعم الله والاعتراف بها على وجه الخضوع : شكر على الحقيقة ، كما قال أهل الطريقة : العبودية التبرى من الحول والمنة ، والاعتراف بما يعيظك ويوليک من الطول والمنة • ويؤثر عن الحسن بن علي السبط رضى الله تعالى عنه أنه قال : اذا أصبت خيرا أو عملت خيرا فحدث به الثقة من اخوانك • وعن عمرو بن ميمون اذا لقي الرجل من اخوانه من يثق به يقول : رزقنى الله تعالى من الصلاة البارحة كذا وكذا • وكان أبو فراس اذا أصبح يقول : لقد رزقنى الله البارحة كذا ، وقرأت وصليت كذا وذكر كذا وفعلت كذا • ويقال له : ياأبا فراس ان مثلك لا يقول هذا ، قال : يقول الله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) وتقولون انتم لا تحدث بنعمة الله تعالى ! ونحوه عن أيوب السخيتاني (١) وأبى رجاء العطاردي •

(١) من كبار التابعين (٦٨ -- ١٣١) ه .

ولتحديد هذه المسألة يجب أن نعرف : ما هي نعمة الله تعالى • ومن هو الذى يتحدث بها ؟ ونعمم الله عز وجل هي كل ما قربك لله عز وجل ، كما ان النعمة هي كل ما أبعدك عنه سبحانه وتعالى •

ولكن ضعاف العقول والجهلة فهموا غير هذا : ان اعتقدوا أن نعمة الله تعالى هي ما يحصل عليه أحدهم من الماديات ، فيتباهى ويتفاخر ويتلذذ بالحديث عما عنده من وسائل الرفاهية ، ثم يردف ذلك عبتسما (وأما بنعمة ربك فحدث) مع انه في طريقة عرضه لما سماه نعمًا ، انما يحاول ان يستذل غيره ويتعالى عليه ، ليجبره على احترامه والاعتراف بأنه أكثر منه جاهًا وعزة ومالا وهذا الذى يتحدث بنعمه سبحانه وتعالى لو طلب منه بذل درهم في سبيل الله تعالى لثقل ذلك عليه ، وتسمح نفسه بشراء زينة تافهة أو شيء من الكماليات بعشرات الجنيهات ، يفعل هذا ويظن أنه مؤمن شديد الايمان ، مع انه لو علم لعرف ان ماعده من النعم على هذا الوجه انما هي نقم يفتتن بها ويفتن غيره ، وهذا من سوء الادب الذى انتشر بين الناس واعتبروه من الاعمال التى حث عليها الشرع • والشرع من ذلك براء •

اما الذى يحق له التحدث بالنعمة فهو من اذا تحدث كان ذلك شكرا لله عز وجل ، أو تذكيرا للغير بآلائه سبحانه وتعالى أو حثا له على الاخلاص له تعالى فى كل موطن •

اما الذى يحق له التحدث بالنعمة فهو من اذا تحدث كان ذلك شكرا لله عز وآفاتها ، صافى السريرة حاضر القلب مع الله عز وجل ، هؤلاء اذا تحدثوا بنعمه تعالى ازداد الناس ايمانا على ايمانهم واشتاقوا نفوسهم الى الطاعات وامتلأت حياء من الله تعالى •

يقول رضى الله تعالى عنه (١) :

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| الا اننا من معشر سبقت لهم | أياد من الحسنى فعوفوا من الجهل |
| ولم ينظروا يوما الى ذات محرم | ولم يعلموا غير التقية فى الفعل |
| نعين ما فوق السموات كلها | معينة الاشخاص بالجواهر المجلى |

(١) من كتاب (مختصر مسرة العينين) للشيخ عبد الحى بن على — خط وجه وظهر الورقة ٣ •

ونعلم ما كنا ومن أين نورنا وما نحن بالتصوير في عالم الشكل
وانا وان كنا في عالم الثرى فأرواحنا في عالم الغيب تستعلى
ونختتم هذا الباب بسؤال وقع في هذا الصدد للإمام ابن حجر (١) الهيمى
اذ سئل بما نصه : (ما الذى يجاب به عما وقع من شطحات الاولياء من
كلماتهم واشاراتهم التى ظاهرها انتقاد وباطنها حق . .) ونلخص فيما يلى
جوابه عن هذا السؤال :

لقد اجاب الائمة العلماء ، العارفون الحكماء عما صدر عنهم بأحسن
الجواب وحملوا أقوالهم على أحسن المحامى وأقومها ، ولهم فى ذلك أجوبة
مسكنة وتحقيقات مبهتة لا يهتدى اليها الا الموفقون ولا يعرض عنها الا
المخذولون ، فمن حارب أولياء الله تعالى أو تعدى بالانكار عليهم لا يفلح أبدا
فقد قال تعالى على لسان الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم (من عادى
لى وليا فقد آذنته بالحرب والمسالك التى تحمل عليها شطحانهم هى :

١ - (ان تلك الكلمات حكاية عن حضرة الحق ونطق عما يليق بما شاهدوه
من الانوار ، وغلبة التجوز فى نحو ذلك من مقامات المحبة والعبودية والقرب
يبسيط لهم العذر ويرفع عنهم الاصر ، وممن اعتمد هذا المسلك الشهاب
السهروردى ، المجمع على امامته فى العلوم الظاهرة والباطنة فى عوارفه) ثم
استشهد بنصوص من عوارف المعارف .

٢ - (ان ذلك وقع منهم فى حال الغيبة والسكر الناشئين عن الفناء فى
المحبة والشهود لموارد الاحوال المزعجة للقلب ، الاخذة له من صحوه وتمييزه ،
الا ترى ان بعض الهموم أو الواردات الدنيوية اذا وردت على القلب أذهلته
وأذهبت تمييزه لشدة تمكنها منه ، واستغراقه فى فكره وخطرها فاذا كان هذا
فى الامور السافلة التى لا تقوم بجناح بعوضة ، فكيف بواردات الحق على
القلوب ولواعج المحبة المذهلة عن كل مطلوب ومرغوب وعوالم المكوت
المنكشفة لهم فى منازلهم ، ومشاهدة عجائب القدرة فى ترقياتهم فان ذلك لا

(١) الامام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيمى المكنى (نسبة الى محلة أبى الهيم بمصر
وقد ولد بها) الشافعى المتوفى بكة سنة ٣ - ٩٧٥ هـ وله كتاب الفتاوى الحديثية ط القاهرة
سنة ١٣٢٩ هـ ص ٢٢٨ وما بعدها .

يبقى فى القلب شعورا ولا نميزا بل يصير صاحبه كالسكران التمل فحينئذ ،
ينطق بما رسخ فى خلدته قبل • ويرجع بطبعه قهرا عليه الى مكان يلحظه ويعول
عليه ، فينطق لسانه بطبق تلك الاحوال لكن بعبارات لا يقصد بها ما يوهمه
ظاهرها من اتحاد أو حلول أو انحلال ، فتأمل ذلك وعول عليه تسلم • وكل
سكر نشأ عن سبب جائز فصاحبه غير مكلف • وممن اعتمد هذا المسلك القطب
الربانى عبد القادر الجيلانى نفع الله به •

٣ - (أنهم قد يؤمرون بذلك تعريفا لجاهل أو شكرا وتحديثا - ممة الله كما
وقع للشيخ عبد القادر) •

٤ - (ان الشطح قد يكون فيه نفع للخلق ، وقد عرفوا ذلك بالهام أو كشف
أو خطاب أو نحوها من وجوه التعريفات) • كما يقع من بعضهم حين يقول من
رأى دخل الجنة أو نحوه •

٥ - (ظهور المراد من اللفظ وان أشكل ظاهره كما وقع للشيخ أبى الغيث بن
جميل أنه جاء اليه جماعة فقال لهم مرحبا بعبيد عبدي فاشتد انكارهم عليه
وذكروا ذلك للعارف الشهير اسماعيل (١) الحضرمى فقال لهم : صدق : (أنتم
عبيد الهوى والهوى عبده) •

وفى هذا المعنى يقول العارف الشهير السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى
فى ميميته :

ملوك ولكن الملوك عبيدهم وعبيدهم أضحى له الكون خادما
٦ - الاشارة الى الخلافة عن الحق بالاذن له فى التصرف فى الكون كما
قال الشيخ أبو الغيث :

وحبائى الملك الميهن خلعة فالارض ارضى والسماء سمائى
كتب هذا ردا على خطاب أرسله اليه العارف الشهير أحمد بن علوان اليمنى
يقول له فيه (جزت الصفوف الى الحروف والاسماء الى الهجاء حتى انتهيت
الى مراتب الابداع) •

وقوله الارض ارضى الخ • يعنى ارض النفس قد ملكها وسماء الروح قد
انقادت له باذن الله تعالى • وهو خلاف ما يتبادر الى الذهن • فهؤلاء منهم

(١) هو الامام الكبير اسماعيل بن محمد الحضرمى وهو صاحب مدرسة من مدارس
التصوف توفى سنة ٦٧٧ هـ •

نستقى الادب وبهم نقتدى فى الجهاد فى سبيل الله عز وجل . ولا نسمح لمنافق
أفاق قد تلوث بقاذورات النفوس حتى عبد هواه فى طلب الحياة الدنيا كما
يفهمها لا نسمح لامثال هؤلاء المدنسين بالانكار على هؤلاء .

٧ - (قصد التخريب وهو ما يقع للملامتية وهم قوم طابت نفوسهم مع الله
فلم يودوا أن يطلع أحد على أعمالهم فاذا رأى أحدهم أن أحدا اعتقد فيه
خرب ، أى ارتكب ما يندم به ظاهره من فعل وقول كسرقة بعض الاولياء وهو
ابراهيم (١) الخواص نفع الله به وناهيك به علما ومعرفة : لما رأى أهل بلده
يعتقدونه سرق ثيابا من الحمام لابن الملك وخرج يتبخر بها حتى أدركوه ف ضرب
وأخذت منه وسمى لص الحمام فقال : الان طابت الإقامة فى هذا البلد ، .
وبديهي أنه لا يقصد السرقة بدليل أنه عرض نفسه على صاحب الثياب حتى
يستردها ويبقى له ما أراد . وهذا من قبيل استعمال بعض المحرمات للضرورة
كالتداوى بالنجاسة ، أو أكل ما لا يحل اذا خشى الانسان الهلاك وذلك بقدر ما
ينجيه من الهلاك .

وقد تروى عن أحد الاولياء كرامات وخوارق وتصدر عنه الشطحات ، وقد لا
يروى عن أحدهم شيء من هذا القبيل وقد يربط الناس الحالة الاولى بمرتبة
الولى فيعتقدون أن علو المرتبة يقترن بالخوارق والشطوح ، والواقع انه لا
ارتباط أبدا بين ذلك وبين مرتبة الولى . وانما تصدر الكرامات أو الخوارق
طبقا لحكم المقامات التى يقطعها . وقد فصل الكلام على هذه المسألة الامام
المجدد الشيخ احمد الفاروقى السهرندى (٩٧١ — ١٠٣٤ هـ) فقال :

(ماكل من كانت خوارقه أكثر تكون ولايته أتم وأكمل ، بل قد تكون خوارقه
أقل وولايته أتم وأكمل . ومدار كثرة الخوارق على شيئين وهما : أن يكون
الصعود فى وقت الخروج أكثر والهبوط فى وقت النزول أقل . بل الاصل العظيم
فى كثرة ظهور الخوارق هو قلة النزول كيفما كان الخروج لان صاحب النزول
ينزل الى عالم الاسباب فيجد الاشياء مربوطة بها ، ويرى فعل المسبب من
ورائها والذى لم ينزل أو نزل ولكنه لم يحصل الى الاسباب فنظره مقصور على
مسبب الاسباب ، والاسباب قد ارتفعت عن نظره ، والحق سبحانه يعامل كل أحد
على حسب ظنه ، فيقضى أمر من يرى الاسباب بها ، ويقضى أمر من لا يرى الاسباب

(١) العارف الشهير ابراهيم الخواص توفى سنة ١٨٤ هـ .

بدونها . قال تعالى فى الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي ٠٠٠ » ولطالما كان يخطر ببالي انه ما السبب فى كون الخوارق التى ظهرت على يد الشيخ عبد القادر رضى الله عنه لم تظهر على يد كثير من كمل الاولياء السابقين حتى أطلعنى الله تعالى على سر ذلك ، وهو أنه كان عروجه أعلى من اكثر الاولياء ، وفى جانب النزول كان نزوله الى مقام الروح الذى هو فوق عالم الاسباب ، ومما يناسب هذا المقام ، ما حكى : أن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه كان واقفا على شاطئ النهر ينتظر السفينة فجاء حبيب العجمى رضى الله عنه فوجده واقفا فقال له : ماذا تنتظر ؟ قال : السفينة . فقال له : وأى حاجة الى السفينة ! أمالك يقين . فقال الحسن : أمالك علم ! ثم مشى حبيب على الماء ، وبقي الحسن حتى ركب فى السفينة . فلما كان الحسن نازلا الى عالم الاسباب عاملوه بها ، وحبيب لم ينزل فعاملوه بدونها ، والفضل للحسن فانه صاحب علم جمع بين علم اليقين وعين اليقين وعرف الاشياء كما هى ، وفى نفس الامر جعلت القدرة مستورة خلف الحكمة . وحبيب العجمى صاحب سكر وله يقين بالفاعل الحقيقى من غير أن يرى للاسباب مدخلا . وهذه الرؤية غير مطابقة لما فى الواقع فان توسط الاسباب كائن وحاصل . وأما شأن التكميل والارشاد فهو بعكس طريق ظهور الخوارق فان مقام الارشاد كلما كان نزوله اكثر كان فى الارشاد اكمل لانه لا بد من حصول المناسبة بين المرشد والمسترشد وذلك منوط بالنزول . واعلم انه كلما كان الصعود أعلى يكون الهبوط المناسب له أنزل ، وربما تحصل الافادة من المتوسطين فى هذا الطريق اكثر من المنتهين فمدار كثرة الافادة وقلتها على الهبوط والرجوع لا على الانتهاء وعدمه . وههنا دقيقة وهى : كما أنه ليس من شرط الولاية علم الولي بنفس ولايته كما هو المشهور ، كذلك ليس من شرطها علمه بخوارقه ، فربما ينقل الناس عنه خوارق شتى وهو لا علم له بها . وكان شيخنا (١) قدس سره يقول : والعجب أن الناس يأتون الى من الاكفاف والاطراف فبعضهم يقول رأيناك فى مكة وبعضهم يقول رأيناك فى بغداد فيظهرون الصحة والمعرفة والحال انى ما خرجت من بيتى فما هذا الافتراء) أهـ .

(١) شيخه رضى الله عنه هو العارف مؤيد الدين محمد الباقر الدهلوى (٩٧٤ — ١٠١٤هـ) توفى بدلهى بالهند .

البَابُ الرَّابِعُ

وقف أئمة التصوف من التأليف موقفين متغايرين الا أنهما يلتقيان عند غاية واحدة ان لا مقصد للقوم سوى الله عز وجل في جميع شئونهم .
« فمنهم فريق اتخذ من المساجد والحلقات معاهد لتخريج الرجال العاملين بالكتاب والسنة ومن أئمة هذا الفريق في القرن الثالث الهجري :

معروف الكرخي : ٢٠٠ هـ .

والسري السقطي : ٢٥١ هـ .

وابو يزيد البسطامي : ٢٦١ هـ .

وسهل بن عبد الله التستري : ٢٨٣ هـ .

والجنيد : ٢٩٧ الملقب بسيد الطائفة .

ومنهم في القرن السابع الهجري :

مؤسس الطريقة الشاذلية الامام ابو الحسن الشاذلي : ٦٥٦ هـ .

ومؤسس الطريقة السطوحية القطب السيد أحمد البدوي : ٦٧٥ هـ .

ومؤسس الطريقة البرهامية القطب السيد ابراهيم الدسوقي ومعظم الصوفية من هذا الفريق .

روى عن ابن عطاء الله السكندري أن ابا الحسن الشاذلي سئل لم لا تضع الكتب في الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم ؟

فأجاب بقوله : كتبى أصحابي .

أما الفريق الثاني فقد اتخذ من الكتب منابر لبيان الطريق وشرح أصولها ونشر علومها والاشارة الى أدواقها ومعارفها ، فكانت كتبهم خزائن حفظت للعالم أثمن تراث في بابيه كما صانته من كل دخیل وحمته من دعاوى الادعاء .
ومن أئمة هذه المدرسة ،

المحاسبى : ٢٤٣ هـ : أبو نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء ٣٧٨ هـ -
والكلاباذري : ٣٨٠ هـ : والسلمي : ٤١٣ هـ : والهجویری : ٤٦٥ هـ -
والقشیری : ٤٦٥ هـ : والغزالي : ٥٠٥ هـ : وابن العربي : ٦٣٨ هـ -

والمؤلفون من الصوفية ندرة بالنسبة لرجال التصوف اذ القوم أبعد ما يكون عن المظاهر ولا هم لهم سوى خالقهم فى كل حركة أو سكون ، ومن ألف منهم لم يخط كلمة يمينه الا بنية التقرب الى الله عز وجل ولعلها تكون سببا فى الاهتداء الى الحق لمن بحث عنه بصدق وإخلاص .

فالتأليف فى التصوف بالذات ليس بمعيار يصلح لقياس درجات الصوفية ، فقد يكون أحدهم من أصحاب المؤلفات وهو أقل درجة ممن لم يترك أى مؤلفا ولكنه نقش آثاره فى صدور أصحابه ومريديه .

ولو التفت مريدو القطب الدسوقي الى تسجيل مجالسه العلمية ، وإرشاداته وإشارات وتوجيهاته لتركوا لنا ذخيرة علمية حافلة بالمعارف المبتكرة العزيزة المنال فى كل باب تناولته .

ولكن لم يصلنا من إنتاجه سوى أحزابه وأوراده وهذه محفوظة فى صدور مريديه ورجال طريقتهم قبل أن تحفظها الأوراق ، وفيما عدا ذلك وصلتنا شذرات متفرقة من كتبه أو مختارات من أقواله سجلها العلماء الذين كتبوا عنه .

أحزابه وأوراده

عرف الامام العارف الصوفى أحمد زروق (١) الحزب بأنه : هو الورد المعمول به تعبدا ، وهو فى الاصطلاح : مجموع أذكار وأدعية وتوجهات وضعت للذكر والتذكير والتعوذ من الشر وطلب الخير وحصول العلم ، مع جمع القلب على الله سبحانه وتعالى بذلك .

والاوراد والاحزاب تتضمن :

الثناء على الله عز وجل وتقديسه وتمجيده وتفريده بالكمالات اللائقة بحضرة الألوهية ، وتتضمن الاستغفار والتوبة والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من كل حجاب يقطع الانسان عن الهدى المحمدى .

وفيهما طلب التوفيق الى كل خير يرضاه الحق تبارك وتعالى فى الدنيا والاخرة .

(١) هو الامام العالم الفقيه المحدث الصوفى : أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى (٨٤٦ - ٨٩٩ هـ) الشهير بزروق . بضم النون فى البرنسى نسبة الى عرب بالمغرب . وصلنا من مؤلفاته أكثر من خمسين مؤلفا .

والقصد من ذلك كله :دوام الحضور مع الحق سبحانه وعدم الغفلة عنه .
وواضعو الاحزاب والاوراد اما أن يكونوا من مؤسسى الطرق الصوفية
الرئيسية أو من مؤسسى فروع هذه الطرق .
ولكل عارف منهم صيغة خاصة فى الصلاة على امام الهداة صلوات الله
وسلامه عليه ، هى مفتاح أنوار روح ذلك العارف ، وسبيل كماله ، وباب فتوحه
الموصل الى خزائن العلوم الاصطفائية التى لا يطلع عليها سوى صفوة الله
تعالى من خلقه .

والاحزاب التى اقرها أساتذة الطرق الصوفية على ثلاث أنواع :

قسم خاص بما ورد فى الحديث الشريف .

وقسم سجل فيه العارف ما الهمة الله عز وجل بعبارات واضحة .

وقسم سجل فيه العارف ما أفيض عليه من الانوار بعبارات ممتزجة بحروف
لا يدرك معانيها الا من كان فى مرتبته ومقامه ، ومثال ذلك الحروف الواردة فى
أوراد القطب الجيلانى ، والامام الشاذلى ، والعارف ابن سبعين والقطب
الدسوقى ، وكلهم فى طريق العناية يتسابقون .

وأوراده وأحزابه رضى الله تعالى عنه مطبوعة ، وقد عنى العارفون
بشرحها ، وأشهر الشروح المطبوعة هو «مسرة العينين بشرح حزب أبى
العينين» للعارف الصوفى الجليل الشيخ حسن شمه الفوى ، وقد فرغ من
تأليفه سنة ١١٦٨ هـ ، وقد اختصره الشيخ عبد الحى بن على الا أن مختصره لم
يطبع لشهرة الاصل .

ومن شروحه المخطوطة شرح العارف محمد البهى ، وشرح الشيخ محمد بن
رضوان الابيارى المسمى « انسان المقلتين بشرح حزب أبى العينين » وتوجد منه
نسخة خطية بدار الكتب العامة ترجع الى سنة ١١٨٤ هـ .

هذا عدا شروح الاحزاب والاوراد التى تضمنت حزب القطب الدسوقى أو
مقتطفات منه ، وهذه أيضا بعضها مطبوع وأغلبها مخطوط .

وللعارفين بعض زيادات على الحزب :

قال الشيخ البهى فى شرحه : ؟ وقد رويانا عن بعض أشياخنا المنتسبين الى

طريقته المقتفين لاثاره والمتزيين بخرقته أن من أحب أن يكون مكتوباً في جريدة أصحابه وأن يعد من أتباعه ويحسب من أحبائه فليذكر بعد هذا الحزب بل بعد كل صلاة يا الله عدد ٦٦ : ثم يذكر يادائم عدد ٦٦ : ثم يقول ، يادائم لك الدوام الازلى والبقاء السرمدى حتى ترث الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين ، سبحانك يادائم أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، سبحانك يادائم ارزقنا حلاوة محبتك ، واحشرنا فى زمرة المحبين ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بأى صيغة » .

وكان القطب الدسوقي يأمر أصحابه بقول : « يادائم » فى ذكرهم عقب الصلاة ، فمر بعض المنكرين لذلك على الاستاذ وجماعته وهم يذكرون بعد صلاة الظهر « يادائم » فاستولى على المنكر سلطان الذكر ، حتى سمع كل من فى الوجود يقول يادائم ، فخر مغشياً عليه ورجع عن انكاره .

وهذه الحالة التى استولت على المنكر ليست بعجيبة ، فان كل من يستغرق فى ذكر يسمع كل الموجودات تذكر بهذا الذكر ، ولكن العجيب هو سريان الحال من جماعة القطب الدسوقي الى المنكر حتى تاب وعدل عن انكاره .

وقد زاد شيخ الاسلام العارف الكبير الامام محمد بن سالم الحفنى تلاوة اسمه عز وجل يابارىء مائة مرة بعد قراءة الحزب ، وقال شارح الحزب « ولعله باذن من صاحبه شيخ الاسلام الذى كانت علومه من فيض الوهاب » . ذلك لان عادة أساتذة الصوفية قد جرت بأنهم لا يزيدون فى حزب أو يعدلون فى أوقات قراءته الا باذن معين هم يعلمون شروطه .

وقد ورد عن حجة الاسلام الامام الغزالى أن ذكر اسمه عز وجل « يابارىء » مائة مرة صباحاً وكذا مساء ، تنجى من سوء . وهذا من أهم المعانى التى اشتمل عليها حزب القطب الدسوقي .

والتربية بأسماء الله الحسنى أصل عام للتربية عند العارفين تسير عليه جميع الطرق الصوفية ، والغرض منه هو سقى المرید بأنوار الاسماء الالهية حتى يبلغ أقصى كمال يطيقه استعداداه ، ويتخلق تبعاً لذلك بالاخلاق القرآنية التى لم يشم مخلوق رائحة من الكمال ما لم يكن له نصيب منها . ولهم فى ذلك توجيهات مختلفة :

ففى بعض الطرق الشاذلية ينظر العارف الى مریده ثم يأمره بأن يجلس بين

يديه ويذكر أمامه بالاسماء الحسنى اسما اسما فأى اسم حصل منه تأثير فى
المريد أمره بذكره ، ففى هذا الاسم دواء لامراض قلبه ، اذ منه تننشر الانوار
التي تبده ظلمات النفس وترفع الحجب عن عين البصيرة حتى يصبح الانسان
عبدا خالصا لله عز وجل لا يبغي سواه فى كل أموره .

ومن يقرأ ورده رضى الله تعالى عنه يشعر بأنه صادر عن روح كبيرة قد
استنارت بمحبة الله عز وجل ، وفنيت فى حب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ولما أن الصفات الغالبة على الولى تظهر من ورده ، فإن الورد
الدسوقي يدلنا على أنه رضى الله تعالى عنه قد اختص بهمة خارقة ، وعزم لا
يلين فى سبيل نصرة الحق ، وجرأة لا هوادة فيها على الظلمة والمجرمين .

قال الشيخ الابيارى (١) ان محل تلاوته عقب صلاة الصبح ، وصلاة
المغرب .

وقال القطب البهى (٢) فى شرحه للحزب : وقد نقل عنه — أى عن صاحب
الحزب — أنه قال فى شأنه : ان من قرأه ثلاثا صباحا وكذا مساء أمن من كل ما
يخافه وسلم من كل سوء وحفظ من الطاعون ، بل ومن جميع الفتن حتى يأمن
من سوء الخاتمة .

وهذا كلام يسمعه المحجوب فيقول كم سمعنا مثل هذا وذاك فلا يحدث شئ
مما وعدنا به ، ثم يتناول على قدر سوء أدبه .

والجواب على ذلك : ان هذه المسألة ليست خاصة بورد معين ، بل ان
وضعها هكذا يقصد منه تميعها ، والهرب من الجواب الحقيقى عنها ، فلو
أردنا الجواب الصحيح عنها لوضعنا اعتراض المعترض هكذا : مالنا ندعوا فلا
يستجاب لنا ؟ وبذا نكون قد انتقلنا الى أصل من الاصول التي تنعقد عليها
الامور .

والجواب أن للدعاء شروطا منها ما هو خاص بالدعاء ومنها ما هو خاص
بالداعى ، فاذا لم تتحقق فائى يستجاب له ؟

(١) انسان المقلتين — مخطوط ظهر الورقة ٢ .
(٢) شرح الحزب المنير مخطوط ظهر الورقة ٥

فمن الدعاء ما يمكن أن يكون استهزاء من الداعى : كرجل مطعمه حرام وملبسه ومشربه حرام ، يقول يارب يارب ! وهو يعلم أنه قد اخترق حدود الله عز وجل وانتهك حرماته ولم يراع فى حقوقه الا ولا ذمة .

وكرجل ظالم مستهتر بحقوق الناس مضيع لحرماتهم معتد عليهم ، يقول اذا ما فقد الاسباب : اسباب النجاة التى يتقنها بمكره ولؤمه ، يقول : يارب يارب !!

وكمجرم يستبيح أموال الناس ودماءهم فاذا ما ضاقت عليه السبل قال : يارب يارب !

وهناك فريق من الناس يدعى الايمان بالله عز وجل ولا يعمل الا ما وافق هواه « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ١٠٣ وما تسألهم عليه من أجر ، ان هو الا ذكر للعالمين ١٠٤ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ١٠٥ وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ١٠٦ » . من سورة يوسف عليه السلام .

ومنهم من يتخذ الشريعة والدين مطية للوصول الى الاغراض الشخصية فيرائى الناس ليقبض ثمنا قليلا ، يبيع آخرته وهداة ونوره بأبخس الاثمان !

وكم يفسر الشريعة تفسيرا يتمشى مع مبادئه الهدامة ، ويرخص له المروق من دين الله تعالى .

أو كمن يذكر الله عز وجل ليظهر أمام الناس بالتقوى أو يرتاد المساجد أو يعظ غيره وهو لا يعمل بما يقول مثقال ذرة! فهو لاء لا دين لهم ولا خلاق ، بل هم أشد خطرا على المؤمنين من أخبث الكافرين ايغالا فى الكفر : هم العدو فاحذروهم قاتلهم الله أنى يؤفكون .

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال قاتلت حتى استشهدت قال : كذبت ولكن قاتلت أن يقال جريء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقي فى النار » .

« ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرف نعمه فعرفها .
فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال :
كذبت ، ولكنك تعلمت العلم لي قال عالم ، وقرأت القرآن لي قال هو قارئ ، فقد
قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار » .

« ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه
فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا
أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت لي قال هو جواد فقد قيل ثم أمر به
فسحب على وجهه فألقى فى النار » .

رواه الامام أحمد ومسلم وأخرج الترمذى نحوه .

وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « الرجل يقاتل للمغنم »
والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : من
قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله ، رواه الامام البخارى .

وعن على رضى الله تعالى عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : سيخرج قوم فى آخر الزمان : أحداث الاسنان ، سفهاء الاحلام ،
يقولون من قول خير البرية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما
يمرق السهم من الرمية » الحديث رواه الشيخان

ومن حديث آخر عن أبى سعيد الخدرى وأنس رضى الله تعالى عنهما : « قوم
يحسنون القيل ويسينون الفعل ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من
الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يرتد السهم على موقه (١) هم
شر الخلق والخليقة » الحديث .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم . ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون ،
وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون به ، ثم انهم تخلف من بعدهم خلوف يقولون
مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدكم بیده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم
بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان
حبة خردل » . رواه مسلم .

(١) فوق السهم موضع الوتر منه ومعناه استحالة رجوعهم الى الهدى وطريق الحق

فالمعيار الاعظم الذى توزن به الاعمال وتقوم الافعال هو ابتغاء وجه الله عز وجل فى كل قول أو فعل أو حركة أو سكنة أو نية هذا هو الميزان الوحيد لسلامة الاعمال الانسانية .

فلا يغتر الانسان بأفعاله ان كانت فى ظاهرها موافقة للشرعية ولا يطمئن حتى يفتش قلبه ويعلم أنه يصرف جميع أموره لله عز وجل لا يبغى سواه فى الدنيا وفى الآخرة ، والا فلا عمل له ، والا فهو من الاخسرين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

فمهما قرأت عن مزايا ورد من الاوراد فلا يخرج الامر عن هذا الاصل من اصول الدين ، فلا تلم صاحب الورد اذا لم تحصل لك أنوار ذكر الله عز وجل ، ولم نفسك لانقطاعها عن الله عز وجل وانشغالها عنه بأتفه الامور ، ثم تدعى بعد ذلك أنك من أحبب أهل الله أو من خاصة المؤمنين أو على أهون الاحوال أنك من المؤمنين بكلامه عز وجل وأفعالك أبعد ما تكون عن الشريعة كما بينها امام الهداة صلى الله عليه وسلم .

واعلم أنه قد ورد فى الحديث . كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه . ذلك لانه يقرأه ولا يحفل بالعمل به ، يستهزئون بأمر الله عز وجل ، الله يستهزىء بهم ويذرهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

كلمة عن الحروف الواردة فى أحزابه رضى الله تعالى عنه !

قال الامام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد فى شرحه لحزب البر الكبير للامام الشاذلى (١) ان علوم الحروف والاسماء « من علوم الكشف فلا فائدة فى التصرف فيها ، والكلام عليها ببضاعة العقل ، بل لا يعرفه من جهله ، ولا يجله من عرفه ، وكل على حسب ما فتح له ، ولذلك يتفاوت فيها أهلها ويقع الاختلاف بينهم فيما يشيرون اليه فيها » تسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ، .

وقال بعضهم : « وكما يستدل بالاسم على الذات كذلك يستدل بكل حرف من

(١) شرح حزب البر الكبير ط — ١٣٣٣ هـ ص ١١/١٠ .

حروف الاسم على حقيقة من حقائق الذات ووصف من أوصافها الذاتى والفعلى ، ولا يقتصر فى دلالة الحروف على صفة واحدة من الصفات ، بل كل صفة مفتوحة بذلك الحرف دل عليها ذلك الحرف » .

والواقع انه لا توجد علاقة حتمية بين معنى حرف من الحروف وافتتاح صفة من الصفات أو اسم من الاسماء بذلك الحرف .

والاولى أن يقال ان الحروف لها معان سارية فى جميع اللغات ولذا كانت الحروف أصلا لجميع اللغات .

وقد تكلم على معانى الحروف كثير من أئمة العارفين مثل الشيخ الاكبر الامام محيى الدين بن العربى وعبد الحق بن سبعين المرسى وغيرهما ، وللأول كتاب فى أوراد الحروف تضمن كل ورد معنى حرف مفرد من الحروف الهجائية .

وقال الحكيم الترمذى (١) فى نواذر الاصول : ان فواتح السور فيها اشارة الى ما تضمنته السورة من المعانى ولا يعلم ذلك الا حكماء الله فى أرضه ، وهم نجباء الحكماء ، وهم قوم وصلت قلوبهم الى الفردانية وتناولوا هذا العلم من مشكاتها ، وهو علم حرف المعجم وبهذه الحروف يعبر عن العلوم كلها ، وبالحروف ظهرت أسماؤه حتى عبروا عنها باللسنة .

وقال الورتجيبى فى تفسيره ان رموز الحروف المقطعة لا يعرفها الا الربانيون ، وقد نقل الجلال الكركى فى لسان التعريف أن القطب الدسوقى قال : « اننى أشرح فى نقطة الباء سبعة أحمال بغير فتتقطع قلوب العارفين وتهتز وتميل عند معرفة نقطة الباء » .

وشرح الجلال الكركى (٢) معنى هذا : بأنه يشير بالنقطة الى الجوهر الفرد الذى يثبت المتكلمون ومذهبهم جوهرية النقطة لا عرضيتها : ان أن جميع الكائنات مركب من جواهر فردية ، وهذا يستدعى الكلام على تفصيل الموجودات من حيث أجناس جواهرها وأنواع تلك الأجناس وأصنافها من حيث أعراضها .

(١) هو محمد بن على بن الحسن بن بشر الملقب بالحكيم الترمذى الصوفى الشهير استشهد سنة ٢٩٥ هـ وفى اللسان للحافظ أنه عاش الى حدود سنة ٣٢٠ هـ : وكتابه هو نواذر الاصول فى احاديث الرسول وهى (٢٩١) أصلا فى ثلاثة أسفار .
(٢) لسان التعريف — مخطوط — من ظهر ق ٤٠ : وجه ق ٤١ .

والكلام على ذلك يستتبع الكلام على أحكام ذلك من القول بحدوثها بالدلائل العقلية والسمعية .

والجواب عما نفى به الفلاسفة اثبات الجوهر الفرد وعما أثبتوا به الهیولی والصوره ، وبيان ما يترتب على اثبات الفرد المشار اليه بالنقطة من الثمرات :
أذ من ثمراته النجاة من كثير من ظلمات الفلاسفة ، مثل اثبات الهیولی والصوره المؤدى اثباتها الى قدم العالم ، وقدمه يؤدى الى تكذيب ما جاءت به الشرائع من زوا لهذه الدنيا ، وتبديل الارض غير الارض والسموات ، ونفى القيامة فيبطل ما جاء فى الوعد والوعيد ، ويلزم من ذلك تكذيب الرسل وانكار الشرائع وهو أقبح الكفر .

ومن ثمرات ثبوت النقطة ابطال القول بامتناع الخرق والالتئام فى الافلاك ، وشرح هذه الامور بتفاصيلها ودلائلها واثبات تلك الدلائل وسائر ما يترتب على اثبات النقطة غير ما أشرنا اليه يستدعى تدوينه من الكتب ما يوازى سبعة أجمال بعير ، كما أفاده أستاذنا اذ النقطة عليها مدار الكون بأسره .

وهذه التصريحات لم ينفرد بها القطب الدسوقي بل صرح بها كثير من العارفين .

وفى شرح الحروف التى وردت فى الحزب الصغير ذكر الحافظ أحمد بن المبارك السجلماسى (١) هذه القصة ، قال :

قدم علينا بعض أصحابنا من أخيار أهل تلمسان ، فأخبرنى أنه سمع بعض من حج بيت الله الحرام يقول انه زار قبر سيدى ابراهيم الدسوقي نفعا الله به ، فوقف عليه الشيخ سيدى ابراهيم الدسوقي نفعا الله به وعلمه دعاء وهو هذا : « بسم الاله الخالق الاكبر وهو حرز مانع مما أخاف منه وأحذر — لاقدرة لخلق مع قدرة الخالق ، يلجمه بلجام قدرته ، أحمى حميئا أطمى طميئا وكان الله قويا عزيزا ، حم عسق حمايتنا كهيعص كفايتنا ، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » (٢) .

(١) الأبريز — ط القاهرة — ١٣١٧ — هـ — ص ١١٩/١١٨ .
(٢) هذا هو الحزب الصغير له رضى الله تعالى عنه لقنه لصاحب القصة بنفسه .

فقال له سيدى ابراهيم ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيء فقال لى صاحبنا التلمسانى وهو الحاج الابى التاجر الاظهر سيدى عبد الرحمن بن ابراهيم من أولاد ابراهيم القاطنين بتلمسان (١) : ان أخى الحاج محمد بن ابراهيم لما لم يعرف معنى هاتين الكلمتين وهما أحى حميئا وأطمى طميئا ، أمتنع من هذا الدعاء وقال : لا أدري ما معناهما ولعل أن يكون فيهما ما أكره ، فسألنى عن معنى الكلمتين . فسألت (٢) شيخنا (٣) رضى الله عنه عن معناهما ، فقال رضى الله عنه بديهة لا يتكلم أحد اليوم على وجه الارض بهاتين الكلمتين ، فمن أين لك بهما ؟!

فحكيت له الحكاية ، فقال رضى الله عنه : « نعم سيدى ابراهيم الدسوقي من أكابر الصالحين ومن أهل الفتح الكبير وهو وأمثاله الذين يتكلمون بهاتين الكلمتين » . ثم قال رضى الله تعالى عنه : هما كلمتان بلغة السريانية (٤) : أما أحى فمعناه يامالك الاسرار يامالك الانوار يامالك الليل والنهار يامالك الحساب المدرار ، يامالك الشمس والاقمار ، يامالك العطاء والنفع ، يامالك العطاء والمنع ، يامالك الخفض والرفع ، يامالك كل حى ، يامالك كل شيء ، وفى هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبدا .

وأما قوله أطمى فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة والكبرياء والقهر والغلبة والعز والانفراد فى ذلك كله وكأنه يقول : يا عالم كل شيء ، يا قادرا على كل

(١) بلدة شهيرة فى الجزائر وتقع ما بين جبال تلمسان جنوبا وجبال تاسالا شمالا وغرب سهول بلعباس الغنية ، وشرق الحدود المغربية الجزائرية .

(٢) السائل هو المؤلف الحافظ أحمد بن المبارك السلجاسى البكرى الصديقى (١٠٩٠ — ١١٥٥ هـ) .

(٣) شيخه هو الفوئد الشهير السيد عبد العزيز بن مسعود الدباغ الحسنى من أشهر شيوخ النصوف (١٠٩٥ — ١١٣١ هـ) توفى شابا ولكنه أتى بالمعجب بالعجاب .

(٤) السريانية هنا لا يقصد منها اللغة السريانية السائدة ولكن الصوفية يعنون بها لفظة الارواح وبها يتخاطب أهل الفتح الكبير والمعانى فى هذه اللغة تؤديها الحروف الهجائية لا العبارات ، فكل حرف هجائى له معناه واذا ضم الى حرف آخر كانا كعبارة مفيدة — ويرتقى المتكلم بها الى معانى الحروف الهجائية وأسرارها — ولفظة الحروف هى أصل جميع اللفظيات .

شيء يا مكون كل شيء ويا مدبر كل شيء ويا قاهر كل شيء ويا من لا يتطرق اليه
عجز ولا يتوهم في تصرفه نقص .

وطميثا اشارة الى الاشياء التي يتصرف فيها ، والى الممكنات التي يفعل
فيها ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه لا اله الا هو ، وفي هذا الاسم سر عجيب
لا يطيق القلم تبليغه أبدا والله أعلم .

ويستفاد أيضا من القصة جواز تلاوة الاوراد المشتعلة على الحروف
المقطعة ، وقد قرر الامام الزرقاني أنه لا خلاف في ذلك مادامت متواترة عن
استاذ اجمع الائمة على معرفته وعدالته ، ولا يعترض عليه معترض بجهل
معناها اذ الجهل ليس بحجة في القدرح ولو كان حجة لانغيثنا كل علم لا يصل
اليه الجاهل .

وآخر حزبه الكبير أسماء الدائرة الشاذلية وهي :

طهور ، بدعق ، محبيه ، صوره ، محبيه ، سقفاطيس ، سقاطيم ، آحون ،
قاف ، آدم ، حم ، هاء ، امين .

وقد ضبطها العارف الشهير السيد محمد القاوقجي أبو المحاسن صاحب
الطريقة القاوقجية (١) ، كما فسرهما ، ونذكر باختصار :

طهور : على وزن صبور ، ومعناه الكامل في ذاته المنور لصفاته .

بدعق : على وزن منظر ، ومعناه الذي كل شيء به .

محببه : وفي رواية أن الهاء الاخيرة ساكنة غير منونة ومعناه مبين الحكم
وصاحب المن .

صوره : وفي رواية صوره ، أي الذي لهيبته خضع كل جبار .

سقفاطيس : قال لم أر من تكلم على معناه ، وهو اسم للفتح على القلب من
الغيب .

(١) هو العارف الشهير محمد بن خليل بن ابراهيم القاوقجي الطرابلسي الشامي الشريف
الحسني ترك حوالي مائتي معنف توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٠٥ هـ — والاقتباس من كتابه
تحفة الملوك في السير والسلوك ط المطبعة القاوقجية سنة ١٣٤٩ هـ — ص ٢٦ : ٢٨ .

سقاطيم : وفى رواية بدلا من القاف فاء اسم من الاسماء الموصلة الى رتب
الكمال .

أحون ، قاف ، آدم ، حم ، هاء ، امين .

وهذه الاسماء ان صح أنها لم تضاف الى حزبه بعد وفاته فهي تقطع أنه رضى
الله تعالى عنه قد تلقن الطريق الشاذلى لأنها خاصة بهذا الطريق وفى دار
الكتب مخطوط يشتمل على حزب القطب الدسوقي ولا يعلم جامعه عنوانه « ورد
القطب الحقيقى سيدى ابراهيم الدسوقي الذى تلقاه عن خاله القطب الجامع
سيدى الشيخ أبى الحسن الشاذلى » ولا بقصد هنا خاله فى النسب ولكن
خاله فى الطريق .

ضبط الحروف والكلمات الواردة فى الحزب الكبير :

ضبط الشيخ حسن شمه الحروف الواردة فى الحزب هكذا :

(كـد ـ كـد ـ كـرد ـ كـرد ـ ده . ده) (بها . بهيا .
بهيا — بهيات — لمقنجل) .

ونقل الشيخ الابيارى (١) عن السمرقندى فى كنز المطالب قاعدة لضبط
الحروف المركبة الواردة فى أوراد العارفين فقال : « ان كان الاسم ثنائيا
فافتح أوله واكسر ثانيه مع التثنية . وان كان ثلاثيا فان كان بعد أوله حرف
من حروف العلة « أ — و — ي » فأوله مفتوح وثانيه ساكن وآخره مكسور
منون ، الخ . ونرى أن المسألة توقيفية لا تدخل تحت قاعدة معينة .

(١) انسان المقتلین ظهر الورقة ٢ .

مؤلفاته

للقطب الدسوقي مؤلفات فى الفقه والتصوف ، ونعتقد أنها من نوع
الإملاءات التى كانت تتم فى مجالس العلم ، وهى ما نسميه محاضرات ، لان
أسلوبها أسلوب الإملاءات لا أسلوب التأليف .

ومن كتبه :

١ - كتب فى الفقه .

٢ - الحقائق .

٣ - الرسالة .

٤ - الجوهرة .

وقد أشار اليها جميعا فى « لسان التعريف » ونذكر هنا النصوص التى
اشتملت على ذكر هذه الكتب لاهمية نسبتها الى القطب الدسوقي :

قال الجلال الكركى :

« وقد بدأ لاستاذنا كرامات (١) وبراہین خارقات ، وصنف فى التصوف
والفقه ، واستدل بأمور قطعية وأبدى أحوال المتقدمين والمتأخرين ووصف
أماكن بعيدة جدا حتى كأنه شاهدها عن يقين » .

فهذه الاشارة تضمنت أن له كتباً فى الفقه والتصوف .

وقال فى موضع آخر :

« وكما قال أستاذنا الدسوقي (٢) قدس الله روحه فى كتابه الجليل الفائق
الموسوم بالحقائق المشتمل على تصوف ورقائق ومواعظ وكرامات وحقائق » .

(١) و (٢) لسان التعريف — مخطوط — : ظهر الورقة ٣٨ وجه الورقة ١٢ على
التسالى .

وقد أشار اليه العلامة البقاعي في طبقاته (١) اذ قال : « ومن كلامه رضى الله عنه في كتابه المسمى برهان الحقائق » ، وذلك عند ترجمته للقطب الدسوقي .
وأشار الكركي في لسان التعريف في عدة مواضع الى كتاب الرسالة فقال :

« نهى الشيخ في رسالته عن أمور منها : القول بالمشاهدات قال : فان كل هذه نفوس وشهوات » (٢) .

وقال في موضع آخر : « كما أشار اليه أستاذنا في رسالته (٣) حيث قال :

الطرق شتى وطريق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد

ومن مؤلفاته كتاب الجوهرة وهو غير كتاب الحقائق ، بدليل أن الجلال الكركي قد أحال عليهما معا في قوله : « ولاستاذنا في الشرب وغيره بحقائقه وجوهرته اشارات رائعة » .

وكتاب الجوهرة مشهور ، وقد أشار اليه كل من أفرد القطب الدسوقي بالترجمة ووصفه بأنه كتاب ضخم .

وقد فانت هذه المؤلفات على دائرة المعارف الاسلامية (٤) التي لم تشر الا الى :

أ - مؤلف في فقه السادة الشافعية .

ب - مخطوط مودع بمكتبة ليدن مشتمل على مواظ وحكم ، ولعله كتاب الجوهرة المطبوع .

ج - قصيدة مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم ٧٩٦ .

والقصيدة هي تائيته المطولة .

ولم يزد بروكلمان (٥) فيما عده من مؤلفاته على هذا .

(١) طبقات الأبرار له - مخطوط - ظهر ق ١١٦ .
(٢) و (٣) لسان التعريف وجه ق ٣٩ / ووجه ق ٤١ على التوالي .
المعجمة الاسلامية - الترجمة العربية مادة (ابراهيم الدسوقي) .
(٤) و (٥) لسان التعريف - مخطوط - في المواضع الآتية على التوالي : ظهر ق ٢٨ / وجه ق ١٢ / وجه ق ٣٩ / وجه ق ٤١ .
Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur.

حقيقة كتاب الجوهرة المخطوط والمطبوع

هناك كتاب بعنوان « الجوهرة » ينسب الى القطب الدسوقي وقد تتبعنا نسخته الخطية والمطبوعة فوجدنا أن النسخ المطبوعة تعتمد على النسخ الخطية وتختلف اختلافا بسيطا تبعا لاختلاف الاصل المخطوط ، والنسخ الموجودة هي :

١ - نسخة خطية بدار الكتب العامة بالقاهرة ضمن مجموعة فى مجلد وترتيبها هو الثالث من بين مخطوطات المجموعة ، وذلك من الورقة ١٠٠ الى الورقة ١٧٦ ، ويرجع تاريخ نسخها الى سنة ١٢٩٠ هـ ، وتسمى أيضا كتاب فتوح الغيب •

٢ - نسخة خطية بالمكتبة الازهرية ترجع الى سنة ١١٠٩ هـ

٣ - نسخة مطبوعة متداولة فى المكتبات •

٤ - نسخة مطبوعة طبع حجر فى ١٩٩ صفحة وعنوانها « كتاب منير من كلام القطب الكبير من أعطى العلم الشرعى والحقيقى ، سيدى ابراهيم الدسوقي » وهو أقدم طبعة لكتاب الجوهرة المخطوط •

وبالبحث فى جميع النسخ مخطوطة ومطبوعة اتضح لنا :

أ - أنه لا تصح نسبة جميع ما فيه الى القطب الدسوقي لاشتماله على كثير من العبارات التى تنحط بكثير عن رتبة القطب الدسوقي العرفانية والعلمية والادبية بحيث لا يخفى وضعها على من درس أسلوب القطب الدسوقي ، ويجوز أن الذى نسخ الكتاب قد اقتبس عبارات من كتاب الجوهرة وخلطها بكلام عالم صوفى عاش فى القرن العاشر هو ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي ٨٣٣ - ٩١٩ هـ • ويؤيد ذلك أن النسخ الخطية لكتاب الجوهرة الموجود بين أيدينا يرجع تاريخها الى ما بعد القرن العاشر •

ب - فى المصادر التاريخية التى وصلتنا أن كتاب الجوهرة كتاب ضخيم ولا يعقل أن يقال على مخطوط عدد أوراقه ٦ ٧ ورقه أنه ضخيم ، وخصوصا اذا كان الذى وصفه بالضخامة مؤلف من كبار المؤلفين المشهورين مثل الامام الشعرانى أو الامام المناوى •

لذا قررنا أن نعرض فى الباب التالى مختارات من أقواله رضى الله تعالى عنه انتخبناها من المصادر المخطوطة والمطبوعة الموثوق بها : فمن المصادر المخطوطة :

لسان التعريف للجلال الكركى ، والطبقات الوسطى « لواقع الانوار القدسية » للامام الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٢ هـ ، وفضلنا النقل منها على الطبقات الكبرى لتحصل الفائدة بالجمع بينهما ، لان الحصول على الطبقات الكبرى ميسور لانها مطبوعة ، والكواكب الدرية للمناوى وطبقات الابرار للبقاعى ، وقد أشار هؤلاء الى أنهم أطلعوا على النسخة الاصلية من كتاب الجوهرة أو غيره من مؤلفات القطب الدسوقي .

ومن المصادر المطبوعة : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ، الجزء الخامس ط القاهرة سنة ١٣٥١ هـ ، ومسرة العينين بشرح حزب أبى العينين للشيخ حسن شمه الفوى المتوفى سنة ١١٧٧ هـ .

وتعليقات مثل حاشية الامام الصاوى المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ على الخريدة للامام الدردير ، وشرحه للصلوات الدرديرية وغيرها .

وقد وزعنا المختارات على موضوعاتها بحيث تعطى صورة واضحة جلية للمنهج الصوفى للطريقة البرهامية التى تعتبر من أشهر المدارس الصوفية فى القرن السابع للهجرة ، وقد اعترف باهميتها حتى الكتاب الاجانب (١) الذين أرخوا للمدارس الصوفية فقرروا أنها من أعظم المدارس الصوفية فى العالم الاسلامى .

Le Chatelier; Les Confreries Musulmanes du Hedjas paris 1887. (١)
P. 190.

البَابُ الْخَامِسُ

مختارات من أقواله تبين منهجه الصوفي

حقيقة التصوف

عالج بعض الباحثين موضوعات التصوف كما يعالجوا الفلسفات العقلية والنظرية التي تبحث في طبيعة الوجود بقصد الوصول الى نظرية عامة خالية من التناقض عن حقيقة الكون او اى جزء من اجزائه ، وقد اداهم ذلك الى التكلف فى رد الافكار الصوفية ومناهج التصوف الى الفلسفات اليونانية او الهندية او الفارسية . . الخ . ثم تكلفوا بصورة أشد حينما حاولوا بيان كيفية وصول هذه الفلسفات الى أئمة الصوفية .

وفات هؤلاء ان التصوف علم عربى صميم شأنه شأن الفقه الاسلامى ، فهو قائم على الكتاب والسنة ، بل ان الصوفية انفسهم يطردون من بينهم كل من يخلط الفلسفة بالتصوف لانها لا تمت اليه بأية صلة .

« فالتصوف فى صميمه تجربة روحية وانه شىء مختلف تمام الاختلاف عن العلم وعن الفلسفة ، فاذا كان للصوفى فلسفة فهي تأييد لمشاهداته الصوفية » (١) .

فالفلسفة والتصوف طريقان لمعرفة الوجود المطلق او الوجود الحق يختلفان اختلافا تاما فى المنهج .

فالفلسفة انطلقت لتدرك اللامتناهى بأدوات لا تعرف الا المقيد المتناهى ، وطبقت مقولات هذا العالم على عالم لا يخضع لهذه المقولات .

« ان الفلسفة ان علمتك شيئا فقد علمتك نهاية الشوط الذى تستطيع ان تجرى فيه فى ميدان العقل ، ولكنها لا تخبرك بشىء عن الميادين الاخرى التى فى استطاعتك ان تجرى فيها » (٢) .

اما التصوف فقد انطلق لمشاهدة اسرار الوجود واكتناه الحق بالحق عن طريق التجربة الروحية التى تستضىء بانوار شمس الوحي القرآنى، فنجح فيما لم يستطع غيره أن يتقدم فيه ، وذاق ما لم يذقه سواه ، ووصل الى ميادين

(١) و (٢) د: أبو العلا عفيفي : التصوف والثورة الروحية فى الاسلام ص ١٥ ، ١٧ على التوالى .

لا يمكن ان يرتادها الا حفظة الوحي العاملين به المتمسكين بآثار امام الهداة
صلوات الله وسلامه عليه .

واراد البعض ان يصل الى مفهوم التصوف عن طريق تتبع تعاريفه وظن انه
ادرك بغيته، وفات هؤلاء ان التعاريف التى وضعها ائمة الصوفية لايقصد
منها حد التصوف ، ولكنهم قصدوا منها تصوير جانب من جوانبه ، هو الجانب
الغالب على من وضع التعريف فى هذه اللحظة والمناسب للسائل ، ولذا اختلفت
اجاباتهم بحسب الحال وبحسب المقام وبحسب السائل ، والذى يلاحظ هذا
المعنى يتحاشى الوقوع فى خطأ اختيار تعريف دون سواه ، وينظر الى جميع
التعارف الصادرة بشأن التصوف عن أئمة ، نظرة تكشف عن جوانب من
التصوف يكمل بعضها بعضا ، وقد يكون بعضها مجهولا لدى الباحث .

ونسرد هنا بعض التعاريف التى وردت عن كبار ائمة التصوف لا لتحديد
معناه : فمعناه معروف مفهوم لا يخفى على اى مبتدىء فى العلوم، ولكن لنعلم
ان الطريقة البرهامية ان هى الا امتداد لهذه التعاريف :

• معروف بن فيروز الكرخى ت ٢٠٠ هـ :

التصوف الاخذ بالحقائق والياس مما فى ايدى الخلائق .

• محمد بن على القصاب ، وهو من اساتذة الامام الجنيد :

سئل عن التصوف ما هو ؟ فقال : اخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من

رجل كريم على قوم كرام .

• عمرو بن عثمان المكى ت ٢٩١ هـ :

التصوف هو ان يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو اولى به فى الوقت

• ابو الحسين بن محمد التورى ت ٢٩٥ هـ :

١ — التصوف ترك كل حظ للنفس .

٢ — ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق ، لانه لو كان رسما لحصل

بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله .

• ابو القاسم الجنيد : ٢٩٧ هـ :

١ — التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الاخلاق الطبيعية ،

واخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو اولى على الابدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشريعة .

وقد نسب الامام الشعرانى هذا التعريف للامام محمد بن خفيف الضبى المتوفى سنة ٣٧١ هـ ، ولعل الاخير اقتبسه من الامام الجنيد لانه اسبق منه .

٢ - هو الكون مع الله بلا علاقة .

٣ - هو ان يملك الحق عنك ويحييك به .

٤ - هو ذكر مع اجتماع ووجود مع استماع وعمل مع اتباع . وهذا التعريف نسب الى ابي بكر بن هوار البطائشى ، والواقع انه اختاره من كلام الجنيد .

٥ - التصوف هو حفظ الاوقات .

قال صاحب التعرف فى شرح معناه : « هو الا يطالع العبد غير حده ، ولا يوافق غير ربه ، ولا يقارن غير وقته » (١) .

• على بن عبد الرحيم القناد :

• هو نشر مقام واتصال بدوام (٢) .

وقد اسند الكلاباذى هذا التعريف الى النورى فقال : هو « نشر مقام واتصال بقوام » والاول اصح .

• سمنون بن حمزة الخواص ت حوالى ٢٩٧ هـ :

• الا تملك شيئا ولا يملكك شيء .

• رويم بن احمد ت ٣٠٣ هـ :

• هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

(١) الكلاباذى : التعرف ص ٩١ .

(٢) السراج : اللمع ص ٤٥ .

وشأبهه في هذا ابن عطاءت ٣٦٩ هـ ، فقال حين سئل عن معناه :

• التصوف هو الاسترسال مع الحق » .

• احمد بن محمد الجريري ت ٣١١ هـ :

هو الدخول في كل خلق سني والخروج عن كل خلق دني .

• ابو علي الروذبادي ت ٢٢٢ هـ :

التصوف الاناخة على باب الحق وان طردوه .

يعني العكوف الدائم على باب الحق .

• دلف بن جحدر الشبلي ت ٣٣٤ هـ :

١ - التصوف ضبط حواسك ومراعاة انفاسك .

٢ - هو الجلوس مع الله بلا هم .

فلا يشغله شيء عن مولاه .

• الامام الغزالي ت ٥٠٥ هـ ،

هو تجريد القلب لله واحتقار ما سواه ، وحاصله يرجع الى عمل القلب

والجوارح .

• بقاء بن بطوق ٦ هـ :

الفقر (يعني التصوف) تجرد القلب عن العلائق واستقلاله بالله سبحانه

وتعالى وحده .

• ابو سعيد علي القيلوي ت ٥٥٧ هـ :

التصوف القبري مما دون الحق كما قال ابراهيم عليه الصلاة

والسلام « فانهم عدو لي الا رب العالمين » .

• ابو مدين شعيب التلمساني ت ٥٩٤ هـ :

حقيقة الفقر الا تشاهد سواه .

• الشيخ الاكبر الامام محيي الدين بن العربي ت ٦٣٨ هـ :

التصوف خلق : فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . والخلق

المراد هو الخلق القرآني .

• امام الشاذلية ابو الحسن الشاذلي ت ٦٥٦ هـ :

التصوف تدريب النفس على العبودية وردها الى احكام الربوبية .
• السيد الشريف :

التصوف هو الوقوف مع الاداب الشرعية ظاهرا فيسرى حكمها من الظاهر
فى الباطن ، وباطنا فيسرى حكمها من الباطن فى الظاهر فيحصل للمتأدب
بالحكيمين كمال .

• الامام المنجورى :

قال فى شرحه لمنظومة ابن زكوان عند قول الناظم :

علم به تصفية البواطن من كدورات النفس فى المواطن

التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس اى عيوبها
وصفاتها المذمومة : كالغل والحقد والحسد والغش وطلب العلا - يعنى بقصد
الاستعلاء على الناس - وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والانفة والطمع
والبخل وتعظيم الاغنياء والاستهانة بالفقراء ، لان علم التصوف يطلع على
العيب والعلاج وكيفيته ، فبعلم التصوف يتوصل الى قطع عقبات النفس
والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى ينوصل بذلك الى نخلية
القلب عن غير الله وتحليته بذكره سبحانه وتعالى .

• الشيخ قاسم الخانى :

هو الوقوف مع الاداب الشرعية ظاهرا وباطنا .

• الامام العربى الدرقاوى ت ١٢٣٩ هـ :

التصوف فيما نرى والله اعلم : حفظ شرائع الدين وسلب الارادة لله رب

العالمين ، وحسن الخلق مع المسلمين .

• السيد محمد عيد الشافعى (١) :

التصوف هو الخلق والاخذ بالعزيمة فى دين الله تعالى مع الاقبال عليه بكنه

الهمة ، وتجريد القصد الا منه ، وله ، بحيث لا يريد العبد من مولاه غير

مولاه .

(١) العارف المعاصر صاحب المؤلفات ومؤسس الطريقة الخلوتية الحمديدية : والاقتباس من
كتابه : مكانة التصوف والصوفية فى الاسلام ص ١٢٣ .

وقد فصل ابراهيم بن المولد مائة تعريف فى بيان معنى التصوف وابن المولد
من اقران ابن الجلاء و ابراهيم بن داود القصار الرقى .

• قال الامام احمد زروق :

قد حدد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ الالفين وترجع كلها لصدق
التوجه الى الله تعالى ، وانما هى وجوه فيه والله تعالى اعلم « وجملة الاقوال
واقعة على تفاضل واعتبار كل واحد على حسب ما قاله علما وعملا وحالا
وذوقا وغير ذلك » .

ولو اردنا حدا جامعاً للتصوف لاخترنا هذا :

« هو العمل بالشريعة المحمدية والتأدب بآدابها على يد مرب اكتملت فيه
شروط التربية التى نص عليها العارفون بالله عز وجل » .

وكل تعريف مندرج تحت هذا .

فالتصوف ليس بزى ولا بمظهر ، وانما هو تحقق بآداب الشريعة فى جميع
شئون الحياة ، ولكن الجهلة ربطوا بين الزى وبين التصوف وبين حركات
الجسم وبين الاوراد ، وبين الاوراد وبين حقيقة الشريعة والعمل بها . فالتبس
عليهم الامر واختلط ، خصوصا وانهم فى مستوى الذى لا يمكنه ان يفرق بين
اتباع الشيطان وبين اولياء الرحمن ، بل قد يفضل سوادهم الاول على الثانى :
لان الاول يعنى بالمظاهر التى يكتسب بها القلوب ، ولان الثانى لا يخشى فى
الحق لومة لائم ، ولان الاول رسم خطة خبيثة لاستغلال الناس باسم التقوى
ومظاهرها ، ولان الثانى يأمرهم بما لا تهواه انفسهم ، والنفوس اذا انحرفت ثقل
عليها الحق واتباعه ، وطاب لها الشيطان واتباعه .

والعاقل لا يزن الناس بملابس ولا بمظاهر ، فكم من منافق بز الصالحين فى
مظهره ! وكم من منافق عليم اللسان ! وكم من مدع للاصلاح وهو يتلمس كل
الحيل ليضل الناس عن سبيل الله تعالى .

وقد حارب القطب الدسوقي هذا الخلط وذاك اللبس ، واعلن الفرق الشاسع
بين التظاهر بالتصوف وبين التصوف ، بين الادعاء وبين الحقيقة ، بين الغش
وبين الصدق فيقول :

« ليس التصوف لبس الصوف ، إنما الصوف من بعض شعار التصوف ، فان دقيق التصوف ، ورقيق صفاته ، ورونق بهجة ترقيه لا تحصل الا بالتدريج ، فاذا وصل الصوفى الى حقيقة التصوف المعنوى ، لا يرضى بلبس ما خشن لانه وصل الى مقامات اللطافة وخرج عن مقامات الرعونة وعاد ظاهره الحسى فى باطنه الالهى ، واجتمع بعد فرقة ، وقذف فيه جذوة نار الاحتراق ، فعاد الماء يحرقه ، والثلج والبرد يقوى ضرامة » .

فالمظاهر لا علاقة لها بالتصوف « لا تفكروا على المشايخ لبس الصوف الرقيق فانهم وصلوا الى مقام اللطافة وخرجوا عن الكثافة حتى ان بعضهم لشدة لطافته لا يقدر على لبس قميص رقيق .. بخلاف المريد فى بدايته : يلبس الخشن لتتأدب نفسه وتخضع لربها ، فكلما رق الحجاب ثقلت الثياب » .

فالصوفى اذا لبس الرقيق او لبس الخشن انما هو فى جميع شئونه لا يقبل الا ما يعينه على سلوك الصراط المستقيم وعدم الانحراف عنه ، فالملبس قد يعاقب عليه المرء : اذا قصد منه مباهاة الناس والتعالى عليهم ، واطهارهم بمظهر الفقير الحقير بالنسبة اليه ، فهو لا يشكر الله تعالى على نعمته بل يفتتن ويفتن غيره ، وينقطع عن الله تعالى ويقطع غيره ، فهو فائن مفتون ، ضال مضل وامثال هؤلاء :

مكسبهم حرام ، ومطعمهم حرام ، ومشربهم حرام ، ولولا الحرام ما قست قلوبهم وغلظت اكبادهم وتبلدت مشاعرهم حتى فقدوا الاحساس بما يصل على ايديهم الى غيرهم من شر واذى ، ولو وجهت اليهم ما وجهت من مواعظ لما وجدت الى قلوبهم سبيلا ، نفوسهم لا تتقن غير سبيل الغى والضلالة للملاصقة لطباعهم المحتجبة عن انوار الحق الباهرة .

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا

وان هى سلكت سبل المكارم ضلت

والتصوف كله يدور على الاخلاص لله عز وجل فى جميع الاعمال طبقا لما جاءت به الشريعة المكرمة .

يقول القطب الدسوقي من نصائحه وتوجيهاته لمريديه : ؟ يا ولدى البس

قميص الفقر النظيف الظريف : فما الامر بلبس الثياب ولا بسكنى القباب ولا بلبس الصوف : انما الفقر أن تخلص عملك بقلبك » .

ولما ان لفظ الفقر يرد كثيرا فى استعمالاته ، يحسن ان نبين معنى هذا الاصطلاح كيلا يلتبس الامر فيفهم منه معنى غير المعنى المقصود .

بين الامام الغزالى فى الاحياء معنى الفقر : فذكر انه عبارة عن عدم ما هو محتاج اليه ، فكل موجود سوى الله تعالى من هذه الحيثية فقير اليه عز وجل ، لانه محتاج اليه سبحانه فى دوام وجوده ، والغنى المطلق من كان وجوده غير مستفاد له من غيره ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود الا واحدا ، فليس فى الوجود الا غنى واحد مطلق وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام ، والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى : « والله الغنى وانتم الفقراء » (١) « يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » (٢) .

هذا هو معنى الفقر مطلقا .

وفى اصطلاح القوم يراد به ما يراد بالتصوف .

قال احمد بن يحيى بن الجلاء (٣) :

« الفقر الا يكون لك فاذا كان لك لا يكون لك على معنى قوله

تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٤) :

ومعناه : اذا لم يكن لنفسه فهو لله ، واذا كان لنفسه فليس لله .

وقال الامام أبو اسماعيل الهروى الحنبلى (٥) عند كلامه على منزلة

الفقر (٦) :

« الفقر اسم للبراءة من الملكة وهو على ثلاث درجات : الدرجة الاولى : فقر

(١) من الآية ٣٨ سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) من الآية ١٥ سورة فاطر .

(٣) من أسانذة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ومن حكمه (من علت همته على الاكوان وصل الى مكنها . ومن وقف نفسه على شئ سوى الحق تعالى فاته الحق لانه اعز من أن يرضى معه شريكا) .

(٤) من الآية — ٩ سورة الحشر . والنص المنسوب الى ابن الجلاء مقتبس من كتاب التعرف ص ٩٥ .

(٥) هو الامام عبد الله بن محمد بن على الهروى الحنبلى ت ٤٨١ هـ .

(٦) فى كتابه : منازل المسائرين .

الزهاد ، وهو قبض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلباً ، واسكات اللسان عنها مدحاً أو ذمماً ، والسلامة منها طلباً أو تركاً .

وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه .

« الدرجة الثانية : الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الاعمال ، ويقطع شهود الاحوال ، ويمحص من ادناس مطالعة المقامات .

« الدرجة الثالثة : الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوجدانى أو الاحتباس فى بيداء قيد التجريد ، وهذا فقر الصوفية » .

قال ابن القيم (١) فى شرحه لهذه العبارة :

« عدل الشيخ عن لفظ « عدم الملكة » الى قوله « البراءة من الملكة » لان عدم الملكة ثابت فى نفس الامر لكل أحد سوى الله تعالى ، فالله سبحانه هو المالك حقيقة ، فعدم الملكة امر ثابت لكل ما سواه لذاته ، والكلام فى الفقر الذى يمدح به صاحبه هو فقرا الاختيار وهو اخص من مطلق الفقر ، وهو براءة العبد من دعوى الملك بحيث لا ينازع ماله الحق » (٢) .

والواقع أن تعبير عدم الملكة لا يثبت الفقر بمعنى عدم منازعة الحق ، اذ قد يكون الانسان معدماً ولكنه متشبث بالاشياء أكثر من تشبث الفنى بها ، و « البراءة من الملكة » أعم وأصح لانه تعبير يشمل الغنى والفقير ، فأنغنى اذا ما تبرأ عن ملكية الاشياء دون الحق عز وجل ، فهو فقير الى الله تعالى باطناً ، وهو فى تصرفه فى الاشياء انما يتصرف طبقاً لما أمره الحق عز وجل به ونهاه عنه .

اما الفقر الثابت لانعدام الملكة فقد يتحول الى بطل واستعلاء وجبروت اذا ما وجد صاحبه ما يعينه على تحقيق أهوائه .

لما كانت النفس اصالة ملكاً لله عز وجل ، فمن لم يخرج عنها ويسلمها

(١) الامام شمس الدين محمد بن أبى بكر الشهرستانى قديم الجوزية (٦٩١ — ٧٥١ هـ) .
(٢) مدارج السالكين لابن القيم وهو شرحه لكتاب منازل السائرين — راجع ج : ٢ — ص ٤٣٨ وما بعدها — ط القاهرة ١٩٥٦ .

لمالكها الحق سبحانه لم يثبت له فى الفقر قدم ، فلذلك كان أول قدم فى الفقر هو الخروج عن النفس وتسليمها لمالكها ومولاها ، فلا تخرجوا عن طلب مرضاته فى شيء ولا تطلب سخطه فى شيء .

فمراد القوم بالفقر : هو تحقيق العبودية والافتقار الى الله تعالى فى كل حالة ، ودوام (١) الاضطرار اليه وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية .

ولذا أجاب رويم حينما سئل عن الفقر فقال ، هو ارسال النفس فى أحكام الله .

قال العارف بقاء بن بطوق ٦ هـ :

« الفقر تجرد القلب عن العلائق واستقلاله بالله سبحانه وتعالى وحده . والتخلّى عن الاملاك أحد أوصاف الفقر ، لأنها شواغل وقواطع لكل عبد سكن بقلبه اليها ، وعلامة صحة التجرد عن الاملاك ألا يتغير عليه الحال بوجود الاسباب وعدمها لا فى القوة ولا فى الضعف ولا فى السكون ولا فى الانزعاج ، ولا تؤثر فيه المهالك . فإذا كان كذلك فهو فقير ، لا يأسره رق الاسباب ، ولا يهزه وجودها ، ولا يستفزه عدمها : فإن ملك فكان لم يملك ، وإن لم يملك فكان قد ملك ، فلا يرى لنفسه فى الدنيا والاخرة مقاما ولا قدرا ، وكما لا يرى ذلك لا يطلبه ، وكما لا يطلب لا يتمنى ، فهو مشغول به واقف بلا طمع ، » .

واختار امام فتح الله البنائى أقوالا فى تعريف الفقر عند القوم منها .

« الفقر فى اصطلاح الصوفية رضى الله تعالى عنهم ، هو التجرد بالقلب عن الميل الى الدنيا ، وإن لابسها ظاهرا وهو من أكبر أسباب الوصول الى الحق تعالى لبعد صاحبه عن الشواغل والقواطع . ويقال هو التجرد عن النظر الى الاعمال والاحوال والمقامات والخروج عن ذكرها وفكرها اشتغالا بالله سبحانه لكمال الافتقار اليه ودوام الاقبال عليه » (٢) .

فلفظ الفقير مرادف للصوفى .

(١) ومن تحقق بهذا الاضطرار كان مجاب الدعوة .

« أمن بحيب المضطر اذا دعاه » .

(٢) الامام فتح الله البنائى : عقد الدر واللال — ص ٥ ط — ١٣٢٠ هـ .

قال أبو نصر السراج : « وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء » (١) .
وقال الكلاباذي : « ومن تخليهم — أى الصوفية — عن الاملاك سموا
فقراء » (٢) .

والا تم أن يقول من تبريهم لأن هذا لا يمنع أن يكون للصوفى ملكية لكن قلده
غير متعلق بها أما لفظ التخلي فيوهم أن التجرد عن الملكية شرط عندهم .
وأجوبتهم عن معنى الفقير الصادق تدل على أنه مرادف للصوفى وهاك
بعضها ،

● ذو النون المصرى ت ٢٤٥ هـ :
هو الذى لا يسكن الى شيء واليه يسكن كل شيء .
● أبو حفص النيسابورى ت ٢٧٠ هـ :
الذى يكون مع كل وقت بحكمه ، فاذا ورد عليه وارد يخرج عن حكم وقته
يستوحش منه .

● أبو الحسين النورى ت ٢٩٥ هـ ،
هو الذى لا يتهم الله تعالى فى الاسباب ويسكن اليه فى كل حال .
● سمنون الخواص ت ٣٠٠ هـ :
هو الذى يأنس بالمفقود كما يأنس الجاهل بالموجود ، ويستوحش بالموجود
كما يستوحش الجاهل بالمفقود .

● الحلاج ت ٣٠٩ هـ :
هو الذى لا يختار بصحبة الرضا ما يرد عليه من الاسباب .
● يوسف بن الحسين الرازى ت ٣٣٤ هـ :
هو من أثر وقته ، فان كان فيه تطلع الى وقت ثان لم يستحق اسم الفقر .
قال أبو سعيد القيلوى ت ٥٥٧ هـ :

ومن شرط الفقير ألا يملك شيئا ولا يملكه شيء وأن يصفو قلبه من كل دنس،
ويسلم صدره لكل أحد وتسمح نفسه بالبذل والايتار .

(١) اللمع ص ٤٦ .
(٢) السعرف ص ٢٢ .

ويعنى بقوله : لا يملك شيئاً ، عدم التمسك بشيء تمسكاً يخرج عن آداب
الفقراء .

ويقول معاصره بقاء بن ق :

ولا يكون العبد صادقاً فى فقره حتى يخرج عن فقره بانتفاء شهود الفقر .

ويقول الامام أبو مدين شعيب القلمسانى ت ٥٩٤ هـ :

من كان الاخذ أحب اليه من الاعطاء فمنايشم للفقر رائحة ، ويقول كل فقير
لا يعرف زيادته ونقصه فى كل نفس فليس بفقير ، ويقول : نسيان
الحق طرفه عين خيانة .

قال أبو حفص النيسابورى :

أحسن ما يتوسل به العبد الى الله دوام الافتقار اليه فى جميع الاحوال
وملازمة السنة فى جميع الافعال ، وطلب القوت من وجه الحلال .

وقال سراج الحرم : محمد بن على الكتانى ت ٣٢٢ هـ :

إذا صح الافتقار الى الله صح الغنى بالله .

فالفقر بهذا المعنى هو عين الغنى بالله عز وجل ، قال ابن القيم : « وهذا
الفقر لا تنافيه الاملاك والكثرة والسعة اذ مداره على شهود الانسان افتقاره
الذاتى لله عز وجل » واستشهد بهذا البيت لابن تيمية :

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتى

ومن هنا لاتصح المفاضلة بين فقير صابر وغنى شاكر ، اذ التفاضل محله
الايمان والتقوى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

قال أبو عبد الله المغربى ت ٢٧٩ هـ :

الفقير الصادق هو الذى يملك كل شيء ولا يملكه شيء ، فمهما ملك من
الاحوال والمقامات والاعراض لا يسكن اليها ولا يتعلق بها ، أما الذى تملكه
الاشياء فيصبح عبداً لها فليس بفقير ولو كان معدماً .

فالحرية من العبودية للاشياء شرط فى صحة الفقر ، ولو تحقق الناس بهذا
المقام لما سفكت الدماء ودمرت البلاد وقطعت الارحام وعامل الناس بعضهم

بعضاً معاملة الوحوش الضارية في سبيل اكتناز قدر أكبر من الذهب والفضة ،
ولحل محل ذلك : الحب والوفاء والتعاون الصادق بين الشعوب •

ولما أن التصوف لا تقطع منازلها إلا بالقلوب فقد كثرت فيه الدخلاء والادعاء
واختلط الحابل بالنابل ، واستغله الأديباء كعادتهم لكسب الدنيا •

وقد ظهرت هذه الحالة مع تدهور الأخلاق والابتعاد التدريجي عن تعاليم
الشريعة ، ولذا نجد أن القطب الدسوقي يحذر الناس من أمثال هؤلاء ويدق
ناقوس الخطر في القرن السابع الهجري ويحذر مريديه من الاقتداء بهم ،
فيقول ،

« ليس كل من تزيا بزى القوم يكون منهم في الباطن فإياكم أن تقنعوا
بالظواهر دون البواطن ، فإن القوم إنما ترقوا بالأعمال الجوانية وما رأينا
أحدا لبس له جبة وأرخص له عذبة وجلس على سجادة فبلغ بذلك مبلغ الرجال !
بل يقف عن السير أو يرجع من حيث جاء ؟ (١) »

والأعمال الجوانية هي أعمال الباطن أو بعبارة أوضح الأعمال الصادرة
عن القوة النفسية التي لا يدركها الحس ، فالطبع يغلب التطبع ، وكل مدع مآله
الانكشاف عند الامتحان ، والاستاذية ليست بشهادة ولا بإجازة ، ولكن
الاستاذية في الطريق عمل وإخلاص لله سبحانه وتعالى ، فالإسلام عند
الصوفية عمل دائم متجه في كل لحظة نحو الكمال المطلق ، والمؤمن الحق يسير
بقوة الإيمان بالله تعالى ، ويستضيء بهدى الحبيب الأعظم صلوات الله
وسلامه عليه ويستمد علومه من الفيض المتدفق من كلام الله عز وجل ، وهو
حرب لا هوادة فيها على النقص المطلق المتمثل في الاحتجاب بالأكوان عن
المكون •

أما هؤلاء الذين يحولون الإسلام إلى مفاهيم نظرية يأخذون منها ما وافق
هواهم ، وهؤلاء الذين يدعون الإسلام ولا يعملون بحرف منه ، هؤلاء هم أشد
على الإسلام من كل عدو ، لأنهم ينتمون إلى هذا الدين العظيم وكل أفعالهم
تناقض تعاليمه ، يدعون أنهم يتمسكون بالشريعة ، ويبارزون الله تعالى عند كل

(١) الطبقات الوسطى ١١٠/ب •

أمر أو نهى : « قالت الاعراب آمنا : قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنا : ولما بدخل الايمان فى قلوبكم ، وأن تطيعوا الله ورسوله لايئتنكم من أعمالكم شيئاً ان الله غفور رحيم — ١٤ — انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون — ١٥ — قل اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، والله بكل شئ عليم — ١٦ — يمتنون عليك أن أسلموا ، قل لا تموتوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين — ١٧ — » ، سورة الحجرات .

فكم من مدع للاسلام لو بحثنا فيه عن شعبة من شعب الايمان لما وجدنا فيه شعبة منها : والايمان بضع وسبعون شعبة ، وكم من مدع للاسلام وهوىء الى الاسلام اساءة يترفع عنها أعداء الاسلام .

فالشريعة هداية كلها ، نور كلها ، رحمة كلها ، والعيب فيمن يدعى الاسلام والاسلام منه براء .

ويدعو القطب الدسوقي الى اقامة شعائر الاسلام والتحقيق بأدابه فيقول ، ؟ اذا حقق الرجل اسلامه وأتقن ايمانه فقد فاز باليقين لان المقر بالشهادتين بلا اتيان فروض الدين فهو مسكين . فاذا أتى بالاسلام والشريعة المطهرة بالايمان وأداء الفرائض المفروضات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والحلال وضبط الدين فى الاعمال والافعال والاقوال ، كان هو المسلم المؤمن ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » . فان الله تعالى قد حرم الهمز واللمز والغمز ، والتنازع والغيبة والنميمة والكفر والفسوق والعصيان ، (١) .

ويقول فى حقيقة الصلاة : ليس كل من ركع وسجد فقد صلى ، والمصلى هو الذى يأتى الصلاة على « هيئتها وفروضها وتسبيحها وركوعها وسجودها وتشهدها وتكبيرها وتحليلها وتحريمها ووقارها وأدائها وخشوعها وخضوعها وحضورها ، فان من حافظ على ذلك وجمع صلى حتى يعلم صلاته كيف تقع ، وتعقل ذلك ووعى وطهر الاعضاء جميعها من الحرام وغيره لا سيما القلب والامعاء ، ومن نكاح الحرام ، ولبس الحرام ، وأكل الحرام وشرب

(١) و (٢) من الجوهرة ص ٧٧/٧٦ و ٧٨ على التوالى .

الحرام ونظر الحرام وسماع الحرام والجلوس الحرام وشرب الحرام والسعى الحرام والكلام الحرام ومن كل ما حرمه الشرع ثم صلى وأعطى فى صلاته كل عضو حقه وتلذذ بخدمة الله تعالى ، يحصل له من ذلك زيادة عظيمة وبركة جزيلة جسيمة .

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أحدكم ليصلى الصلاة وانها لا تزن عند الله جناح بعوضة : وان أحدكم ليصلى الصلاة وانها تكتب له كجبل أحد » .

ويؤكد فى وصاياه التمسك بالشرعية، ويأمر بأقامة موازينها عند كل أمر، فما وافقها فهو خير وما خالفها فهو شر .

حتى العلوم : فكل علم يقرب الى الله تعالى فهو خير ، وكل علم يحجب عن الله تعالى فهو شر « فالعلم المشروع هو كل خير مودوع تكون منه نتائج الحقائق ودقائق الرقائق وتنوير المسالك والطرائق » (١) .

فالشرعية أصل كل علم يقرب العالمين الى الله عز وجل ، وكل حقيقة خالدة دائمة انما يرجع أصلها الى الشرعية « فاسلك المناهج السديدة والشرعية القويمة السديدة البهية الساطعة اللامعة التى من عمل بها كان عمله مضمونا ، فان من سلكها واتبع أمرها نجا ، فان الله أمركم أن تطيعوا ولا تعصوا ، وان تستقيموا ولا تلهوا ، قال الله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب » (٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى ، لا يتقرب المقربون الى بأحب من أداء الفرائض : ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، اذا دعانى أجبتة واذا سألنى أعطيته ، وفى خبر آخر فبى يسمع وبى ينطق » (٣) .

(١) من الجوهرة — ص : ٧٧ .

(٢) من الآية — ٧ — سورة الحشر .

(٣) للحديث القدسى عدة طرق نذكر منها ما خرجه البخارى بإسناده (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدي بشيء أحب الى مما افترضت عليه . وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وان سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيننه) الحديث وراه الامام احمد والحكيم الترمذى ابو يعلى والطبرانى وابو نعيم وابن عساكر بالفاظ آخر .

الشريعة والحقيقة

وظن الهواة من الباحثين والمستشرقين أن الصوفية يفرقون بين الشريعة والحقيقة ، وأيدوا ظنهم بما وصلهم من التعاريف التي وردت بشأن معنى التصوف، وقال قولتهم كل من أراد أن يلج التصوف من الباب الخلفى، وكل متسلل الى صفوف الصوفية ليستمر ما شاء أن يروجه من زور وهذيان وبهتان وتضليل بدعوى أن هنالك علماء للحقيقة وعلماء للشريعة ، وهم يريدون أن يتوصلوا من هذه البداية الى اباحة ما شاءوا من أفكار وآراء سواء وافقت الشريعة أم خالفها والمهم أنها تتفق وتنطبق على أغراضهم وأهوائهم .

والواقع أن جميع أئمة الصوفية وكل من عرف التصوف الحق ، يؤكدون أن مبنى الطريق كله ومداه على العمل بالشريعة ، وها هي بعض أقوالهم :

● أبو سليمان الداراني ت ٢١٥ هـ :

ربما تقع في قلبى النكنة من نكت القوم فلا أقبلها الا بشاهدين عدلين :
الكتاب والسنة .

● أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري ت ٢٣٠ هـ ،

من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطل عمله .

● ذو النون المصري ت ٢٤٥ هـ :

من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته .

● أبو يزيد البسطامي ت ٢٦١ هـ :

لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة .

● سهل بن عبد الله التستري ت ٢٨٣ هـ :

أصولنا سبعة أشياء التمسك بكتاب الله والاقتراء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل الحلال وكف الاذى واجتناب المعاصي والتوبة وأداء الحقوق ، قلت : ومرجعها جميعا الاعتصام بالكتاب والسنة .

● أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي ت ٢٨٩ هـ :

وكان الامام أحمد بن حنبل اذا جرى في مجلسه من كلام القوم يقول له ما تقول في هذا يا صوفي ؟

من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأقوله وأفعاله .

● أبو الحسين النوري ت ٢٩٥ هـ ،

من رأيت يدعى مع الله حالة تخرج عند حد العلم الشرعي فلا تقرب من هذه .

● أبو القاسم الجنيد ت ٢٩٧ هـ :

الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● أبو عثمان النيسابوري ت ٢٩٨ هـ :

من أمر السنة على نفسه قولا وفعلنا نطق بالحكم ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلنا نطق بالبدعة قال الله تعالى : « وان تطيعوه تهتدوا » .

● أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الادمي ت حوالي هـ :

لا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه .

● أحمد الرفاعي ت ٥٧٨ هـ :

لو بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقص الاعناق لقصناها .

فالشريعة عند الصوفية أساس كل عمل ظاهر أو باطن .

والاعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة وهي العبادات والاحكام مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك : فهذه العبادات .

« وأما الاحكام : فالحدود والطلاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الاعضاء .

« وأما الاعمال الباطنة فكأعمال القلوب ، وهى المقامات والاحوال مثل التصديق والايمان واليقين والصدق والاخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا والذكر والشكر والانابة والخشية والتقوى والمراقبة والتفكير والاعتبار والخوف والرجاء والصبر والقناعة والتسليم والتفويض والقرب والشوق والوجد والوجل والحزن والندم والحياء والخجل والتعظيم والاجلال والهيبة .

ولكل عمل من هذه الاعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه ، وبيان وفهم ، وحقيقة ووجد ، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم علمه من علمه وجهله من جهله .

« فإذا قلنا علم الباطنة : أردنا بذلك علم أعمال الباطن التى هى الجارحة الباطنة ، وهى القلب ، كما أنا اذا قلنا علم الظاهر اشرنا الى علم الاعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة وهى الاعضاء » (١) .

والتبس الامر على البعض فظن أن علم الباطن : هو التصوف ! والواقع أن الشريعة هى أساس لكل حقيقة وفى ذلك يقول القطب الدسوقي :

« الشريعة جامعة لكل علم خفى مما ذكره أرباب اللسان وتداوله ذوو العرفان من اختلاف الابواب والمقامات والمعانى والاشارات وهذان القولان يغنيان عن كثرة ما ذكروه من معارفهم لان جميع العلوم فى مضمونهما مطوية » (٢) ، أى مندرجة .

ويقول : « فكل ما نتج من الحقائق يكون من أصول الشريعة لانه من تمسك بالشريعة حتى عمد للحقيقة فيكون آخذا من الكتاب والسنة ما تقوم به حقيقته » (٣) .

« والشريعة هى الحقيقة ، فعالم بالله وعالم بأمر الله . . وعلماء مع الله وهم أهل المعرفة والخوف والرجاء والسهر والبكاء ، لان من عقل علم ، ومن

(١) اللبع ص ٤٤/٤٣ .

(٢) ، (٣) — الجوهرة : ص ٨٢/٨٣ — ٨١ — ٨٩ على التوالى .

علم حلم ، ومن حلم حكم ، ومن حكم أبصر ، ومن أبصر بنور قلبه غلبت حكمته على جهله فرقى الى العالم العلوى .

فالتريق الى الله تعالى تحكمه الشريعة فى الظاهر والباطن ، يقول العارف السيد على الهيتى (٤٤٤ - ٥٦٤ هـ) : الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما حصل به التعريف ، فالشريعة مؤيدة بالحقيقة ، والحقيقة مقيدة بالشريعة . وكل شريعة بلا حقيقة فهى عاطلة . وكل حقيقة لا شريعة لها فهى باطلة (١) .

يقول القطب الدسوقى :

« الشريعة أصل والحقيقة فرع ، فالشريعة ما ظهر من الشرع ، والحقيقة ما خفى منها ، وجميع المقامات مندرجة فيهما ، ولكل منهما أهل والكامل من جمع بينهما » (٢) .

أى جمع بين طهارة الظاهر وصفاء الباطن فيكون عمله مطابقا لسيرته .
ويقول :

« الطريقة كلها ترجع الى كلمتين تعرف ربك وتعبدته » « فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة وليس فى هذا تعطيل للعلماء ، بل العلم ابن للعمل ، وانما قلنا ذلك من أجل قول الله تعالى « فاقربوا ما تيسر منه ! » (٣) .

« ولكل فرقة منهاج ، والا فقد يجمع الله السلم والعمل فى رجل واحد يفيد الناس كل الفوائد ، فالشريعة هى الشجرة والحقيقة هى الثمرة » (٤) .

وكان يقول لمن يطلب منه سلوك الطريق :

يا فلان « اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، وعلى ان تتبع جميع الاوامر المشروعة والاخبار

(١) راجع جامع الاصول للشيخ أحمد ضياء الدين الكرشخانى ط - ١٣٢٨ هـ - صفحات ٧١ : ٧٣ و ٣١٦ فقد فصل موضوع الشريعة والحقيقة .
(٢) الطبقات الوسطى - مخطوط - ١٠٣/ب .
(٣) من الآية ٢٠ من سورة الزمل .
(٤) الكواكب الدرية - مخطوط - ٢٢٩/ب .

المرضية ، والاحتفال بطاعة الله عز وجل ، قولاً وفعلاً واعتقاداً ، والا تنظر
ياولدى الى زخارف الدنيا ، ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها واتبع
نبيك فى أخلاقه ، فان لم تستطع فاتبع خلق شيخك ، فان نزلت عن ذلك
هلكت .

وأعلم ياولدى أن طريقنا هذه طريقة تحقيق وتصديق وجهد وعمل وتنزه
وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان ، فمن خالف شيئاً من أفعالها رفضته
الطريق طوعاً أو كرهاً (١) .

فالتصوف الخالص روحه اقامة الشريعة فى كل شأن من شئون الحياة فى
الظاهر والباطن .

فالعمل بالشريعة هو أصل سعادة الانسان ومن ادعى حب الله عز وجل
وحاد عن طريق الشريعة فقد ضل وغوى وتاه فى مجاهل الهوى ، وكان اماما
لمن تبعه فى جهنم . ولا يمكن لفيلسوف أو مفكر ان يدعى انه قد احاط بأسباب
سعادة البشر ووسائلها وطرقها حتى يجعل ذلك ذريعة لان يطلب منهم أو
يرغبهم على اتباعه كى يسعدوا . بل أن النظريات السياسية والاجتماعية
والاقتصادية قد أثبتت أن قيام الاستبداد المطلق ومذاهب تأليه الفرد وعبادته
انما تنشأ عن التمسك بنظرية أو مذهب وضعيين ، ولاعتقاد أن السعادة كل
السعادة مرتبطة بالتقيد بتعاليم تلك النظرية أو هذا المذهب ، ولا تلبث هذه
العقيدة أن تنقلب الى دين حل محل الشريعة وتولد عن هذه الزحزحة الباطلة
عمليات الاضطهاد والعدوان فى سبيل قسرة لابد منها لاجبار الناس على ترك
عقائدهم واعتناق العقيدة الجديدة بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة ويدخل
البشر فى دور من أدوارهم الحالكة القائمة المبنية على سفك الدماء واباحة
الحرمان واهدار الواجبات والتدمير والتخريب ، ولا ينتهى الامر الا بانتصار
العقيدة المفروضة الجديدة واستبعاد الناس لاربابها أو محوها وازالتها من
الوجود .

وفات هؤلاء جميعاً أن الذى يقرر السعادة النهائية للبشر فى دنياهم
واخراهم هو خالقهم ، اذ من ذا الذى تصدى لاسعاد البشر وهو عاجز عن

(١) الطبقات الوسطى — مخطوط — ١٠٨ ب .

الاحاطة بأسرار الوجود والحياة وحقائق الموجودات وأسرارها وبداياتها ونهاياتها ومصيرها العاجل والآجل ؟ ان الذى يدعى الاحاطة بذلك انما يدعى مراتب الالوهية ومن ادعاها من دون الله عز وجل فقد هوى فى مهاوى الذلة والشقاء !

أما هؤلاء الذين يخططون السعادة البشرية الدائمة على الاوراق ويبنون مذاهبهم حسبما تمليه عليهم نفوسهم المعوجة وعقولهم القاصرة، انما مثلهم كمثل من يرسم آماله على صفحات الماء ، أو يشيد القصور الوهمية فى الهواء ليوزعها على البشر ثم يجبرهم على قبولها بالقوة ، ويجردهم مما عندهم ليكون هذا القبول صحيحا !

ان اقدام أى فرد على دعوى اسعاد البشر بعندياته لهى دعوى ان دلت فانما تدل على اغراق فى الجهالة التى ليس وراءها مرمى لجاهل بحقائق الوجود وأسراره وكمالات الله عز وجل وحكمته ويكفيه جهلا انه يحاول أن يعدل فى حكمة الله تعالى وشرائعه فيأتى بشريعة من عنده تبطل شريعة الله تعالى ان الذى أثبتته العلم والعمل أن البشر لا يمكنهم أن يسعدوا الا عن طريق واحد : هو الامتداء بهدى امام المهتدين وسيد العلماء صلوات الله وسلامه عليه فهو الذى أنزل عليه النور الالهى - القرآن العظيم هدى ورحمة للعالمين : منه تتفجر ينابيع العلوم والحقائق التى يسعد بها البشر فى الدارين فمن لم يهده القرآن العظيم فلا اهتدى ، وكل من دعا الى السعادة والنجاة وهو لا يدرى قواعد الشريعة ويجهل أحوال من أرسله الله تعالى رحمة شاملة للعالمين فمثل هذا انما يدعو الى الشقاء وليس من الشريعة فى شئ والمؤمنون منه براء •

فطريقته رضى الله تعالى عنه مدارها العمل بالكتاب والسنة ومجاهدة النفس وتطويعها حتى يكون هواها تابعا لهديه صلى الله عليه وسلم •

قال الامام محمد بن على (١) السنوسى الخطابى الحسنى الادريسى : (وأما طريق السادة البرهانية فهو المنسوب الى الشيخ برهان الدين ابراهيم بن أبى

(١) الصوفى الشهير مؤسس الطريقة السنوسية (١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ) : السلسيل المعين فى الطرائق الاربعين - مخطوط - وجه ق ٣٥ •

المجد القرشى الدسوقي رضى الله تعالى عنه : ر هو مبنى على الذكر الجهرى ،
ولزوم الجد فى الطاعات وارتكاب خطر أهوال المجاهدات وذبح النفس بسكين
المخالفات وحبسها فى سجن الرياضة حتى يفتح الله عليها بالسراح فى رياض
المعرفة ، ومن شأن أهل هذه الطريقة السنية الاستهتار بذكر (دايم) بياء
النداء سيما فى ختم مجالس التلاوة ، والذكر الجهرى بالجلالة مع الهوية ،
ومن شأنهم لبس الزى وهو الاخضر) .

« مرتبة كمال كل انسان موقوفة على مدى فهمه لكتاب الله عز وجل »

كتاب الله عز وجل : القرآن العظيم هو النور الالهى الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : أحاط بأسرار الموجودات ، وحقائق الكائنات ، هو الصراط المستقيم لكل طالب للحق عز وجل ، والنور المبين لكل قلب متفتح لحب الله عز وجل ، هو حبل الله المتين وعروته الوثقى التى لا انفصام لها من تعلق به نجا فى جميع شئونه وأحواله وأقواله وأفعاله من مزالق العمى وظلمات الضلال ورعونة النفس وكيدها ، واغراء شياطين الجن والانس ، وزخرف الباطل وتمويه المبطلين والدجالين .

ولكن أين للقلوب المغلقة أن تتفتح لباهر أنواره ! ومتى قلبت الشمس دنيا الاعمى نورا وضياء وهل يستجيب لك الموتى لو دعوتهم للحياة ! وفى عظمة أسرار القرآن يقول القطب الدسوقي :

(لو انفتحت أقفال القلوب لاطلعت على ما فى القرآن من العجائب والعلوم ولاغناكم عن النظر فيما سواه ، فان فيه كل ما سطر فى كتب العلماء » ما فرطنا شئ الكتاب من شئ ») .

نفس طاهرة وروح عالية ، وهمة قاطعة ، لم تحجبها زخارف الحياة ولا بهارجها ولم تنحبس وراء قواقع الوهم فتحول بينها وبين الوجود الحق . نفس ذاقت حلاوة كتاب الله فأخبرتنا بماذاقته ، رجل لم يعرف سوى خالقه فاستغنى بالقرآن عن كتب البشر ثم أهاب بالناس ان يفعلوا مثله ليتمكنوا من الاسعادة العظمى اذا ما استقرشدها فى الحياة واهتدوا بنور خالقهم . وكلام الله عز وجل تعجز عن حصر معانيه العبارات ولا تتسع لبيانه طروس (ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . ان الله عزيز حكيم . « ٢٧ » سورة لقمان .

وان (جميع المعبرين والمفسرين والمتكلمين فى القرآن العظيم لم يصلوا الى معشار عشر معرفة كنه ادراك معنى حرف واحد من حروفه ، ولا يصل الرجل مقام الكمال حتى يصير قادرا على تخريج جميع احكام الشريعة المطهرة من أى حرف شاء من حروف الهجاء) (١) .

(١) الطبقات الوسطى وجه ق ١٠٤ .

ومن فهمه الله تعالى في كتابه أعطاه تأويل كل حرف منه وما هو وما معناه ؟ وما سبب كل حرف ؟ وما صفة كل حرف ؟ وعلم المكتوب من الحروف في العلو والسفل ، والعرش والكرسى والسماء والماء والفلك والهواء والارض والثرى) .

فالكمال البشرى موقوف على مقدار فهم العبد في كتاب الله عز وجل . والا فكيف يطلب الكمال جاهل بمعانى الكمالات ؟ أو كيف يصل الى الكمال من سار في درب النقص وأخذ بأسبابه ؟ والقطب الدسوقي في بيانه لعلامات من وصل الى مرتبة الفهم في كتاب الله عز وجل ، انما هو يتحدث عن مرتبته ومرتبة كبار العارفين أمثاله . والا فأتين الثرى من الثريا : وأين مكانة المحبوب عن آيات الله عز وجل من المشاهد لها ! وأين المنقطع عن الله سبحانه وتعالى من المتصل بحبل الله المتين ! (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وما حجب الانسان عن فهم معانى آى الذكر الحكيم سوى نفسه التى تلذت بالاعراض عن الله تعالى وأصبح همها معلق بحظوظها أشد من تعلقها بالله تعالى ، فقال ذلك بين الانسان وبين استخراج كنوز القرآن العظيم . والا فكيف يشهد نور كلام الله تعالى من كان أعمى القلب مطموس البصيرة ؟ وكيف تشرق شمس التجليات على أنفستلذذ بالدنيا ؟ أنفستلذذ بكل خسيس ، ولا تتباهى الا بكل ما يحجب عن الحق عز وجل ؟ وفى ذلك يقول

(أتروم أن تتذوق أسرار معانى كلام الله عز وجل وأنت تبارزه بالمعاصى ! أم تروم أن تتذوق أسرار معانى كلام الله عز وجل وأنت فى الشهوات غارق ! أم تروم ذلك وقد تذكرت كل شئ سواه فلا تتلذذ الا بما يحجبك عنه ! حاشا لله فان كلام الله أعز وأجل من أن يدركه المنصرفون عنه) .

ثم يوضح السبيل الى فهم معانى كلام الله عز وجل فيقول :

(ان أردت يا ولدى أن تفهم أسرار القرآن العظيم فاقتل نفس دعواك ، واذبح شبح قولك ، واطرح نفسيتك تحت قدم أقدامك ، وعفر خديك على الثرى واشهد أن نفسك قبضة من تراب . واعترف بكثرة ذنوبك ، وخف أن ترد عليك عبادتك وقل : ياترى مثلى يقبل منه عمل ! فاذا كنت على هذا الوصف ، فيرجى لك أن تشم رائحة من معانى كلام ربك . والا فباب الفهم عنك مغلق . وعزة ربي ان

كل حرف من القرآن العظيم يعجز عن تفسيره الثقلان ، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يعلموا معنى الباء بعقولهم لعجزوا ، وما لاحد من ذات نفسه شيء قل ولا جل . وان لم يكن الله تعالى يعلم العبد والا فهو عائم فى البحر ، مزكوم محجوب لاتسم ولا لم ولا علم ولا حس ، ومن لم يذق مقام القوم ويرى ويشاهد ، لم يحسن أن يصف بحرا لا قرار له ، أو يترجم عن ساحل لا آخر له ، أو يعوم فى مقر التخوم أو يصل الى النون ، أو يدرك معانى السر المصون ، وأما اذا أعطى عبده علم ذلك فلا مانع (١) .

والباء المشار اليها هى الباء فى (بسم الله) والنون فى قوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجرا غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق عظيم (٤) . والنون فى (كن فيكون) .

« لا ينتفع بحمل القرآن العظيم الا من عمل به » :

ويبين لنا رضى الله عنه الاداب التى يجب أن يتحلى بها حامل القرآن العظيم ليكون أهلا للانتفاع بأسرار آى الذكر الحكيم ، أما اذا حمل القرآن الكريم ولم يوقره ويراع آدابه فهو محجوب مطرود ، يتلو القرآن ولا يتجاوز حنجرته .

ومن هذه الاداب :

أولا : الابتعاد عن الحرام : يجب « ١ » على حامل القرآن الا يملأ جوفه حراما ولا يلبس حراما ، فان فعل ذلك لعنه القرآن من جوفه وقال : لعنة الله على من لم يجل كلام الله تعالى) .

ثانيا : الطهارة الظاهرة والباطنة : (يجب على تالى القرآن أن يطهر غممه للتلاوة : من اللفظ والنطق الفاحش ، ولا يأكل الا حلالا صرفا بقدر الحاجة من غير سرف ، فان أكل حراما أساء الادب ، ويعطر ثيابه وبدنه ومكانه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتطيب لذلك حتى كان اذا لمس شيئا يمكث يفوح الطيب منه زمانا وكان وميض المسك يلمع من مفرقه صلى الله عليه وسلم) .

وما جاء التهاون بكتاب الله عز وجل الا من النفاق أو الجهل والانصراف

(١) الطبقات الوسطى وجه ق ١/١١١ والكبرى ج ١ ص ١٥٦/١٥٥ .

(٢) الكواكب الدرية — ظهر ق ٢٣٠ .

منه، أما من علم أنه قد جلس على بساط المشاهدة ليناجي ربه بكلامه العزيز فإنه يبذل كل ما في وسعه للتخلي عن كل مذموم والتخلي بكل محمود .

ثالثا : العمل بمقتضى كل آية يتلوها ، وفي ذلك يقول :

(يا حامل القرآن لا تفرح بحمله حتى تنظر هل عملت به أم لا ؟ فان الله عز وجل يقول « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ولا تخرج عن كونك حمارا الا اذا عملت بجميع ما فيه، ولم يكن منه حرف واحد يشهد عليك) .

(ولا ينبغى لحامل القرآن العظيم ان يدنس فمه بأكل حرام ولا بكلام حرام في عرض مؤمن ولا مؤمنة . قال تعالى « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة » الآية : ومثال من ينطق بالقرآن الكريم مع تدنس فمه بغيبة أو نميمة أو بهتان : مثال من وضع المصحف في قاذورة وقد قال العلماء بكفره)

(علوم العارفين لا تدخل تحت حصر)

لان العارف تتدفق علومه من بحار معانى كلمات كتاب الله عز وجل فكيف يمكن حصرها ؟ فمن ادعى المعرفة واحتاج الى غير كتاب الله تعالى في شأن من شئونه فهو كاذب في دعواه .

ولا يزال العارف بالله تعالى يترقى في معارج العلم القرآني ويسقي بأنور التجلي الفرقاني حتى (اذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علما بلا واسطة وأخذ العلوم المكنونة في ألواح المعانى ففهم رموزها وعرف كنوزها وفك طلسماتها وعلم اسمها ورسمها ، وأطلع الله تعالى على العلوم المودعة في النقطة، ولولا خوف الانكار لنطقوا بما يبهر العقول ، وكذلك لهم من اشارات العبارات عبارات معجبة وألسن مختلفة ، وكذلك لهم في معانى الحروف والقطع والوصل والهمز والشكل والنصب والرفع ما لا يحصر ولا يطلع عليه الا هم . وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما في البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة السماء ، وما في حياة الانس والجن مما يقع لهم في الدنيا والاخرة ، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما هو فوق الفوق وما تحت التحت ، ولا عجب من

حكيم يتلقى علما من حكيم عليم ، فان مواهب السر اللدنى قد ظهر بعضها ، فى قصة موسى والخضر عليهما السلام (١) .

و (قد يقذف الله فى قلب وليه ما لا يطلع عليه أحد من العلماء) و (من دخل حضرة الله نظر الدنيا والاخرة) و (واذا تجلى عروس الكلام فى رتبة الالهام طلعت شمس المعارف وتجلى البدر المنير فى الليل البهيم ، فهم سكارى الظواهر صحاة البواطن والخمائر) .

ويقرر القطب الدسوقي ان العارف مجتهد لا يسبقه فى العلم أصحاب المحابر والدفاتر ان (فيض الربوبية اذا فاض أغنى عن الاجتهاد ، وقد يعطى الولي القاصر مالم يعط لأصحاب المحابر) (فان صاحب الجهد قاصر مالم يقرأ فى لوح المعانى سر عطاء القادر) .

(وليس مطلوب القوم الا مجالسة الحق فى كل أمر سلوكه ، فاذا حضروا عنده عرفوا بتعريفه كل شيء بلا تعب)

يشير رضى الله تعالى عنه الى ماورد فى السنة المطهرة من مجالسة الذاكرين للحق تعالى ومعيته تعالى لهم فقد جاء فى الحديث القدسي : (انا جليس من ذكرنى) (٢) .

وفى الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى (انا عند ظنى عبدي بى وأنا معه اذا ذكرنى : فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منهم وأن تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وأن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى اتيته هرولة (٣) .

(انا مع عبدي ان هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه) (٤) .

فالذاكر الصادق لله عز وجل جليس الرحمن وهذا هو السر فى تحلق

(١) الطبقات الوسطى وجه ق (١٠٥) . والكواكب الدرية وجه وظهر ق ٢٢٩ .
(٢) رواه الامام البيهقي فى الشعب عن أبى بن كعب قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يارب اقريب أنت فانا جيك أو بعيد فانا ديك ؟ فقل له (يا موسى انا جليس من ذكرنى) وروى البيهقي أن محمد بن النضر سئل أما تستوحش ؟ من طول الجلوس فى البيت . فقال مالى اسوحش وهو يقول (انا جليس من ذكرنى) وأخرجه أبو الشيخ من محمد بن النضر الحارثى عن أبى الاحوس . ورواه الديلمى بلا اسناد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها برفوعا .

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٤) رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

الصوفية لذكره عز وجل . ويكفى الذاكرين ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن رواحة وهو يذكر أصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنكم إلا الذين أمرنى الله أن أصبر نفسى معكم ثم تلا هذه الآية (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وانبع هواه وكان أمره فرطا) أما انه ما جلس عدتكم الا جلس معهم عدتهم من الملائكة ، ان سبحوا الله سبحانه وان حمدوا الله حمدوه وان كبروا الله كبروه ثم يصعدون الى الرب جل ثناؤه وهو أعلم بهم فيقولون : ياربنا عبادك سبحوك فسبحنا وكبروك فكبرنا وحمدوك فحمدنا ، فيقول ربنا : ياملائكتى اشهدكم انى قد غفرت لهم . فيقولون فيهم فلان الخطاء ! فيقول هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) (١) .

ويكفيهم شرقا ما جاء فى الحديث القدسي :

(من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب : وما تقرب الى عبدي بشيء أحب الى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه : فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وان سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيزنه) (٢) .

ومن كانت هذه منزلته لم يدانيه غيره فى المعرفة بالله عز وجل وآداب الحضرة الالهية ولا فى سماحة الخلق ولا فى خدمة الخلق وهذه منتهى نهايات العلوم وهى علوم السعادة الابدية دنيا وأخرى لا يصل اليها الا كل تقى (اتقوا الله ويعلمكم الله) .

ولذا كان كلام العارف دائما أصيلا مبتكرا لانه ينطق عن أحواله ومشاهداته وهذه لا تتكرر فى شخصين أبدا فما (ثم عارف ينطق عن غيره ، وانما يضيف الكلام للغير تسترا » على نفسه من عوارض الشهرة او تنفيسا لما يحدث فى نفسه من الم الكتمان » « ٣ » .

(١) رواه الطبرانى فى الصغير .

(٢) رواه البخارى فى الرقاق واللمط له وروى نحوه الامام احمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها . والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة وابن السنى عن السيدة ميمونة رضى الله تعالى عنها والقشيرى فى الرسالة عن أنس رضى الله تعالى عنه .

(٣) الكواكب الدرية وجهه فى ٣٢٩ والعبارة التى بين علامى التنصيص من الطبقات الوسطى وجهه ق ١٠٤ .

ولهذا أيضا تعددت الطرق الى الله عز وجل، ولم تنحصر في عدد معين ومبناها جميعا الكتاب والسنة، وهذا التعدد جاء من أن كل انسان يصل الى الله عز وجل من الوجه الملائم لاستعداده الفطرى وهنا يختلف من فرد الى آخر . فالنفس البشرية لا تتكرر صورتها بل انها فى حد ذاتها تتقلب وتتغير فى لحظات طبقا للاحوال التى تمر عليها. وفى ذلك يقول «يا اولادى : الفقراء لهم طرائق عدد أنفاس الخلائق فكل منهم تكلم على قدر درجته (١) » وكما أشار اليه فى رسالته حيث قال :

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| الطرق شتى وطرق الحق مفردة | والسالكون طريق الحق أفراد |
| لا يعرفون ولا يسالك مسالكهم | الا رجال لهم بالليل أورا |
| الناس فى غفلة عما يراد بهم | كأنهم فى سبيل الحق رقاد (٢) |

وقد جمعت الشريعة ، كل طريق موصل الى الله عز وجل فالطرق مغلقة دون طريقها وهى الميزان الذى يزن به كل سالك أفعاله وأقواله التى تربطه بخالقه عز وجل وبالموجودات وهذا الشمول فى الشريعة من الاعجاز الذى تعجز الأقلام عن بلوغ تفصيله .

(١) و (٢) : لسان التعريف مخطوط ظهر ق ٢٨ ووجه ق ٤١ على التوالى .

« الفهم في طريق الله عز وجل يتوقف على الاستعداد »

الجاهل عدو ما يجهل طالما كانت نفسه مغلقة لا استعداد لها لتلقى أية حقيقة خارج الدائرة التي تعيش فيها واعتادت عليها ، كذلك المحجوب الذي فقد الاستعداد لمعرفة الله عز وجل وانغمس في حمأة الدنيا لا يعرف سواها : يبارز العارف ويتصدى له بالعداوة والبغضاء أو الإنكار إذا ما صادفه في حياته العامة .

ولذا ينصح القطب الدسوقي مردييه ألا يعرضوا أنفسهم للابتلاء بأمثال هؤلاء خشية الفتنة وتضييع الوقت فيها لأجدوى فيه ، والصوفى رأس ماله وقته ، إلا إذا كان العارف له قدرة على منازلة هؤلاء وكبتهم فإنه يتصدى لهم مادامت في ذلك مصلحة دينية كالكف عن الأيذاء أو التوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم . ويطلب منهم مراعاة سعة القوالب ونوع الاستعدادات ليسلموا من النفوس المعوجة التي لا تعيش إلا في جو الحقد والكراهية والاحتجاب عن خالقها يقول :

(يا أولادنا (١) لا تودعوا كلامنا إلا عند من كان منا وأحب أن يسلك طريقنا ، ولا تذكروه إلا لمحب محق يدخل تحت حكمنا وينقاد لنا وقد قالوا : ذكر الكلام لغير أهله عورة) ثم يقول (كم من علم يسمعه من لا يفهمه فيتلفه ! ولذلك أخذت العهود على العلماء ألا يودعوا العلم إلا عند من له عقل عاقل وفهم ثاقب) .

ولقلة الاستعداد وضيق القابلية للعارف أن يكتم علومه ليسلم من أذى المنكرين واسأأتهم ولذا يقول بصدد علوم تأويل القرآن العظيم (أسلم التفسير ما كان مرويا عن السلف الصالح ، وأنكره عند الناس ما فتح الله به على قلب العبد في كل عصر ، ولولا محرك يحرك قلوبنا لما نطقنا إلا بما ورد عن السلف ، فإذا حرك قلوبنا وارد استفتحنا باب ربنا واستأذناه وسألناه الفهم في كلامه فنتكلم في ذلك الوقت بقدر ما يفتح الله على قلوبنا ، فسلموا لنا تسلموا فانا فخارة فارغة والعلم علم الله لا عامنا) .

(١) الطبقات الوسطى - مخطوط - ظهر ق ١٠٨ .

وهذه صفة من أهم صفات العارف : وهى أنه لا يرى له على الناس فضلا
مهما أوتى من العلم بل الفضل لله عز وجل أولا وآخرا وهذا هو العلم
الحقيقى الذى لا يطلب للشهرة ولا للمهارة ولا للحظوظ النفسية ولا للهلاك
والتدمير ولكنه لهداية الانسان الى خالقه عز وجل .

ولكم قاسى رضى الله تعالى عنه من اشاراته وعباراته فى المعرفة حتى وشى به
الى السلطان وأمر بقتله ولكن الله عز وجل أيده بنصره وكبت أعداءه وخصومه
فلم يستطيعوا أن يصلوا اليه بسوء وانتهى الامر بأن السلطان الملك الاشرف
خليل كان يتبرك به وينفذ له جميع أموره وكلها تتعلق برفع الظلم عن
المظلومين .

من نظم سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| تجلى لى المحبوب فى كل وجهة | فشاهدته فى كل معنى وصورة |
| وخاطبنى منى بكشف سرائرى | فقال أتدرى من أنا قلت منيتى |
| فأنت منائى بل أنا أنت دائما | إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى |
| فقال كذاك الأمر لكنه إذا | تعينت الأشياء كنت كنسختى |
| فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته | بغير حلول بل بتحقيق نسبى |
| فصرت فناء فى بقاء مؤبد | لذات بديمومة سرمديّة |
| وغيبنى عنى فأصبحت سائلا | لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبى |
| وأنظر فى مرآة ذاتى مشاهدا | لذاتى بذاتى وهى غاية بغيتى |
| فأغدوا وأمرى بين أمرين واقف | علمى تمحونى ووهى مثبتى |
| خبأت له فى جنة القلب منزلا | ترفع عن دعد وهند وعلوة |
| أنا ذلك القطب المبارك أمره | فإن مدار الكل من حول ذروتى |
| أنا شمس إشراق العقول ولم أقل | ولا غبت إلا عن قلوب عمية |
| يرونى فى المرآة وهى صديّة | وليس يرونى بالمرآة الصقيلب |
| وبى قامت الأنباء فى كل مة | بمختلف الآراء والكل أمت |
| ولا جامع إلا ولى فيه منبر | وفى حضرة المختار فزت ببغيتى |

« طلب معرفة الله عز وجل واجب لتصحيح الأعمال وشرط في صحة العمل »

طلب معرفة الله عز وجل فرض عين على كل مكلف قبل الاشتغال بشيء ، وأقلها ما يترتب عليه تصحيح الأعمال وتخليصها من الاشرار بالله عز وجل - وعلى هذا تصبح تربية النفس بهذا القدر فرض عين : وهذا القدر هو ما يكفي لتخليصها من المهلكات والحجب التي تحول بينها وبين الايمان بالله عز وجل ايماننا سليما . سئل رويم رضى الله تعالى عنه عن أول فرض افترضه الله على خلقه ؟ فقال : المعرفة لقوله عز وجل (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون قال بن عباس رضى الله تعالى عنهما : الا ليعرفون وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه : أول ما يحتاج اليه من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه ، والمحدث كيف كان احداثه فيعرف صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته فان من لم يعرف مالكة لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

ولا ينال صفاء العبادات الا بكمال التوحيد وصفاء المعرفة . وهذا يتوقف على الايمان فمن لا ايمان له لا معرفة له .

وسلامة النفس من المهلكات تتوقف على سلامة المعرفة ولما كان التصوف يبحث في تربية النفس وتهذيبها وصقلها لتصبح قابلة لمعرفة الله تعالى قال العلماء بأنه فرض عين .

قال ابن زكوان في علم التصوف :

وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعرفة

قال الامام المنجورى في شرحه : يعنى أن علم التصوف فرض عين على كل مكلف وذلك ان الانسان لا ينفك من دواعى الشر والرياء والحسد فيجب ان يتعلم ما يخلص به من ذلك : قال الامام ابو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه وكيف لا يجب عليه وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » . ولا ينفك بشر عنها وعن بقية ما سنذكره

من مقدمات احوال القلب كالكبر والعجب واخواتهما وتتبع هذه الهلكات وازالتها
فرض عين ولا يمكن الا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها فان من لا يعرف الشر
يقع فيه والعلاج ممكن وهو مقابلة الشيء بضده ، فكيف يمكن دون معرفة
السبب والمسبب ، فأكثرها ذكرناه في ربيع المهلكات (١) «من فروض الاعيان» وتند
تركه الناس كافة اشتغالا بما لا يعنى

والمراد بالمعرف هو الشيخ المربى الذى يعرف عيوب النفوس وخبايا
حظوظها .

ومعرفته عز وجل لا تصح الا بالاقتداء بسيد الوجهاء وأمام العارفين بالله
صلوات الله وسلامه عليه فالشهادة لا تصح الا بالايان به صلى الله عليه
وسلم وحب الله تعالى لا يصح الا بحبه صلى الله عليه وسلم ، وطاعة الله عز
وجل لا تصح الا بطاعته صلى الله عليه وسلم (فلا وربك لا يؤمنون حتى
يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا
تسليما) ٦٥ - من سورة النساء .

ومن فرق بين معرفة الله تعالى وبين شعب الايمان فقد ضل ضلالا بعيدا .
وشعب الايمان (٢) معظمها أخلاقى : فمبنى الدين الاخلاق (انما بعثت لاتمم
مكارم الاخلاق فمن فصل الدين عن الاخلاق فقد جرد الدين من اصوله
وأحكامه - أم يريد الانسان أن يتبع هواه وما تسوله له نفسه ثم يدعى الايمان
بالله تعالى والحبيب الاعظم يقول (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما
جئت به) .

ونص الحديث الشريف على أن من تحققت فيه هذه الشروط فهو
منافق : (آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا اؤتمن خان)
كما نص على أن يسير الرياء شرك ، بل ان النفاق كله يدور على مسائل خلقية ،
محورها الشك وعدم الايمان بالله تعالى .

وتأمل فى قوله صلى الله عليه وسلم :

(١) يشير الى كتابه : احياء علوم الدين .
(٢) أفرداها الامام البيهقى بتأليف ضخم بنفس العنوان - وهو مخطوط بدار الكتب العامة
فى ستة مجلدات وباليه طبع .

(لا أمانة لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) (١) .

(من غشنا فليس منا) « ٢ » من حمل علينا السلاح فليس منا .

لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه .

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه) .

(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) (٣) فما كل من ادعى الإيمان بمؤمن : وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ١٠٦ سورة يوسف عليه السلام .

ولصفاء نفوس العارفين كانت أعمالهم لا توزن بميزان فقيمة العمل تابعة لمقدار المعرفة وما (ثم عمل أذكى ولا أظهر ولا أنور ولا أكثر فائدة من عمل أهل الله عز وجل فإن الذرة منه ترجح على الجبال من عمل غيرهم لخلوها من العلل فإن عمل القوم بقلوبهم وأبدانهم وعمل غيرهم بأبدانهم دون قلوبهم ولذلك يطرقتهم الاعجاب والكبر بالطاعات) (٤) .

يشير رضى الله تعالى عنه الى أن الكبر يحبط العمل وقد جاء فى الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى (الكبرياء ردائي والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما الفيتة فى النار) « ٥ »

فلا تكاد تصح عبادة ولا تسلم طاعة مادامت فى النفس بقية من بقايا حظوظها من عجب أو بطر أو أنانية أو حب للشهرة أو السلطة أو الرياء أو النفاق أو الخداع أو الغش أو الكذب والميل للظلم والفسق والفجور وغير ذلك من العلل النفسية التى تفسد الاعمال كائنة ما كانت . بل ان المقبل على ربه (نومه أفضل من عبادة غيره لانه فى نومه فى حضرة ربه وربما كان العابد فى عبادته مع نفسه) وفى هذا المعنى يقول القطب السيد على وفا « ٧٥٩ —

(١) رواه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رفعه والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهم بلفظ آخر .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البيهقى عن أنس رفعه بلفظ (من أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم ومن أصبح وهمه غير الله فليس من الله) وهو عند الطبرانى وأبى نعيم .

(٤) الطبقات الوسطى ظهر فى ١٠٩ .

(٥) رواه مسلم ورواه الحاكم بلفظ (الكبرياء ردائي فمن نازعنى ردائى قصمته) وقال صحيح على شرط مسلم .

٨٠٧ هـ « العائد مافيه حظ للنفوس والعبادة ماكان محضا للملك القدوس
فرب قيام وصيام عادة ، ورب طعام ومنام عبادة ، كونوا أرباب العبادات ولا
تكونوا عبيد العادات فمن ملكته عادته فسدت عليه عباداته »

انما الاعمال بالنيات هذا نيته لله وذلك نيته لحظ نفسه وشتان ما بينهما
فالمرجع الاول والاخير فى تقييم الاعمال هو الحديث الشريف (**انما الاعمال
بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى
الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى
ما هاجر اليه**) وهذا الحديث من الاعجاز العلمى الذى ليس وراءه مرمى فى
وزن الاعمال وتقييمها ومعرفة زيفها من صحيحها وسليمها من سقيمها، وهو
الميزان الذى يقيمه كل انسان ليزن به أفعاله وهو أدري بنوايا نفسه ، فان رأى
اعوجاجا بادر بتقويمه واصلاحه قبل أن يستفحل الداء فيهلك .

وروى الامام البخارى فى باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا : ان رجلا
جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للمغنم، والرجل
يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله
عليه وسلم (**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله**) وهذا
الحديث من الاعجاز العلمى المحمدى فى تقرير أسباب الحرب وتوطيد دعائم
السلام فى العالم فكل ما كان لغير الله عز وجل فهو باطل .

وكلمة الله عز وجل هي كلامه العظيم والبيان المحمدى لكتاب الله عز وجل ،
فلا يمكن لاحد أن يدعى أنه يقاتل فى سبيل الله تعالى وهو خارج عن دين
الله .

(ان الدين عند الله الاسلام) .

(**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكره
واليه يرجعون**) - ٨٣ .

(ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)
٨٥ - سورة آل عمران .

وعندما تتحول مفاهيم الاسلام الى مفاهيم سلبية تسمح للجبناء بالفرار

المسئوليات ، والمنافقين بالتلاعب بالشعارات المقدسة ، وللمجبايرة بتبرير طغيان وللأفراد بتحقيق المطامع الشخصية : فان هؤلاء الادعياء يكونون أش خطرا على الدين من كل عدو مدمر ، ويكفى أنهم يكونون محور هذه القصد الفاسدة التى صاغها كل أفاك أثيم : ان أتباع هذا الدين منحطون فدينهم اذ باطل ! ومن هذه المصادر ينفذون الى اباحة الفوضى العقائدية . ولا ذن للاسلام ان اعتنقه منافق لا يحفل بتعاليمه أو ظالم لا يراعى حرمة ولو سلم لهم بهذه المغالطة اللا منطقية اذن لبطلت كل حقيقة : ولاصبح الذهب خز بمجرد حفظه فى علبة من الخزف ، ولتحولت اللالىء الى زجاج لوضعها فى حوافز زجاجية .

ان الحائل الذى يحول بين البشر وبين الشقاء الدائم هو التحقق بشع الايمان التى اقتضتها الاسماء الحسنى ، واذا زال هذا الحائل انقسم الأفر وانقسمت المجتمعات الى نوعين اثنين ، نوع قابل للاستعباد والذل والهوا والدونية والسلبية ولجميع أسباب الانحطاط الخلقى ، يقابله نوع يضم الطف والمستبدين والقابليين لجميع صفات الاستبداد والاستغلال والعدوان ، وحينئذ مفر للبشرية من مواجهة الجحيم نفسه : جحيم الشرك والطغيان والفسد والفجور والوحشية والاباحية تقابلها صفات الذلة والحقارة والعبودية وانعد المروءة ومن سكير هذا الجحيم تنطلق الكلاب الادمية المسعورة تنهش وتفترس وتتلذذ برؤية المشوهين والمعذبين كما تتلذذ النفوس الكريمة برؤية السعداء .

« اختلاف أحوال العارفين من تنوع مقاماتهم »

وفى ذلك يقول :

(الرجال منهم رجل ونصف رجل وربيع رجل ورجل كامل وببالغ ومدرك وواصل (والناس خاص وخاص الخاص ومبتدئ ومنته ومتشبه ومتحقق ويرحم الله تعالى البعض بالبعض ، والقوى لا يقدر أن يمشى معه الضعيف) و (من الاولياء من لا يدري الخطاب ولا الجواب فهو كالحجارة مودعة فيها أسرار ناطقة بلسان حال ، صامته عن الكلام ، مودعة من غوامض الاسرار ، والعطاء مفرق ، فمنهم عارف ، ومنهم محب ، ومشغوف وذاكر ومذكر ومعتبر ، ومنهم ناطق وصامت ومستغرق وصاح وصائم ومفطر وهائم وقائم دائم ونائم واصل ، وواصل ساهر ، وواقف ناهل ، ودهاش واهن ، وياك باسم : ومقبوض وضاحك ، وخائف ومختلط ومختبئ وموله ومتوله ، وصائح ونائح ، ومجموع بجمعية وجمعة ان خرج عن اياهما انتفع به ، ومنهم من مزق الثياب حين حقق وأناب ، وغلب عليه الحال ، ويرحم الله البعض بالبعض (١) .

وممن صرح بالتقسيم من حيث مراتب الرجولية : الشيخ العارف المحدث عبد الله الدهلوى (٢) حيث يقول : الرجال على أربعة أنواع : النوع الاول ليسو برجال وهم طالبوا الدنيا ، والثاني رجال وهم طلاب الآخرة ، والثالث شبان الرجال وهم طالبوا الآخرة والمولى ، والرابع افراد هم طالبوا المولى . وهناك خاصة الخاصة وفيهم يقول ،

(خواص الخواص جعلوا زواياهم قلوبهم ولبسهم تقواهم وخوفهم من ربهم ومولاهم ، قد رفضوا الكرامات ولم يرضوا بها وخرجوا عنها لعلمهم انها من ثمرة أعمالهم ، فلم يطيروا فى الهواء ولم يمشوا على ماء ، ولم تسخر لهم الهوام ، ولم تبصيص لهم الاسود ، ولم يضربوا أرجلهم بالارض فيتفجر الماء ، ولمسوا أجذم ولا أبرص فبرئوا ولا غير ذلك ، فخرجوا من الدنيا وأجورهم موفورة كاملة رضى الله عنهم أجمعين) .

(١) الطبقات الوسطى والكواكب — وكتاب الجوهرة المطبوع ص ١٠٦ مع اختلاف فى بعض الالفاظ أو تقديم وتأخير .
(٢) هو امام الهند فى عصره وعالمنا عبد الله بن عبد اللطيف شاه ربي جيلا من العلماء والعارفين عاش (١١٥٨ — ١٢٤٠ هـ) .

هذا ان كان يطلب أما من غير طلب فقد يجرى الله عز وجل على يد العارف ما شاء .

وكان يقول (انما قالوا حسنات الابرار سيئات المقربين لان المقرب يراعى الخطرات واللحظات ويعد ذلك من الهفوات ، ويفتش على هواجس النفوس ، ويراقب خروج أنفاسه ، ويخاف من حسناته كما يخاف المذنب من سيئاته ، والابرار لا يقدرّون على هذا الحال ، وايضا فالمقرب لا يقول عند شرابه أو أهولاه أحلاه ولا يصفق بكف ولا يصرخ ولا يشق ولا يضرب برأسه الحجر ، ولا يهيم ولا يمشى : ومن فعل ذلك فعليه لقلّة ثبوته على الواردات ، مع انهم سلموا له حاله لغلبيته عليه ، وجعلوا حسناته سيئات مع أن المقربين ليس لهم سيئات ، انما هي محاسبات عاليات نفيسات) .

قال الجلال الكركى (١) :

وقال استاذنا خاص الخاص أهل الخصوصية جعلوا زواياهم قلوبهم ولبسهم تقواهم وخوفهم ممن خلقهم وصورهم وبراهم قال وهم كما قيل :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| من السعادة الا تبعد الدار | وهل يبيل غليل الشوق تذكّار ؟ |
| ليت المنازل بالجرعاء دانية | منا وذاك الذى نهوى بها جار |
| ونسمة القرب ان مرت بهم سحرا | تمائلوا وبدت للسكّر آثار |
| هم صاحبوا ليلهم كيما يعلمهم | قطع الطريق كأن الليل عيار |
| سقامهم الوجد كاسات الهوى فغدوا | منه سكارى كأن الوجد خمّار |
| مقلدين سيوفا من عزائمهم | مدرعين دروعا وهى أسرار |
| قاموا قعدت بلحظى نمت فانتبهوا | يا ايتهم أيقظونى عندما ساروا |
| تشققهم كل أرض ينزلون بها | كأنهم فى بقاع الارض امطار |

قال : وخواص الخواص : رفضوا الكرامات ولم يعبأوا بها ولم يرضوها ، بل طلبوا من الله حسن النظر الى وجهه الكريم لان ذلك أعلى مقام عند القوم كما قال الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة — ٢٢ — الى ربها ناظرة — ٢٣) « من سورة القيامة » .

(١) لسان التعريف — مخطوط — ق ٥٨ .

(أهل المحبة الالهية) :

الحياة الدنيا بغير الحب الالهى جحيم لا يطاق ، وعذاب مستمر لانه عذاب يتولد منه عذاب وهكذا •

والانسان ولد وحب الله عز وجل يجرى فى عروقه ، فكيف اذن ينساه ! كيف يعرض عن خالقه ! كيف يهرب من خالقه ، والوجود كله ملكه •

نعم يخيل للانسان أنه أقرب من الله عز وجل ولم يهرب منه الا اليه • فالمحجوب يهرب من المكون الى الاكوان يهرب من الخالق الى مخلوقاته ، وينزل بحب الخالق الى حب مخلوقاته وهو حب مزيف لانه سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فاذا جاءه وجد الله عنده •

المحجوب يهبط بالمحبة الالهية الفطرية عنده الى عشق المخلوقات فلا يشبع ولا يرتوى ويموت ظمآنًا لانه ضل سواء السبيل • حب المحجوب اذن يكون مصدر شقائه ومنبع بلائه ، فهو يصرف حياته كلها فى عشق النفس أو مظاهرها أو عشق المخلوقات التى يرتبط بها ، ثم لا يجد الى السعادة سبيلا ولا يعرف لها طعما ، وهذا العشق هو الذى يولد الرذيلة : الكراهية والبغضاء الحقد والحسد ، الغل والانتقام ، الفجور والجريمة ، سفك الدماء وانتهاك الحرمات ، والعدوان ، والطغيان وتآليه الانسان أو الجماد • انه انسان مسعور افتقد خالقه فعبد مخلوقاته • انه انسان جهل خالقه فهام فى مقاهات المخلوقات يخطئ فى ظلمات بعضها فوق بعض ويدعى العلم بعد ذلك • نعمانه العلم بالظلام • وهذا هو عين الجهل المركب •

يظن سعادته فى الجاه فيجرى وراءه فاذا ما كسبه لم يذق طعم السعادة التى ينشدها • ويظن السعادة فى المجد فيلهث وراءه حتى اذا ما ناله لم يحصد سوى الشقاء والهم •

ويقضى حياته وهو يلهث وراء غايات تنتهى به الى أوهام ، ويتصارع مع أخيه الانسان صراعا لا هوادة فيه ، هو صراع أشد ضراوة من اشتباك الذئب مع الذئب ، أو الكلاب مع الكلاب أو الخنازير مع الخنازير ، وشيئا فشيئا وفى حمأة هذه الحجب والاهام يفقد الانسان فطرته ويكتسب ما هو أقسى وأشرس من طباع الحيوان •

عندما احتضر الشاعر المؤلف الروائي الشهير الالماني جويته قال لمن حضره : قضيت حياتي أرى النور من بعيد وكلما اقتربت منه ابتعد منى وما أنا احتضر ولم أصل اليه .

يعنى نور الحقيقة

لقد انحرفنا عن الحب الحقيقى : الحب الانهى وانحرفنا دفعنا الى طلب الحب فى كل شىء وكلما وصلنا الى الشىء الذى ظننا أننا سنجد الحب عنده لم نجده ، وكلما اشتد بنا الطلب كلما اشتد بعدنا عن الحقيقة ، واشتدت مع البعد الالام يصحبها شعور خفى مستمر بالحرمان : هو الحرمان من النور الالهى .

ان الحب الالهى لا يكون حقيقيا الا اذا عرفنا الله عز وجل .

ولا نعرفه عز وجل الا اذا آمننا بامام العارفين وسيد الوجهاء والرحمة المهداة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه .

فاذا ما عرفنا الله عز وجل بتعريفه صلوات الله وسلامه عليه لنا : واتبعناه صلوات الله وسلامه عليه فى اقواله وافعاله واحواله . كان حبنا له تعالى صادقا .

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم - ٣١ - قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين - ٣٢) سورة آل عمران .

فالعارف لا يشغله شىء عن حب الله تعالى فهو فى استقرار نفسى دائم وفى اشباع نفسى دائم وفى اتزان نفسى دائم : وهذه هى الصحة النفسية الاساسية : نتيجتها : حسن الخلق ، نتيجتها مكارم الاخلاق ومعاليها والبعد عن الدنيا ، هذا هو الانسان الحق : هو خير كله ومصدر سعادة لمن حوله .

وأكبر علامة لحب الله عز وجل : ان يكون كل حب فى الوجود مصدره حب الله تعالى ، وألا يتخذ أعداء الله تعالى أحببا له ، من دون المؤمنين .

قال الله تعالى (ولا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير - ٢٨) سورة آل عمران .

ويقول الله تبارك وتعالى (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى
الاذلين - ٢٠ - كتب الله لاغلبن أناورسلى : ان الله قوى عزيز - ٢١ - لاتجد
قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم
أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم
بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله
عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون - ٢٢ -) من
سورة المجادلة .

ويرشدنا الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم الى اقصر الطرق وأقربها الى
الله عز وجل ويدلنا على طريق السعادة الذى لا شقاء فيه فيقول :

١ - ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه
مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا الله تعالى وأن يكره أن يعود فى الكفر
بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار (رواه البخارى ومسلم)

٢ - (ان من الايمان أن يحب الرجل رجلا لا يحبه الا الله من غير مال اعطاه
فذلك الايمان) رواه الشيخان . وفى حديث آخر (من سره أن يجد حلاوة
الايمان فليحب المرء لا يحبه الا الله) رواه الحاكم .

٣ - لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين (رواه البخارى)

٤ - (الذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى
تصابوا .

الا ادلكم على شئ اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم » رواه مسلم .
وافشاء السلام عام لا كما يظن البعض انه المصافحة باليد أو بالايماء
ان افشاء السلام يشمل كل عمل صالح يؤدى الى اقرار السلام بين الناس
ورفع الخصومة بينهم واقرار الحب فى الله بينهم هو السبيل الوحيد لوجود
السلام الحقيقى .

٥ - (افضل الاعمال الحب فى الله والبغض فى الله) رواه الامام احمد
وابوداود والطبرانى . وفى حديث آخر (ان اوثق عرى الايمان أن تحب فى الله
وتبغض فى الله) رواه الامام أحمد والبيهقى .

فمن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لخصمه وهذا ان الامر ان متلازمان لا يفصل
أحدهما عن الآخر .

٦ - (من أحب لله وأبغض وأعطي لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) رواه
أبو داود .

٧ - وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : (يا أبا ذر أي عرى
الإيمان أوثق ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : الموالاة في الله والحب في
الله) .

وفراغ القلب من حب الله عز وجل : هو سر كل شقاء في الوجود وسبب كل
تعاسة في الحياة ، هو العذاب المقيم للبشر .

اذ هو المصدر الاساسي لكل سلوك معوج وخلق دنيء ودافع منحط .

ان علماء النفس والاخلاق والاجتماع قد فسروا السلوك بنظريات نهائية
متعددة مثل نظريات : الغرائز والانا والجنس والنظريات الاجتماعية
والنظريات المادية وكل نظرية داخلها مذاهب .

ويقابل هذا الحشد من النظريات حقيقة واحدة ولا نقول نظرية لاننا لا نجرى
وراء النظريات .

حقيقة واحدة تفسر كل دوافع السلوك، هي الحب الالهي الكامل . وهو لا
يتحقق الا بالإيمان بالرحمة الشاملة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم .

فعلى قدر الحب الالهي السليم في القلب يكون السلوك انسانيا ، وعلى قدر
فراغ القلب من هذا الحب المقدس يكون السلوك منحرفا .

واذا فرغ القلب من الحب الالهي :

لجأ الى دافع من الدوافع التي ذكرها العلماء في تفسير السلوك ، فهذه
النظريات اذن ليست على عمومها ولكنها في الواقع تفسيرات لسلوك تصلح
لتفسير سلوك شخص معين ولا تصلح لتفسير سلوك شخص مغاير . هي

تفسيرات تختلف باختلاف الاشخاص : فهي اذن ليست بنظريات عامة ولكنها طرق لتفسير سلوك منحرف فعلا .

اما السلوك الكامل فلا تنطبق عليه اى نظرية باعتراف جميع العلماء عدا الماديين منهم .

والسلوك الكامل هو الصادر عن قلب ملئ بحب الله عز وجل . والحب الالهى الكامل :

لا ينبثق الا من الايمان بالحبيب الاعظم صلوات الله وسلامه عليه .

فسر السعادة فى الوجود ،

وسر النعيم فى الحياة :

وسر الطمأنينة والاستقرار والسلام :

هو الايمان به صلى الله تعالى عليه وسلم واتباعه والاهتداء بهديه والعمل بسنته .

ومن الايمان به صلوات الله وسلامه عليه :

تنبثق كل أسباب سعادة الانسان .

ومن اتباعه صلوات الله وسلامه عليه : تنبثق كل دوافع السلوك المستنير .

ومن العمل بسنته صلى الله عليه وسلم : ينبثق كل عمل صالح فى الحياة .

وفقدان الايمان به صلى الله عليه وسلم ،

يترتب عليه وقوع الانسان فى فراغ لا نهائى :

يتجه الى ملئه بما تمليه عليه العادات أو التقاليد أو البيئة أو الحب الانانى

أو المجتمع أو الاغراض المادية لا المادة كما يقولون .

ففراغ القلب من الحب الالهى المحمدى يترتب عليه كل قسوة كما يدفع الى

كل ضلال بقدر هذا الفراغ .

هذا هو الحب الذى يعنيه العارفون .

وينسب الى القطب الدسوقي أبيات وقصائد فى الحب فى كتاب الجوهرة

نذكر منها :

فمعناه في قلبي وذكره في فمي
دعوني فلي مولى اذا ما دعوته
ولي منه وصل كلما رمت وصله
ومما ينسب اليه قوله :

يا حليف الغرام رفقا فهذا
فتمنى ان شئت ما شئت منا
انما الحسن والجمال مصون
فدع الحب وارفع الحجب وانظر
ومنه :

الهابنا ان زرتم او صددم
فما استحسننت عيني مما رأيته
اتيه على الاكوان عجبا بحبكم
دعاني اليكم جودكم فأجبت به
فان تحرموني نظرة من جمالكم
واني لا آتي أرضكم لا حاجة
ومنه :

يا سكارى الشوق عنا لابرار
ان تكن في حينا ذا هممة
يا سارى حينا طيبوا فقد
وجلا خمرته في كأسها
يا قاتل الحب هذا نوره
ومنه :

لله قوم أخلصوا في حبه
قوم اذا جن الظلام عليهم
خمس البطون عن الحرام تعفنا

ومثواه عندي في أجل مكان
أجاب وان أبطأت عنه دعائي
فنحن على التحقيق مجتمعان

وجه مولاي للقلوب تجلى
وتهنى بوصلنا وتملى
لجليل على الوجود تجلى
حسن من قد علا وعز وجلا

وحقكم لن احل عقد ولاكم
سواكم ولا سرت لغير رضاكم
واغدوا وقلبي آمن من جفاكم
وعادبتكم ان تجبروا من أتاكم
فلا تحرموني شمة من شذاكم
لعلى أراكم او أرى من يراكم

ما على من هام في الحب جناح
ابذل الروح فما الحب مزاح
سمح الساقى ونادى لابرار
فاكتسى الليل ضوء الصباح
قد تجلى وشذا المحبوب لاح

فأحبهم واختارهم خداما
قاموا هنالك سجدا وقياما
لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وكان يقول : الحب بحر عميق . ولاوصل احد الى عشر معشاره ، ولاالى
بعض بعضه لان المحبة لا تتناهى . ما كل من دخل الحمى سمع النداء من أهله
أهلا بهذا الزائر :

تريدون ادراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من ابر النحل

وكان كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات "

ولقد جعلتك فى الفؤاد مؤانسي فالجسم منى للحبيب مجالسي
وابحت جسمى من أراد جلوسى وحبيب قلبى فى الفؤاد جليسي
واخترنا من طبقات البقاعى هذه الابيات منسوبة اليه رضى الله تعالى عنه :

اكرم هوانا ان أردت رضانا واجعل وقوفك ما حييت ببابنا
واحذر تبج بسرنا لسوانا فلعلك تحظى بنا وترانا
نحن الكرام ومن اتانا قاصدا نال السعادة عندهما يلقيانا
فانهض بعزم لا تكون مقصرا وانظر ترى العشاق حول حمانا
مستبشرين بكل ما قد املوا فرحين اذ شهدوا الجمال عيانا
هاموا بسكرتهم جهارا عندما رفع الحجاب وشاهدوا معنا
فهم الكرام ولا كرام سواهم والقلب معلق بهم ولهانا (١)
ويقول :

ارفع امرنا نرفع لأجلك جنبنا فانا منحنا الرضا لمن احبنا
ولا تعترضنا فى الامور فكل من اردناه اجتبينا حتى احبنا
اما تستحى منا فيكفيك ما جرى اما تخشى من جفانا يا محبنا (٢)
فلو ذقت من طعم المحبة حبة عذرت الذى امس قتيلا يحبنا
هذا هو الحب الكامل الذى لا يحيد عنه الانسان لو ذاقه ، يقول العارف ابنى
الحسن الجوسقى :

روحى اليك بكلها قد اجمعت لو أن فيك هلاكها ، ما اقلعت
تبكى اليك بكلها فى كلها حتى يقال من البكاء تقطعت
يقول العارف أبو المواهب التونسى : علامة الوجد يا قوم وجدانه فى اليقظة
والنوم :

جمالك فى مخيلتى وطرفى مقيم ليس يخفى بعد كشف
ان استيقظت كان بك ابتدائى وان اغفيت كان عليك وقفى

(١) و (٢) طبقات الابرار للبقاعى ق : ١١٩ .

ولفحات المحبة الالهية لعزتها تحرق كل حجاب وصلت اليه فلا يطيق المحب
أى ميل يشغله عن مولاه :

ولى الله ليس له أنيس سوى الرحمن فهو له جليس
يذكره فيذكره فيبكي وحيد الدهر جوهـره نفيس

فى درجات الشرب :

عندما يتحدث العارف عن مقامات المحبة لابد من أن يبين درجات الشرب ،
اذ أن شرب المعانى القدسية يكون على قدر ما أوتى العارف من محبة .

يقول الجلال لكركى : (٢) .

(ولأسناؤنا فى الشرب وغيره بحقائقه وجوهرته اشارات رائعة لهاوقع فى
القلوب : منها :

(واذا شرب كأس المدام وصف الاقدام فى الليل والظلام بين يدى الملك العلام
ذى الجلال والاكرام ، دخل فى حلل الوقار ، بالذكر والتذكار ، وكشفه عن
المغيبات وهو فى الدار ، ولاحت عليه لوائح الولاية ، وخلعت عنه خلع
العناية ، وقلد بسيف الكفاية ، ورزق من سيده ومولاه الهداية ، ثم ينتقل من
هذا المقام الى عالم الذكر الجلى الى عالم الذكر الخفى الى السكون الوفى :
سكون القلب تحت القدرة فلا يسمع عند ذلك للقلب الا همسا ، لا حركة ولا
حسا) .

وصفاء المعاملات يؤدى الى ذوق المعانى وهو أول درجات شهود الحق
بالحق من البوارق المتوالية مما يسمونه التجلى البرقى ، فاذا زاد وبلغ أوسط
مقام الشهود سمي شربا فاذا بلغ النهاية سمي ريا وذلك بحسب صفاء السر عن
ملاحظة غيره .

يقول الجلال لكركى : (فالمراد بالشرب فى كلامهم « النور الساطع عن
جماله ، والمراد بالكأس اللطف الموصل ذلك الى أفواه القلوب ، وبالساقى :
المتولى للمخصوصين والصالحين من عباده وهو من قبل الله تعالى العالم
بمصالح أحيائه . فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى بشيء نفسا أو

(١) لسان التعريف — مخطوط — ق ٢٤ .

نفسين (١) ثم أرخى عليه الحجاب فهو الذائق المشناق ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقا ، ومن توالى عليه الأمر ودأب عليه الشرب حتى امتلات عروقه ومفاصله من الانوار ، فذاك هو الرى . وربما غاب عن المحسوس والمفعول فلا يدري ما يقال ولا ما يقال فذاك هو السكر، وقد تدور عليهم الكاسات وتختلف لديهم الحالات ويردون الى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تراحم المقدورات فذاك وقت تصحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم » (٢) .

والقوم تختلف مراتبهم فى الشرب : فيسقى كل بالتدريب بعد التدريب والتهذيب على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة والحق يتولى ذلك منهم . ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء ، وأكابر المؤمنين ، فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئا ، فما ظنك بعد بالذوق ، وبعد بالشرب ، وبعد بالرى . وبعد بالسكر بالمشروب . ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما السكر أيضا كذلك . والكأس معرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه ، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة ، وتارة يشهدا معنوية ، وتارة يشهدا علمية : فالصورة حظ الابدان والانفس ، والمعنوية حظ القلوب والعقول ، والعلمية حظ الارواح والاسرار . فيا له من شراب ما أعذبه : فطوبى لمن شرب منه وداوم ولم يقطع عنه .

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة وقد يسقون من كؤوس كثيرة وقد يسقى الواحد بكأس وكؤوس ، وقد يختلف الأمر حسب تعدد الكؤوس ، وقد يختلف الشرب من كأس واحدة ، وإن شرب منه الجم الغفير من الإحبة) .

ويقول الامام القشيري : (٣)

(ومن جملة ما يجرى فى كلامهم الذوق والشرب ويعبرون بذلك عما يجدونه

(١) أى لحظة أو لحين أو لحظة أو لحطين .

(٢) ما بين هلامنى التنصيص اقتباس من كلام الامام الشاذلى ، ولم يشر المؤلف الى ذلك .

(٣) الامام عبد الكريم بن هوازن القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ) الرسالة القنيرية ص ٣٩ - ط القاهرة ١٩٥٧ .

من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبوادر الواردات : وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرى ، فصنفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى ، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ، ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الرى : فصاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاح ، ومن قوى حبه تسرمد شربه ، فاذا دامت تلك الصفة لم يورث الشرب سكرًا ، فكان صاحبًا بالحق ، فانيا عن كل حظ ، لم يتأثر بما يرد عليه ، ولا يتغير عما هو به ، ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب ، ومن صار الشرب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق دونه ، وانشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى فهل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفيذ الشراب وما رويت
ويقال كتب يحيى بن معاذ (١) الى أبى يزيد البسطامى (ههنا من شرب
كأسًا من المحبة لم يظما بعده) فكتب اليه أبو يزيد (عجبت من ضعف حالك
ههنا من يحتسى بحار الكون وهو فاغر فاه يطلب المزيد) .

وينسب الى القطب الدسوقى أبيات وتقصائد فى الشرب معظمها فى كتاب
الجوهرة ، ونذكر منها هذه المختارات :

يا ساقى القوم من شذاه الكل لما سقيت تاهوا
طابوا وبالسكر فيك غابوا وصرخوا باللهوى وفاهوا
يا عاذلى خلنى وكأسى فليست تدري الشرب ما هو
واستمع الى نغمات المثنى تقول يا هو لبيك يا هو
ما قلت للقلب أين حبي الا وقال الضمير ها هو
ما شرب الكأس واجتلاه الا محب قد اصطفاه
ومما ينسب اليه :

سقانى الحب كاسات الوصال (٢) فقلت لخمرتى نحوى تعالى

(١) العالم الواعظ الصوفى يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ : وكان يقول (طلب العاقل للدنيا أحسن من ترك الجاهل لها) (اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين) أى الذين يتعبدون قبل أن يتعلموا فروض الدين — راجع طبقات الصوفية للإمام أبى عبد الرحمن السلمى من ٩٨ — ١٠٤ ط ليدن ١٩٦٠ .

(٢) هذه الأبيات تنسب أيضا الى القطب الجيلانى ضمن قصيدته الخيرية التى تبدأ بنفس المطلع ، راجع الفيوضات الربانية : ص : ٤٦ .

سعت ومشيت نحوى فى كؤوس
 أنا الباز الشهير لكل شيخ
 مريدى لا تخف واعلم بأنى
 ومن ذلك قوله :

قم فذق من كأس عشقى
 هى للقلب شفاء
 هى للمعين اذا ما
 هى للأرواح راح
 هى للمشفق نور
 خمرة بل أى خمرة
 هى للسر مسرة
 جلّيت فى الكأس قرة
 هى للاشباح حضرة
 هى للعشاق جمرة

المجذوبون :

وفيههم يقول (لا تكليف على من غاب (١) بقلبه فى حضرة ربه ما دام فيها
 فاذا رد له عقله صار مكلفا) وهذا (٢) حال المبتدئين وأما الاقوياء فالتكليف
 لهم دائم لقوتهم ، فلا يفوتهم فرض ولا سنة بخلاف المبتدئين يجب عليهم قضاء
 ما فاتهم مدة غيبتهم ، ولذلك لما قيل للجنيّد (٣) : ان الشبلى (٤) يغيب عن
 حسه فقال : هل يرد له عقله أوقات الصلاة ؟ قالوا : نعم . فقال الجنيّد :
 الحمد لله الذى لم يجر على لسانه ذنب) .

والجذب الذى يقصده الصوفية هو دوام اقبال الباطن اقبالا كلياً على الله
 تعالى حتى يغيب القلب فى حضرة الرب تبارك وتعالى . وهو قسمان : جذب
 سبقه أو تلاه أو اقترن به سلوك ، وجذب مجرد بدون سلوك .

يقول الضياء الكمشخانوى (واعلم ان الشريعة المحمدية لمن تأمل جميع

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٢) الطبقات الوسطى ظهر ق ١٠٣ .

(٣) امام الصوفية فى عصره الجنيّد بن محمد القواريرى ، البغدادي توفى ببغداد سنة
 ٢٩٧ هـ . واليه تنتهى معظم أسانيد الصوفية .

(٤) هو أبو بكر بن جحدر الشبلى كان من الولاة ثم ترك المناصب وسلك التصوف وصحب
 الجنيّد وطبقته ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤ هـ . ولما حضرته الوفاة : قال لمن حضره (على
 درهم واحد مظلمة ظلمته أيام ولايتى ! وقد تصدقت عن صاحبه بألوف وما على قلبى أعظم
 منه) — فتأمل أدب هؤلاء الذين عرفوا الاسلام وعملوا به — كيف يرى حقاً واحداً من حقوق
 الناس أثقل على نفسه من الجبال . وتحضره الوفاة فترتد من ملاقة الله عز وجل حين يتذكر
 هذا الحق ! هذا هو التصوف .

الاحكام المشروعة فيها وعمل بها على الوجه المشروع دون البدعة ، داعية الى
تحصيل الجذب الالهى) •

ويقول الامام أحمد الدردير رضى الله تعالى عنه فى منظومته للاسماء
الحسنى :

ومن علينا يا ودود بجذبة بها نلحق الاقوام من سار قبلنا

وهناك مجذوبون انفردوا بالجذب وحده من غير سلوك ، وهؤلاء لا يصبح
الاقتداء بهم فى أفعالهم ، بل يسلم لهم حالهم ولا يعترض عليهم •

وينسب إلى القطب الدسوقي أبيات وقصائد فى كتاب الطبقات الكبرى للشعرانى .

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| سقانى محبوبى - بكأس المحبة | فتت عن العشاق سكرأ بخلوتى |
| ولاح لنا نور الجلالة نورأضاء | لصم الجبال الراسيات لدكت |
| وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً | أطوف عليهم كرة بعد كرة |
| وناد منى سرأ بسر وحكمة | وأن رسول الله شىخى وقدوتى |
| وعاهدنى عهدأ حفظت لعهد | وعشت وثيقا صادقاً بمحبتى |
| وحكمتنى فى سائر الأرض كلها | وفى الجن والأشباح والمردية |
| وفى أرض صين والصين والشرق كلها | لأقصى بلاد الله صحت ولايتى |
| أنا الحرف لا أقرأ لكل مناظر | وكل الورى منى أمر ربه رعيتى |
| وكم عالم قد جاءنا وهو منكر | فصار بفضل الله من أهل خرقنى |
| وما قلت هذا القول فخرا وإنما | أتى الأذن كى لا يجهلون طريقتى |

التحقق بآداب الشريعة

هو أساس الصحة النفسية الكاملة

لا يوجد تعريف موحد للصحة النفسية يصلح للتقييم ، والتعاريف التى وصل اليها العلماء انما هى تعاريف تمتاز بأنها :

نسبية وهذه النسبية قد اكتسبتها من ارتباطها بثقافة واضع التعريف ومذهبه النفسى بل وعقيدته ، وعيب التعاريف النسبية أنها تصلح للصواب وللخطأ على وجه سواء ، فهى تدور فى فراغ ينتهى الى لاشئ .

ومن عيوب هذه التعاريف أنها غير محدودة لانها مصاغة فى قوالب صالحة لكل احتمال فى المجال النفسى .

ومن هذه التعاريف ،

انها — أى الصحة النفسية — ر التوافق او التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة مع القدرة على مواجهة الازمات النفسية العادية التى تطرأ عادة على الانسان ، ومع الاحساس الايجابى بالسعادة والكفاية (١) .

فما هو نوع هذا التكامل بين الوظائف ؟ وما هى هذه الوظائف ؟ أم هى مجرد كلمة تقال لسبك صياغة التعريف دون أن توصل الى نتيجة .

وهل فى الامكان وضع حد فاصل بين الازمات العادية وفوق العادية ؟ حتى يمكننا أن نحكم على الشخص الذى يواجه الاولى بانه سوى والذى لا يواجهها بأنه غير سوى أو مريض . ولا يصح علميا وضع مثل هذا الحد مهما كانت درجة مرونته ، فما يصح أن يكون سببا فى أزمة نفسية عادية عند أحد الافراد فى مجتمع معين قد لا يسبب أية أزمة عند شخص آخر فى مجتمع آخر .

والتعريف يحيلنا على الاحساس بالسعادة والكفاية : غاية سعادة ؟ وأية كفاية فقد يسعد شخص بما يشقى به آخر وقد يكتفى شخص بما لا يكتفى به الآخر . بل قد تكون الكفاية نفسها من الادلة المرضية التى تشير الى الانحراف النفسى . كالشخص الذى يشعر بالكفاية كلما سلب الآخرين حقوقهم . أو

(١) د. عبد العزيز القوصى : أساس الصحة النفسية ص ٦ .

بالسعادة الغامرة كلما فرض الذلة والعبودية على الغير ، ارضاء لغريزة السيطرة المتأججة فى نفسه . وقد يتوافر الاحساس الايجابى بالسعادة والكفاية عند مجرم ولا يتوافر عند بطل من الابطال .

فالتعريف احوالنا على سعادة أو كفاية ان صلحا أساسا للصحة النفسية لفرد ما ، صلحا أساسا لتعاسة وشقاء فرد آخر .

والادق من هذا أن يقال أن للصحة النفسية مفاهيم ومعان كثيرة لا يمكن الفراغ منها لكثرتها وهى تتعدد بتعدد واضعيتها . ومنها ما هو سلبى ومنها ما هو ايجابى ، وهاك احدى تعاريف المفهوم الاخير :

المفهوم الايجابى (يأخذ طريقا ايجابيا واسعا شاملا غير محدود : انه يرتبط بقدرة الفرد على التوافق مع نفسه ومع المجتمع الذى يعيش فيه ، وهذا يؤدى به الى التمتع بحياة خالصة من الاضطرابات ، مليئة بالتحمس وهو يرضى الفرد عن نفسه ، فلا يبدو منه ما يدل على عدم التوافق الاجتماعى كما لا يسلك سلوكا اجتماعيا شاذا ، بل يسلك سلوكا معقولا يدل على اتزانه الانفعالى والعاطفى والعقلى فى ظل مختلف المجالات وتحت تأثير جميع الظروف) (١) .

(ان هذا الشخص وأمثاله أسوياء لا محالة لانهم يتمتعون بقدر كاف من الصحة النفسية حيث يمكنهم أن يعيشوا فى وفاق وسلام مع أنفسهم من جهة ومع غيرهم فى محيط الاسرة أو العمل أو المجتمع الخارجى من جهة أخرى) (٢) .

وحتى هذا المفهوم الايجابى لم يحز القبول لدى علماء النفس ، لانه غير محدود . وقد توجه اليه نفس الاعتراضات السابقة ويزاد عليها : أنه لا يصح الربط بين خلو الحياة من الاضطرابات وبين الحماس ، ولا يصح أيضا أن يحكم على الشخص بانه سوى لمجرد انه يرضى عن نفسه .

فالخبيل راض عن نفسه والمجرم راض عن نفسه أحيانا ! ولا يصح أن يؤخذ عدم التوافق الاجتماعى دليلا على انحراف الصحة النفسية فقد يكون المجتمع منحرفا فى نقطة معينة فيصبح كل من يحاول اصلاح هذا العيب مريضا . ثم

(١) و (٢) د. مصطفى نهى : الصحة النفسية فى الاسرة والمدرسة والمجتمع ص ٨ .

ان المجالات المشار اليها وكذلك الظرف فكلها نسبية لا يصح القياس عليها لانها تختلف بحسب الثقافات والشعوب .

بل يمكن دون تردد اعتبار جميع المصلحين الاجتماعيين أو الاقتصاديين أو السياسيين أو العسكريين أو العلماء أو الفلاسفة يمكن اعتبارهم - بناء على تعاريف الصحة النفسية - مرضى ومنحرفين ، لانهم عاشوا فى حرب لا هوادة فيها مع المجتمعات التى انتموا اليها ! وهذا الرأى لا يوافق عليه أحد بشليل أن الامر ينتهى باعتراف الشعوب بفضل هؤلاء وتخليد ذكراهم ولو بعد مئات السنين .

ويذهب آخرون الى أن (الحياة الكاملة هى الحياة المنوعة والشخص السعيد هو الذى يقدر على اكتساب مرونة التغيير وسرعة التكيف) .

وينادى هؤلاء « بوجوب الخضوع للقواعد الثابتة التى تتضمن الحياة الانسانية كما هو الشأن فى النبات » (١) أى أن الطمأنينة والراحة النفسية يمكن التماسها فى مجال الحياة الطبيعية .

ومدارس الطبيعيين لم تفعل شيئاً لتفسير المشكل ولا لحله : كل ما هنالك أنها استبدلت تعبير الصحة النفسية بالحياة الطبيعية مع بقاء جميع الاعتراضات الموجهة كما هى بدون حل :

ما هى الحياة الطبيعية أولاً بالنسبة للانسان ؟

وهل فى الامكان أن نخلق حياة طبيعية حتى نطالب الناس بأن يكونوا طبيعيين ؟

ان الراحة النفسية تختلف اشد الاختلاف من فرد الى آخر وهى ترتبط ارتباطاً أساسياً بالعقيدة والمبادئ ، فهذا راحته النفسية فى الكفاح والجهاد ونصرة الحق ، وهذا راحته النفسية فى التطفل على الغير والتضليل والغش والتزوير ونشر الباطل .

لا يمكن ان يبت احد بحكم نهائى فى الصحة النفسية الا اذا وضع مركز الانسان فى الوجود وبين الاسباب الحقيقية لسعادة الانسان ويترتب على

(١) د . أبو مدين الشافعى : الاطمئنان النفسى - ص ١٥٩ .

ذلك تفصيل القيم التي يراعيها كل فرد فى حياته النفسية وحياته . .
الاجتماعية .

ان الانسان اما أن يستمد وجوده من خالقه سبحانه وتعالى : وحينئذ يلتزم
بالاداب والتكاليف التى جاءت بها الشرائع .

وأما أن ينقطع عن الله تعالى ويركن الى المخلوقات ويحيط نفسه بوجود من
عندياته يختلف نوعه بحسب الظروف والثقافات والعادات والتقاليد الخ .
وكما كان انقطاع الفرد عن الله عز وجل أشد كلما كان تعلقه بالاكوان أقوى ،
فاذا ما كمل انقطاعه عن الله عز وجل كمل وجوده المزيف الذى حل محل ايمانه
بالله تعالى . وأصبحت حياته عبارة عن سلسلة من الجرى المتصل المسعور
وراء الابقاء والمحافظة على هذا الوجود الذى يربطه على الدوام بوجود وهمى
فى الداخل وارتباط نسبى مع الموجودات فى الخارج . وبهذا الارتباط يحافظ
الفرد على نفسه من الدخول فى دائرة العدم .

ولذا نجد أن أمثال هؤلاء كلما فرغوا من شاغل هاجمهم القلق الوجودى
ودفع بهم فى محاولات وجودية جديدة تنتشلهم من وهدة الفراغ — العدم —
الذى يطاردهم . وهكذا لا يستقر بأحدهم قرار حتى تنتهى حياته .

وقد حاولت الفلسفات الوجودية اللاحادية فى القرنين ١٩ و ٢٠ أن تحل هذا
المشكل فأضافت محاولات جديدة للهروب من الايمان بالله تعالى .

وهيهات أن يهرب المخلوق من خالقه ، والله من ورائهم محيط ، فلا ملجأ منه
الا اليه ، ففروا الى الله ولا تفروا منه ، لانكم فى ورطة لا حل لها سوى الايمان
الصحيح بالله عز وجل الا وهو الايمان المحمدى ، فلا حياة صحيحة بدونه لانه
يتدفق من الوحي القرآنى اللانهاى .

فالوجود ليس من صنع الانسان لانه لم يخلقه : ان الوجود الحق كله من الله
عز وجل .

فلا يحدد سعادة الانسان سوى كتاب الهى محيط بأسرار الوجود ومصير
الموجودات وحقائق الكون كله .

ولو كان الانسان خالقا لوجوده الذاتى كما زعم الملاحدة اذن لامكنه أن
يخلق وجدا مثل وجوده : وهذا خلق الله فأرونى ماذا خلقتم من دونه ؟ !

لا نقول للملحد اذا كنت أنت قد أوجدت نفسك : فاخلق شبيها لك أو مثالا لك . بل نقول له ، لماذا تحيا حياة كلها ضلال مبين وصراع مع النفس ؟ لماذا تعاني من البؤس والشقاء ؟ ولماذا تجرى وراء السعادة وانت تستطيع أن تخلقها ؟ وعلى ذكر السعادة : هل فى استطاعة مخلوق أن يسعد آخر ؟ قانداً كان الانسان يجرى وراء السعادة وهو لا يدري أين هى ولا كيف يمنحها فعلام يتجبر ويدعى أنه يخلق نفسه !

ولو كان فى استطاعة الانسان أن يوجد نفسه لكان فى أمكانه أن يستبدل وجودا بوجود كلما بدا له ذلك ، ولما كان فى حاجة الى فلسفات أثر فلسفات يحاول بها أن يهتدى الى الحقيقة فيضيف فلسفة جديدة لا تحل من المشكل شيئاً لأنها لا تمس الحقيقة من بعيد أو قريب .

ان المخلوقات كلها لاتستطيع ان تخلق ذرة من عدم :

« ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب - ٧٣ . ما قدروا الله حق قدره : ان الله لقوى عزيز - ٧٤ » من سورة الحج .

هل هناك أبسط من بذرة الثمرة التى تلقىها بعد أن تأكل الثمرة ولا تلقى لها بالا ! لو اجتمع علماء الارض ومثلهم معهم لما استطاعوا أن يصنعوا بذرة مثلها نزرعها فتنبت شجرة مثمرة نأكل منها ثمرا جنيا .

« أفرايتم ما تحرثون ٦٣ ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٦٤ ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ٦٥ انا لمغرمون ٦٦ بل نحن محرومون ٦٧ أفرايتم الماء الذى تشربون ٦٨ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ٦٩ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ٧٠ أفرايتم النار التى تورون ٧١ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ٧٢ » سورة الواقعة .

حقا لقد ضل الانسان ضلالا بعيدا حينما اراد ان يؤسس قواعد وجوده على أساس انكار وجود الخالق أو على أساس ان الانسان خالق لوجوده النفسى ، وضل ضلالا بعيدا حينما نسى ايمانه بالله تعالى ونسى النور الذى أنزل لهداية العالمين ، وأخذ يلهث لبيحث عن الحقيقة وسط ضلالاته وأوهامه التى يعيشها .

ولم يجن من وراء ذلك سوى الاغراق فى الظلمات والامعان فى الفجور بدعوى العلم والبحث عن الحق بعيدا عن الحق ! وأى حقيقة وراء ترك الحق سوى الدمار والخراب الشامل للبشر والمسوخ النفسى للانسانية !

ان وجود الانسان اذا ما انفصل عن وجود خالقه : دخل فى وجود من عندياته له نظرياته وآراؤه ومعتقداته التى تناسبه .

فالمحجوب المنقطع عن الله تعالى لا يمكنه أن يغفل عن ذكر الاكوان طرفة عين ولو مزقته اربا ، ويؤسس قيمه ومعاييره ونظرته للوجود على هذا الاساس مهما كان باطلا .

وبالعكس من المحجوب : نجد أن المؤمن الحق لا يطيق أن يغفل عن الله تعالى طرفة عين ، وان غفل شعر بالضيق والقلق يمزقه ولا يفرج عنه الا اذا عاد الى الحضور مع مولاه وتاب من غفلته ورجع عنها : قوام وجوده الروح القرآنى لا يطيق الانحراف عنه ولو مزق اربا اربا . وقد يسمع المحجوب عن هذه حالته فيستبعد حصول ذلك لانسان ، والمسألة ليست بالعجيبة ولا بالفريدة فى بابها ، وكما يعجب المحجوب من حال العارف ، يعجب العارف من حال المحجوب ويرثى له ويبذل جهده لينقذه من البلاء المحيط به .

فالوجود الحق والكمال الانسانى أساسه العلمى والعملى اتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والتأديب بأداب دين واحد هو الاسلام واذ ختمت الرسالات بالرسالة المحمدية الخالدة فقد انسد باب الكمال ولم يبق سوى باب واحد فقط لا يوجد سواه : هو باب اتباع هدية صلوات الله وسلامه عليه فمن اهتدى به صلى الله عليه وسلم فقد سعد السعادة الكاملة .

فمن أحب الله تعالى وجب عليه أن يتبع الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم ومن أطاع الله وجبت عليه طاعة امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه .

ولا يؤمن المؤمن حتى يكون صلوات الله وسلامه عليه أحب اليه من نفسه وولده وماله والناس اجمعين فلا ينحرف عن الصراط المحمدى مهما لاقى من شدة أو مقاومة . واذا ما تمكن حبه صلوات الله وسلامه عليه من القلب دام حضوره مع الله سبحانه وتعالى وأصبحت الافعال كلها خالصة لله عز وجل ووصل الانسان الى السعادة الكاملة حينئذ .

لأساس كل بلاء هو الانقطاع عن الله تعالى ، والانسان اذا ما انقطع عن خالقه انغمس فى وجود من عندياته : وجود يتمثل فى أية شهوة نفسية كالجري وراء الشهرة أو البحث عن المجد أو المال أو الجنس أو السلطة أو الرياسة أو أية شهوة حسية أو معنوية ويتحول الى شيطان فيما تخصص له وفيه ، ولا يزال يوغل فى الظلمات حتى يذوب وجوده فيها فلا يدرك نفسه بعقله ولا بحسه ، فهو كرجل منوم يسير تبعا لما تمليه عليه علاقاته بالاكوان ، التى احتجب وجوده الحق خلفها ، فيقضى العمر فى طلبه وما هو ببالغه .

ولا نجاة له الا اذا حقق وجوده وخلصه من شوائب الحجب ورجع الى خالقه عز وجل ، فيهرب من وجوده الوهمى الذى صنعه ليضل فى متاهاته ويرجع الى مولاه عز وجل فلا يغفل عنه فى جميع لحظات وجوده .

وقع لبعض العارفين أن ملكامن الملوك قال له تمن على ؟ فقال له العارف الى تقول هذا ! ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك وقهرتهما وقهراك !

فقال الملك وما هما ؟ فأجاب : هما الشهوة والحرص . فأنت عبد عبدى فكيف أتمنى عليك !!

والى هذا المعنى اشار العارف الكبير السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى فى ميميته :

عبيد ولكن الملوك عبيدهم وعبيدهم أضحى له الكون خادما

نستطيع من هذا البيان أن ندرك معنى الصحة النفسية عند العارفين بالله تعالى .

فالعارفون يقيسون الصحة النفسية بمقدار مبادرة النفس الى اتباعه صلوات الله وسلامه عليه فى جميع شئون الحياة ، ولا يتحقق الاخلاص لله عز وجل الا بهذا الشرط .

ومن انحرف عن النهج المحمدى كان من الحتم المقضى أن يغرق فى لجج الشواغل والدواعى التى تدعوه الى الاعراض عن الحق سبحانه ، ومثل هذا لا نصيب له فى أى مقام من مقامات أهل السعادة الدائمة الخالدة . فمن ينابيع الشريعة المحمدية تتفجر السعادة الكاملة التى لا يشوبها ، ولا يعترىها نقص :

نهي التي تشرح الصدر للايمان ، وتملا القلب باليقين ، وتكشف عن البصيرة
الغشاوة التي تحول بينها وبين المشاهدة ، وتزيل عن السمع هذا الوقر الذي
يصمه عن سماع كلام الله سبحانه ، وتفتح للنفس ابواب الخروج في مقامات
أهل الايمان ، وتقلب المؤمنين في أحوال المحبة والشوق والانس بالله والخشية
والحياء منه تعالى ، وتخلع عليهم حلل شعب الايمان التي تقتضيها الاسماء
الحسنى والصفات القدسية فيتحقق اقبالهم الكلى على خالقهم ولا يطيق أحدهم
صحبة شيء يحجب وجوده عن موجدده، فهو يترقى في معارج الكمال الى مالا
نهاية .

التربية الصوفية مؤسسة على أرقى ما وصل اليه الانسان في علوم النفس والتربية والأخلاق

عرف بعض التربويين العملية التربوية بأنها (ذلك التأثير المقصود الذى يأتى عن طريق تسليط مؤثرات وقوى ثقافية مقصودة على التعاليم والقيم والاتجاهات التى يكتسبها الافراد خلال عملية التطبيع الثقافى ، وان هذا التأثير يعدل فى الشخصية فى اتجاه معين وهو اتجاه القدرة المتزايدة على السلوك الاجتماعى المستنير) (١) .

ويختلف تعريف التربية باختلاف وجهة نظر الباحث : (فطالب علم البيولوجيا قد يعرفها بأنها عملية تكيف الفرد وملاءمته للبيئة ، وطالب علم النفس قد يرى انها وطرق التعلم صنوان ٠٠ على أن طالب علم الاجتماع التربوى قد يرى أن كل هذه الوظائف تدخل فى صميم عملية التربية ومن ثم فهو يعطينا تعريفا شاملا لها : فهى عنده عملية التفاعل والتكيف الموحه توجيهها شعوريا والتى يحدث عن طريقها تغيرات فى سلوك الفرد ، وبالتالي تغيرات فى سلوك الجماعة التى ينتمى اليها هذا الفرد ، كما أنها عملية اكتساب المهارات المختلفة التى تساعد الفرد على تعديل الخبرات الانسانية وتعديل بيئته بما يتفق واشباع حاجاته المتغيرة فى بيئته المتغيرة) (٢) .

وبناء على ذلك لا يمكن تحديد أى عملية تربوية بعيدا عن الوسط الثقافى والطبيعة الانسانية ومعايير السلوك . كما أنه يتوقف على نجاح العملية التربوية صلاحية القيادات المنبثقة عنها .

فالتربية ترتبط ارتباطا كليا بالقيم والعلاقات الانسانية وتكوين العواطف والخلق . ولا شك أن هذا كله يتوقف على معرفة الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل : والا لما صحت قيمة ، ولما اعتدل خلق ولما صحت علاقة بين اثنين .

(١) د. صادق سيمان : الفلسفة والتربية ص ١٤٥ . ط ١٩٦٢ .

(٢) د. محمد الهادى عفيفى : التربية والمجتمع ضمن كتاب مفاهيم جديدة فى التربية

ص ٣٨ .

ولما أن تقرير الخير النهائي والشر النهائي ليس فى مقدور البشر اذ من يقرر ذلك يجب أن يكون محيطا بأسرار الوجود وحقائقه ، ولما أن كل تقرير بشرى فى هذا الموضوع انما هو تقرير نسبى يصلح للصواب وللخطأ على حد سواء ويتغير بتغير الثقافة والبيئة والفرد والمجتمع ، ويختلف باختلاف الزمان والمكان .

فان القيم لا تكون ثابتة ولا صحيحة الا اذا كانت صادرة عن الوحي الالهى :
عن كلام الله تعالى الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فالقيم ،
والخير النهائي وما يتصل بها ترتبط ارتباطا لا انفصام له بالايمان بالله عز
وجل .

ولكن المدارس الاخلاقية حاولت أن تحل المشكلة الاخلاقية بعيدا عن الوحي وتأثرت فى ذلك بالعلوم الطبيعية ، وأخذت تتجه اتجاهها يخضع الاخلاق للملاحظة والتجربة ، وفى نفس الوقت عجزت مدارس ما وراء الطبيعة عن تقديم تفسيرات للاخلاق تقاوم النقد العلمى الصحيح ، مما أدى الى التشكيك فى قيمة علم الاخلاق بل ان هذه القيمة أصبحت لا تستطيع النهوض أمام مناقشة علم النفس الذى أخذ يحل محل علم الاخلاق .

يسح ان يوصف القرن العشرين بانه قرن علم النفس فى ميادين العلوم
الانسانية كما يسمى بالقرن الذرى فى ميادين العلوم الطبيعية .

ففى هذا القرن تفرع علم النفس وتشعب الى عشرات العلوم . مثل علم النفس الفردى والنظري والتجريبي والتطبيقي والتكاملى والسلوكى والصناعى والادارى والسياسى والحربى والاقتصادى والتجارى والاعلامى والاجتماعى والتربوى والنفسجسمى ، وعلم نفسية الطفل ، وعلوم الصحة النفسية والامراض النفسية ، والشواذ والاجرام ودخلت الدراسات النفسية فى كل مجال من مجالات النشاط الانسانى .

وهذا ما جعل الدراسات التربوية تلوى عنانها عن متاهات علم الاخلاق وتنصرف كلها الى بناء دعائمها على اسس علم النفس الذى جذبها منذ ظهوره الى ميادين البراقة ، وانتهى هذا الاتجاه بالتربية الى قرار لا مفر منه وهو فصل الاخلاق عن التربية .

وحاول العلماء اخضاع النفس البشرية لما تخضع له موضوعات العلوم الطبيعية وبذلوا ما فى وسعهم لاستخلاص القوانين التى تتحكم فى الانسان عن طريق ملاحظة الظواهر النفسية : واخذ علم الاخلاق يضمم وينكمش فى كل منطقة غزاها علم النفس .

ولم يكن هناك مفر أمام علم النفس الحديث من أن :

(أ) ينكر وجود أى دراسة مبنية على وجود الروح لانها لا يمكن أن تخضع للملاحظة والتجربة العملية . وأخذ علم النفس الحديث يتلمس الادلة التى تنكر وجود الروح فى محاولات العلماء الطبيعيين الذين يفسرون الحياة تفسيراً ذاتياً ليتوصلوا الى انكار وجود الخالق سبحانه .

(ب) لم يكن هناك مناص من الاتجاه نحو تفسير السلوك تفسيراً مادياً لا دخل للاخلاق ولا للدين فيه .

(ج) استبعدت معظم المدارس النفسية وجود الشعور من مجال الدراسات النفسية (فالواقع كله يتألف بحسب هذه الفكرة من عناصر موضوعية هى التى تقيم منها الفيزياء عالماً ومن ثم يكون العالم الداخلى مستبعداً من الواقع) .

فالمدارس السلوكية درست سلوك الانسان دراسة آلية مستبعدة العقل والشعور ، والفت أثر العوامل النفسية الباطنة كالارادة والنزوع والتفكير فى الافعال والنتائج : فالكائن الحى لا تحركه عوامل ودوافع داخلية بل منبهات خارجية . وميز آخرون بين نوعين من السلوك ليخرجوا من هذه الورطة : السلوك العقلى او الراقى ويقصدون به الافعال المتصلة بالحياة النفسية او العقلية ، والسلوك الالى ويعنون به ردود الافعال الصادرة عن الانسان بطريقة آلية .

فالمدارس المعترفة بوجود الشعور تأثرت باتجاهات العلم الطبيعى الى درجة تجعلها لاتسمح بتدخل الشعور فى أية دراسة علمية جادة، اذ لايمكنها أن تصل الى نتائج علمية مبنية على حياة تأملية باطنية .

وكان من المنتظر ان تسير المدارس النفسية فى اتجاه واحد لانها تعالج موضوعاً واحداً وهو النفس ولكنها وبالرغم من دعوتها الصادقة الى التكامل

نجد أنها غير متكاملة فيما بينها وكل مدرسة منها تنقض ما ادعته اختها .
حتى أن مدرسة نظرية الجشطالت (Gestalttheorie) أخذت تعيد بناء
العلوم النفسية من جديد على أساس منهج التفكير (الفينومينولوجى) أى
التحليل الكيفى لا الكمى للخبرة ، ورفضت قبول الثنائية الروحية المادية
للإنسان ، ولم تقبل قواعد المدارس المادية أساسا للتفسيرات النفسية إذ
أنها (تؤكد استحالة تفسير التكيف عن طريق الصدفة ، والغائية عن طريق
الميكانيزمات ، والنظام عن طريق الفوضى ، ناهيك عن استحالة تفسير الأفعال
الذكية عن طريق مجموعة من الأفعال المنعكسة ، والفكر المنطقى عن طريق
ترابطات خارجية . فالمذاهب المعاصرة بعدما استبعدت من حيث المبدأ فكرة
النظام من العالم الفيزيائى وفكرة التكيف من العالم البيولوجى لم تستطع أن
تقيمهما إلا على الصدفة) (١) .

ويمكننا أن نلمس هذا الاضطراب فى الاتجاهات النهائية لعلوم النفس فى
الثغرات الآتية :

١ - أن الأبحاث النفسية حرصت كل الحرص على استبعاد كل ما يمس
إثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى مما أجبر الباحثين على إحالة العلم على
الفاظ غير محدودة المعانى لا يدرك من وضعها معانيها النهائية وهذا فى الواقع
هروب سافر من الحقيقة : إذ أن كل حركة ادعت العلم وقصد بها تفسير الحياة
تفسيرا ذاتيا قد فشلت فشلا ذريعا . بل كلما توغل العلم فى تفسير الحياة كلما
قدم أدلة جديدة تزيد الناس ايمانا بوجود الخالق عز وجل ، فلا حياة بدون
خالق ولا يزداد الكافرون الا خسارا .

والالتجاء الى حذف كل ما يمس وجود الخالق سبحانه وتعالى مرجعه
الالحاد والكفر والجهل بالوجود أو لتحاشى الاتهام بالايمانية fedeism يعنى
الاتصال بالدين والخروج عن المنهج العلمى الموضوعى . مع أن مجرد أى فكرة
الحادية هى عين الخروج عن كل منهج علمى ، والواقع ان هؤلاء مصابون
بمرض « الحساسية الايمانية » . الذى جعلهم لا يطيقون الحضور مع الله
تعالى بوجه من الوجوه .

Paul Guillaume : Psychologie de la Forme :

(١)

ترجمة د. صلاح مخير - د. عبده ميخائيل رزق بعنوان علم نفس الجشطالت ص ٢٧٨/٢٧٩ .

٢ - عجز العلماء عجزاً مطلقاً أمام لغز الروح الانساني وصلته بالجسم مما أجبرهم على تجاهل الروح بحجة عدم الاعتراف بوجود ثنائية روحية مادية للانسان . وهذا العجز لا يبرر عدم وجود الروح التي يثبت وجودها :

(ا) الحياة الباطنية للانسان .

(ب) العقل الانساني .

(ج) الظواهر الروحية للانسان .

(د) ان تفسير حياة الانسان لا يمكن أن يكتمل الا بالاعتراف بوجود الروح .
فالتخلص من وجود الروح لم يكن مصدره الدليل العلمى ولكنه العجز عن دراسة الروح لوقوعها فى ميدان بعيد عن متناول العلم (وما اوتيت من العلم الا قليلا) والثنائية المزعومة التى خشىها العلماء انما هى ثنائية وهمية مردها العجز عن تفسير علاقة الروح بالجسم ، فهى قضية افتراضية لا علمية .

٣ - ان الظواهر النفسية باعتراف جميع العلماء لا يمكن ان تخضع للتفسير ولا للقياس الموحد ولا للتجربة لشدة تعقدها .

ومع تشعب العلوم النفسية وازدياد تخصص كل فرع من فروعها وقفت النفس البشرية شامخة أمام ابحاث العلماء وراء ضباب من الالغاز التى لا يدعى أحد أنه اخترقها ، وبقيت بمعزل عن جميع الابحاث التى لم تفلح الا فى بحث الظواهر النفسية لا غير : وهذه معرفة هامشية مجردة من كل عمق لانها قاصرة على ظواهر معينة مرتبطة بظروف نفسية معينة لا يصلح تعميمها .

ولا يستطيع عالم له وزن أن يدعى أنه قد تمكن من معرفة ماهية النفس أو الروح أو العقل وان يحدد صلة وجود الانسان بهذه الاسماء .

ولقد حاول العلماء الماديون أن يوجهوا ضربة قاضية الى الاديان والعقائد : وبالتالى الى الايمان بوجود الله عز وجل فحاولوا بكل امكانياتهم أن يحلقوا الحياة فى أبسط صورها ولو فى خلية النواة ولكنهم انقلبوا خاسئين صاغرين وبقي سر الحياة والوجود بعيدا عن متناول المخابر والمجاهر والمعامل ينادى بلسان الحال (قتل الانسان ما اكفره) .

وبعد : فان بديهيات المنهج العلمى تقتضى بحث موضوع النفس مرتبطا بالخالق سبحانه وتعالى ولكن بعض الباحثين يحلو له أن يسمى الخروج على

الايان الحق بالله تعالى منها علميا ! وهكذا فقد علم النفس أهم أسسه وهو ارتباط الانسان بخالقه سبحانه .

حقا ما أضعف الانسان ! ان عجزه عن معرفة نفسه لهو العجز المطلق .

ان سر النفس لا ينكشف الا بمقدار فهم الانسان فى كتاب الله عز وجل ، ففيه أسرار الحياة والوجود كما بينه صلوات الله وسلامه عليه : فالنفس البشرية لا تعرف الا على ضوء الايمان القرآنى وبيانه المسمى وهنا تبدو فى أجلى صورها ومعانيها فى جميع مستوياتها .

فالتربية الصوفية انما نجحت فيما لم ينجح فيه سواها لانها اهتمت بنور الوحي المسمى حين طبقت أقصى ما وصل اليه العلم فى ميادين التربية والنفس والاخلاق : انها تربية نابعة من مصدرين خالدين الكتاب والسنة فأخلق بها أن تهدى الى الحق فى مناهجها ووسائلها وغاياتها .

والصوفية لم يخترعوا هذا المنهج بل لقد عملوا بالشرعية التى ربطت ربنا تماما وكاملا بين معرفة النفس والتربية والاخلاق والمعاملات والعلاقات الانسانية وبين الايمان . فجعلت النفس دليلا لمعرفة الله عز وجل ، (وفى انفسكم أفلا تبصرون) — ٢١ — سورة الذاريات .

ومما تواتر بين الصوفية (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (١) .

وما دخل الكفر والنفاق على الانسان ، وما دخل الفساد والبغى على البشر مثلما دخله من باب جهلهم بأحوال النفس وحقيقتها .

(ولقد نرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون ١٧٩ والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون — ١٨٠) سورة الاعراف .

(١) قال أبو المظفر السمعاني هو مما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى يعنى من قوله . وقال الامام النووى : ليس بثابت قال ابن الغرس لكن كتب الصوفية مشجونة به يسوقونه مساق الحديث . وللحافظ السيوطى فيه تأليف سماه « القول الاتسبه فى حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه » وهو ضمن كتابه الحاوى للفناوى — الذى فى أدب الدنيا والدين للماوردى عن عائشه رضى الله تعالى عنها سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أعرف الناس بربه ؟ قال : أعرفهم بنفسه .

هؤلاء قد انسدت جميع منافذ المعرفة عندهم فانحطوا الى درجة أضل من درجة الانعام . ولو تأملوا الحقيقة واستخدموا ما وهبهم الله تعالى من آيات لمعرفة اذن لا اعتصموا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . وما رأينا قوما جهلوا أسرار وجودهم وحقيقة أنفسهم الا وهم فى أحط درك من مستويات الوجود الانسانى الحق . وما أوتى قوم من الحضارة الا بقدر المأمهم بشئون النفس وأحوالهم وأسباب صحتها وعوامل انحطاطها وفسادها . ليعرف كل فرد ماله من حقوق وما عليه من واجبات .

فواذل من تردى فى عبادة الهوى وظن أنه على يقين من ربه !
ويا تعاسة من انطمست مرآة وجوده فلم يشهد بها آيات خالقه .
ومن شأن الجهل بالنفس أن يقود الى الاغراق فى حب الشهوات من الرياسة والعلو والسيطرة وفرض الوجود على الغير ، وان يضع الجاهل موازين لهذه الامور يقيس بها مودة الناس له وصدقهم وحبهم واخلاصهم له فيكافىء ويعاقب عليها ويعيش مخدوعا ضالا مضلا فانتا مفتونا ، منقطع الاسباب عن خالقه تعالى . لا يدري من الوجود سوى الابعاد التى حددتها له خيالاته ومفاهيمه الخاصة ، ويناصب كل من دعاه الى الحق العداء .

والتربية الصوفية تقرر قابلية الاخلاق والسلوك للتعديل عند الفرد ، ولذا تدعو الى مجاهدة النفس لا بقصد استئصال الغرائز كما يظن البعض ، وانما لتطويعها حتى توافق الشرع فى الاوامر والنواهي والعلاقات الانسانية ، وبذا يتفتح أمام الانسان مجال الارتقاء الدائم فى معارج الكمال لحضور القلب فى كل لحظة أو فكرة أو شعور مع الخالق سبحانه وهذا هو السبيل القويم لتكامل شخصية الانسان .

(وعلى ضوء علم النفس الحديث وعلى هدى المذاهب العلمية التربوية يجب أن ننظر الى الفناء الصوفى على أنه منهج للكمال والتسامى لا يطاوله غيره ولا يغنى عنه سواه .

(انه فناء المشاعر والرغبات الارضية فى شيء أكبر وأعظم من المثل الاعلى المصطلح عليه تربويا . انه فناء هوى النفوس وشهواتها وعواطفها وكل ما تحب فيما يحبه الله ويريده ويأمر به ليعيش الصوفى متخلقا بخلق الله أو كما

يقول الامام الجنيد : « فتكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفاته ،
فيكون فانيا عن المخالفات ، باقيا فى الموافقات » .

(انه اذن استبدال خلق بشرى بخلق ربانى وذلك ارتفاع بالبشرية لا نعرفه
ولا نعرفه الدنيا لغير الصوفية الاسلامية .

(فالفناء الصوفى ليس فناء جسد فى جسد ولا فناء روح فى روح : انه فناء
ارادة فى ارادة ، وفناء اخلاق فى اخلاق ، وصفات فى صفات ، او كما يقول
الصوفية : « فانيا عن اوصافه . باقيا بأوصاف الحق » ، انه لتصعيد للكمال :
تصعيد تخفق أجنحته فى أفق قدسى علوى ثم تخفق صاعدة حتى تنال
شرف التخلق بأخلاق الصفات الالهية . وهذا الفناء هو الذى عبر عنه الحديث
النبوى « تخلقوا بأخلاق الله » وصورة الحديث القدسى « كنت سمعه الذى
يسمع به وبصره الذى يبصر به ! » ، وبهذا الفناء يحس الصوفى احساس ذوق
ووجدان وقلب وروح باذن الله سبحانه معه وفى ضميره وحركاته وكلماته (١) .
والشريعة لا تقف من الاخلاق موقف الواعظ الناصح ، ان شاء المؤمن أخذ
منها وان شاء أعرض ! كما يظن من يدعى الاسلام ولا يفهم حقائقه وقواعده .
ذلك لان الاخلاق القرآنية تتوقف عليها صحة الايمان ، وحين يعجز أى مسلم
عن العمل بالخلق القرآنى ، فانه يسلك سبيل الردة عن دين الله تعالى شاء أم
أبى . ذلك لانه لا قيام للدين بدونها ، ولا يصح الايمان الا بها : فقد نص
الحديث على أن (الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا اله الا الله وأدناها
إمالة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان) رواه الشيخان وأبو
داود والنسائى . فما آمن من أخذ بأسباب الكفر واكتفى بإثبات إيمانه
باللسان ، وما آمن من نطق فمه بعبارات الايمان وقلبه لا يهوى الا أقوال
المنافقين وأحوالهم ، ما آمن من هربت نفسه من أحكام الشريعة واستحلت
مراعى الضلال والكفر . (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر
من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) من الآية ٤١ من سورة
المائدة .

وقد أفرد الامام الكبير الحافظ البيهقى مؤلفا خاصا جمع فيه أصول « شعب
الايمان » وعنونه بهذا العنوان وهو فى ستة مجلدات مخطوطة فى دار الكتب
العامة .

(١) مقدمة التعرف لمذهب أهل للتصوف — ص ٣/٢ .

ونذكر من هذه الشعب :

حب الله تعالى وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار ! » رواه الستة ماعدا الموطأ ، ورواه الامام أحمد .

« والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، » .

ومن علامة حب الله تعالى أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتدى بهديه في كل أمر (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم - ٣١ قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين - ٣٢) سورة آل عمران .

وقد أرشدنا صلوات الله وسلامه عليه الى السبيل الحق لاكتمال هذه الشعبة لننجو في الدنيا والاخرة فقال صلوات الله وسلامه عليه « لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » .

قال تعالى : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) سورة التوبة - ٢٤ .

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قوله صلى الله عليه وسلم أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله أو معاملة أحدهم على معاملة الله ورسوله فهو ليس من الذين كان الله ورسوله أحب اليهم من سواهما .

ومن شروط الإيمان تقديم قوله صلى الله عليه وسلم على كل مخلوق (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما - ٦٥) سورة النساء .

فسلب اسم الايمان عمن وجد فى نفسه حرجا من قضائه صلى الله عليه وسلم ، قال تاج الدين بن عطا الله « فى هذه الاية دلالة على أن الايمان الحقيقى لا يحصل الا لمن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على نفسه قولاً وفعلًا وأخذًا وتركًا وحبا وبغضا » مع الكامل بأحكامه صلوات الله وسلامه عليه .

وفى الاية الكريمة من الاعجاز أنه صلوات الله وسلامه عليه : وهو المبلغ لما أمره الله والمنزل عليه كلام الله تعالى ، والمبين للعالمين آيات التنزيل : انما هو **تبعا لما جئت به**) ثم حذرنا من الانحراف وعواقبه فقال صلى الله عليه فمن لم يعرض بحكمه صلى الله عليه وسلم فقد تجرد من نور الايمان ، وسقط على أم رأسه تهوى به الشياطين فى مهاوى الخسران والضلال .

ولشدة رحمته صلى الله عليه وسلم بالامة نبه فى الحديث بعد الحديث الى مراعاة نفى الحرج أو الضيق فى كل ما أمر به ولا يتم ذلك الا اذا كانت المتابعة وكان الاقتداء عن رضا نفس وحب فى الله (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه **تبعا لما جئت به**) ثم حذرنا من الانحراف وعواقبه فقال صلى الله عليه وسلم (**من رغب عن سنتى فليس منى**) رواه مسلم .

هذا هو الحب العام الشامل الذى يسعد به البشر دنيا وأخرى ، وهو أصل من أصول الايمان فلا يصح الا به ، أما هذا الذى يسرح ويمرح كيفما حيثما سنولت له نفسه وزين له الهوى ثم يدعى الايمان فهو مدع ما ليس فيه :

تعصى الاله وانت تظهر حبه هذا محال فى الفعال شنيع
لو كان حبك صادقا لاطعته ان المحب لمن يحب مطيع

ومن شعب الايمان :

الايمان بوجوب الخوف من الله عز وجل (**قل اتخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين**) ١٧٥ سورة آل عمران .

وعن بعض العلماء « خوفوا المؤمنين بالله . والمنافقين بالسلطان . والمرائين بالناس » .

ومنه الايمان بوجوب التوكل على الله تعالى : (**وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين**) — من الاية ٢٣ سورة المائدة (**ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله**

واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا - ٢ - ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا - ٣ - سورة الطلاق .

ومن الاخلاق الملازمة للايمان المصاحبة له :

الحياء ، وهو شعبة من الايمان .

ومعناه أن تستحي من الله عز وجل . فلا تأتي محارمه أو تستعمل نعمه في معصيته .

ومنها اخلاص العمل لله عز وجل :

اما هذا الذى يكون الدافع له الى العمل هو المصلحة الذاتية فان أعماله تكون صالحة لاكبر الضرر بل قد تدمر من الوجه الذى يرجى منه النفع ، وأخف الاضرار أن أمثال هؤلاء لا ينفكون عن مطالبة المجتمع بثمن خدماتهم ولا يشبعون من مكافأة ، ولا يزال الانسان يحتجب بمصالحه الذاتية عن ارادة وجه الله تعالى حتى ينقطع عن الله عز وجل ويحتجب بنفسه وكفاه بذلك خسرانا مبينا : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا - ١٨ - ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا - ١٩ - سورة الاسراء .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليه م أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون - ١٥ - أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون - ١٦ - سورة هود عليه السلام .

وفى الحديث القدسى : « انا اغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك » رواه مسلم .

ومنها الامانة :

فالمؤمن من آمنه الناس « ولا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » رواه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه . ولفظ آخر عن الطبرانى فى الاوسط عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما .

ومنها الرحمة :

وفى الحديث « ما نزع الرحمة الا من شقى » رواه الحاكم والبخارى فى الادب وأبو داود والترمذى .

« من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه مسلم عن جرير بن عبد الله رضى الله تعالى عنه .

ومنها الوفاء بالعهد :

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه يقطعون مآمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار — ٢٥ » سورة الرعد وفى الحديث « حسن العهد من الإيمان » رواه الحاكم والديلمى وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . والعهد فى الحديث يشمل المراجعة واليمين والامان والموثق والذمة والوصية والحفظ .
ومن الوفاء بالعهد بذل الجهد فى النصيح :

جاء فى الحديث « ان الدين النصيحة . ان الدين النصيحة . ان الدين النصيحة . قيل لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهم .
ومن شعب الإيمان : دوام التوبة . وطلب العلم الذى تصح به الاعمال دنيا وآخرة وهو الذى يورث التقوى والخشية والمعرفة .

جاء فى الحديث « الطهور شطر الإيمان » رواه مسلم .
ومن العار أن ينظف الانسان ظاهره ، وباطنه ملطخ بالاوحال :
ما بال دينك ترضى أن تدنسه وان ثوبك مفسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس
ومن الشعب المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية :

صلة الرحم :
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه .
قال تعالى : « فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم — ٢٢ » أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم — ٢٣ »
سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

المحافظة على حقوق الجار : وقد جاء فى الحديث
« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ! »
« لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يأمن جاره بوائقه » .

« والله لا يؤمن والله لا يؤمن من بات وجاره جوعان » .

المحافظة على حقوق الغير :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه البخارى .

احرام الضيف :

« ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ! » .

قول المعروف :

« ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » من حديث رواه

الامام أحمد والشيخان والترمذى .

المحافظة على الدماء والاموال :

فى الحديث « قتال المسلم اخاه كفر وسبابه فسوق » أخرجه الترمذى

والنسائى وأخرجه الامام أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير واللفظ

له « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وحرمة ماله كحرمة دمه » .

قال تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله

عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما - ٣٩ ، سورة النساء .

ومنها المحافظة على الاعراض :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو

مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » رواه الشيخان .

ومنها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :

عن مالك بن دينار انه قرأ هذه الاية « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون

فى الارض ولا يصلحون - ٤٨ ، سورة النمل . فقال : « فأما اليوم ففى كل

قبيلة وحى رهط من الذين يفسدون فى الارض ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا

يذرنا الله تعالى على هذا ، فليت شعرى أى عذاب ينزل » !

ومنها الجهاد فى سبيل الله تعالى :

قال تعالى : « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » من الاية ٥٤

سورة المائدة .

وفى الحديث « ما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله الا أنلهم الله » .

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق » .

رواه مسلم .

« لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها رواه الشيخان والامام أحمد وغيرهم ، وعده الامام السيوطي من المتواتر .

ومنها المحافظة على الدين وعدم الخروج على الجماعة :

ففي الحديث « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » .

والمراد بالجماعة الطائفة المستمسكة بكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهي الطائفة التي لا تزال قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله لا يخشون في الله لومة لائم لا يضرهم من خالفهم .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » سورة النساء — ١١٥

ومن شعب الايمان : ما هو مرتبط بالتخلي عن أسباب الكفر والنفاق ومنها :

عدم اتخاذ المستهزئين بالدين اولياء من دون الله تعالى والمؤمنين :

« لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او أبناءهم او اخوانهم او عشيرتهم ، اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، اولئك حزب الله ، الا ان حزب الله هم المفلحون — ٢٢ ، سورة المجادلة .

« ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين » سورة المائدة — ٥٧ .

وقال تعالى : « ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » سورة المائدة — ٥١ .

ومنها البراءة من الظلم :

وفي الحديث القدسي « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . رواه مسلم والترمذي وابن ماجه ، وقد جاء ان « دعوة المظلوم وان كان كافرا ليس دونها حجاب » رواه الامام أحمد .

ويشمل هذا الخلق الاخذ على يد الظالم وتجريده من كل عون ففى الحديث « من أعان ظالماً يباطل ليدحض به حقاً فقد يرى من الله ورسوله » رواه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

ومن الاخلاق الموجبة للنفاق والتي يجب الطهارة منها : الكذب والعدر والخلف والفجور : فقد جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا وعد أخلف واذا خاصم فجر » . أخرجه الامام أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى والبخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما .

ومن الاخلاق المنافية للايمان :

الغش . فقد جاء فى الحديث المتواتر « من غشنا فليس منا ! » ويسرى ذلك على جميع أنواع الغش وأشدّها غش الراعى للرعية « ما من عبد يستترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته الا حرم الله عليه الجنة » رواه الشيخان . وكل انسان راع فى مستواه « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه الشيخان وغيرهما .

ومنها البراءة من الكبر :

« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » رواه مسلم . وفى الحديث القدسى : « الكبرياء رداى ، والعظمة ازارى ، فمن نازعنى رداى قصمته » وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم .

ومن الاخلاق التى يتبرأ منها المؤمن :

البخل وسوء الخلق « خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » رواه الترمذى . ومنها الفحش « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه .

ومنها الحسد « ليس منى ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة » رواه الطبرانى . وليس من الايمان تخبيب (افساد) المرء الزوجة على زوجها ، او احتقار العالم ، او عدم أداء حقوق الغير « ليس منى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » رواه الامام احمد والترمذى عن عبادة بن الصامت .

فالإيمان يرتبط ارتباطا كاملا بالاخلاق ، وقد نص الحديث المتواتر على أن « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » .

ولا يمكن أن يكون المجتمع كاملا ما لم تدر فيه العلاقات الانسانية حول محور شعب الإيمان . إذ يكون مصدر الالتزام الخلقى هو الإيمان بالله تعالى طبقا للوحى القرآنى الأسمى ومن هذا الفيض اللانهائى تتولد جميع الكمالات الانسانية الحقة . وما عدا ذلك من المجتمعات فانها تسير طبقا للعلاقات البشرية التى تفرضها وسائل الضبط الاجتماعى بغض النظر عما تسببه من صلاح أو فساد . والبون شاسع ما بين النوعين : فالمجتمع الاول مبنى على معرفته تعالى ومعرفته صفاته القدسية وأسمائه الحسنى وما تقتضيه هذه المعرفة من إيمان يلزم النفس بمراعاة الآداب العليا مع الحضرة الالهية فى كل وقت وحال ، وبدون هذا الإيمان الملزم لا يثبت للإنسان قدم فى المعرفة الحقة بأحوال النفس البشرية : فهو النور الأعظم الذى يسلطه المؤمن على عالمه النفسى فيكشف له كل ما فيه من مكامن الهوى وغوائل الشهوة وخبايا الرذيلة وخفايا الشر المدمر ليكون دائما على بصيرة من أمرهم ، وهو المرشد الذى يهذى صاحبه الى سبل السلام والخير ويجنبه كل ما يؤدى الى الشر ، وهو الطاقة التى تولد فى الإنسان قوة متجددة خارقة لا حدود لها ، وهى قوة تتجه بالمؤمن فى ثقة واطمئنان نحو الكمال اللامتناهى .

أما المجتمع الثانى فيرجع الالتزام فيه الى العادات والتقاليد والعقائد الوضعية فهو يتحرك داخل أبعاد تتسع وتضيق وتتغير وتنقلب طبقا للمصطلحات التى وضعها البشر ، وهذا هو السر فى تضارب المدارس الخلقية وتعددتها حيث لا ينبغى التضارب أو التعدد ، وهو السبب فى ضعف بواعث الخير فى هذه المجتمعات مهما بلغت من مظاهر الرقى .

حكم التصوف شرعا

حكمه من وجه أنه علم معرفة النفوس وتهذيبها وعلاج أمراضها ، وتربية الإنسان وتكميله وتنشئته على مكارم الاخلاق والتنزه عن سفاسفها حكمه أنه واجب وتركه حرام .

ذلك لان نجاة الإنسان فى الدنيا والاخرة انما تتوقف على مجاهدته لنفسه وتزكيتة لها وتطهيره اياها وتحليتها بالاخلاق الحميدة وتخليتها من كل ما هو

مذموم ليتخلص الانسان من كل حجاب يحجبه عن خالقه وتكون سعادته فى الاقبال عليه تعالى فى جميع الشئون الظاهرة والباطنة وكل ما توقفت عليه نجاة المرء فى دنياه وآخرفته فحكم الله فيه أنه واجب وتركه حرام « وقد صرح بذلك الامام ابن حجر فى كتابه تحفة المحتاج والخطيب الشربيني فى شرح الغاية ، والامام الغزالى والبغوى وعلاء الدين فى الدر المختار وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وغيرهم من الائمة » (١) .

قال الكلاباذى :

« اعلم أن علوم الصوفية علوم الاحوال ،

والاحوال مواريث الاعمال ،

ولا يرث الاحوال الا من صحح الاعمال ،

وأول تصحيح الاعمال معرفة علومها » .

وما تصح به الاعمال الظاهرة والباطنة يتطلب :

أ — أحكام معرفة الله عز وجل طبقا للكتاب والسنة والاجماع .

ب — التفقه فى الدين .

كما يتطلب :

« الاجتهاد فى علم آفات النفس ومعرفة رباضتها وتهذيب أخلاقها ، ومكائد العدو ، وفتنة الدنيا ، وسبيل الاحتراز منها ، وهذا العلم علم الحكمة . فإذا استقامت النفس على الواجب ، وصلحت طباعها ، وتأديت بآداب الله عز وجل من ذم جوارحها وحفظ أطرافها وجميع حواسها سهل عليه اصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها ، والفراغ مما لها ، وعزوفها عن الدنيا واعراضها عنها ، فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر وهذا هو علم المعرفة » (٢) .

وقد حكم العلماء على التصوف ، من هذه الوجهة ، فقال الامام الغزالى انه فرض عين ان لا يخلو احد من عيب الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال الامام الشاذلى : « من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر » .

(١) العارف محمد عيد الشافعى : مكانة الصوف والصوفية فى الاسلام — ص ١٢٩ .

(٢) التعرف ص ٨٧ .

وقال الامام السنوسى صاحب العقائد « النفس اذا غلبت كالعدو اذا فجا
يجب مجاهدتها والاستعانة عليها ، وان خالف الوالدين ، كما فى العدو اذا
برز » .

وقال الامام المنجورى فى شرحه على منظومة ابن زكوان عند قوله :
وذاك واجب على المكلف وتحصيله يكون بالمعرف

قال : ان علم التصوف فرض عين على كل مكلف وذلك أن الانسان لا ينفك
عن دواعى الشر والرياء والحسد فيجب أن يتعلم ما يتخلص به من ذلك » .
فطلب العلم الذى تصح به الاعمال فريضة ، ولا عذر لاحد فى الاهمال أو
التقصير فيها .

ومن هنا ندرك ان الاسلام فى جميع مظاهره مبنى على العلم الحق ، حتى
جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وفى الوقت الذى تتهاوى فيه العقائد
التي لا صلة لها بالله تعالى أمام نور العلم ، نجد أن المؤمن الحق يزداد ايمانا
ونورا كلما ازدادا علما « وقل رب زدنى علما » .

السلوك على يد استاذ فى الطريق

ضرورة اقتضاها الاحتجاب بالاكوان عن المكون

يقول القطب الدسوقي :

« والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة طالبين الله خالصا ، ودخلوا تحت
أوامره لاستغفروا عن الاشياخ . ولكنهم جاءوا الى الطريق بعقل وامراض
فاحتاجوا الى حكيم » .

ان النفس البشرية معقدة تعقيدا تدق ملاحظته على جميع المخابر والمعامل
الحديثة ، حتى ان العمل الواحد قد يصدر عن مئات الاشخاص ولكن تقييمه
وتقديره يختلف وبتفاوت بحسب الصحة النفسية لكل منهم ، والصحة النفسية
هنا بقصد بها الاخلاص له عز وجل .

فأفعال الانسان تدخلها الحظوظ النفسية طالما أن الانسان لم تكمل صلته
بالخالق سبحانه وتعالى ، ومن هنا زحفت العلل والامراض النفسية لتفتك
بالانسان ، وتحوله الى مسخ مشوه لا يعرف للسعادة الحقة سبيلا ، ولا الى
الحياة السليمة طريقا .

ولا نجاة من أدواء النفس وعملها والوقوع فى أسر حظوظها والعبودية
لاطماعها وأهوائها الا بأمرين :

الاول : التمسك بكتاب الله عز وجل وسنته صلى الله عليه وسلم ظاهرا
وباطنا كالغريق الذى يتعلق بطوق النجاة فلا يفلقه خشية الهلاك .

الثانى : الالتجاء الى مرب واصل عارف خبير بأدواء النفوس وعملها
وأمرضها وعلاجها ليقطع الادواء المتغلغلة فى اعماق النفس والتي تحول بينها
وبين معرفة الله عز وجل .

فالحضرة الالهية حضرة عزيزة منيعة لا يدخلها الا من تأدب بالاداب التى
عرفنا بها الحق عز وجل على لسان حبيبه الاعظم صلوات الله وسلامه عليه ،
ولا يؤبه بمن يدعى أن له معاملة مع الله عز وجل عن طريق غير هذا : « قل ان
كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله » هذا هو الصراط الحق ولا سبيل للنجاة
سواه ، هذا هو معراج الكمال الذى لا نهاية له ، ولا معراج غيره ، هذه هى
المعرفة الحقّة التى تتدفق من الشريعة المحمدية الخالدة وكل معرفة غيرها فهى
باطلة .

ولا تكمل النفس الغارقة فى وحل الحجب الحائلة عن المعرفة الالهية الا اذا
تولى تربيتها عارف خبير ، ولا يشم مخلوق المعرفة الالهية الا اذا تخلق بالخلق
القرآنى وعلى قدر تخلقته تكون معرفته .

فما حجبك عن الله تعالى سواك ، وما قطعك عن الحق الا هواك ، والناس
مراتب ، واكثرهم محتجب بالاكوان عن المكون ، منصرف عن المحور الذى يدور
عليه وجوده .

فالسالك لم يحتج الى مرشد الا لا نقطاعه عن الله عز وجل وتعلقه بالاكوان
فاحتاج الى من يخلصه منها .

والعارفون بالله عز وجل هم أشد الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله
وسلامه عليهم ، معرفة بخصائص النفوس البشرية وأسرارها وعملها وأمراضها
وطرق علاجها ، ونجد أنهم فى ميادين الصحة النفسية يطبقون المناهج الثلاثة :
المنهج العلاجى ، والمنهج الوقائى ، والمنهج الانشائى ، ومن تتبع طرقهم فى ذلك

خرج بعلوم ومناهج تعتبر ثروة عزيزة وافرة فى علوم النفس والتربية والاخلاق .

ومرد نجاح الصوفية فى هذه الميادين انما يرجع الى انفرادهم بتطبيق هدى المنهج المحمدى المحيط بأسرار النفوس ودقائقها وطرق تهذيبها ووسائل علاجها لانه يتفجر من سماوات الوحي القرآنى الكريم .

والصوفية يقولون بقابلية الاخلاق والسلوك للتعديل كما يأخذون بقاعدة الاستعدادات الفطرية والمكتسبة ، ولذا يسندون الى كل سالك العمل المناسب لاستعداده ومواهيه : ولا يستلزم العلاج النفسى الانقطاع عن الناس : بل يباشره الاستاذ دون أن يطلب من السالك الانقطاع عن عمله ، فيشرع فى اجتثاث ادواء النفس واستئصالها طبقا لما يتطلبه حسم كل داء منها .

وقد يظن الجاهل انه فى استطاعة العارف ان يوصل من شاء فما عليه الا ان يأخذ الطريق عنه فيصل !

كلا ، فان مهمة المرشد العارف عسيرة شاقة ألا وهى تخليص السالك من التعلق الظاهرى والباطنى بغير الله عز وجل ، ليرده من مرارة الانصراف عن خالقه تعالى الى حلاوة الاقبال عليه ، ويتوقف ذلك على مضاء عزم السالك واخلاصه فى طلب الحق عز وجل ، أما هذا الذى ينقصه العزم فلا يفيد مخلق .

وقد يباشر البعض العلاج النفسى دون الالتجاء الى أستاذ عارف ، فيلجأ الى التخلص من أمراضه وعمله النفسية بطرق تزيد الداء استفحالا ، وتثبت جذور المرض وتزيدها عمقا ، كالتجاء بعضهم الى العزلة أو الخلوة ، أو ملازمة الجوع أو السهر فى العبادات .

وفى هؤلاء يقول : « لا تفيد الخلوة الا ان كانت بإشارة شيخ والا ففسادها أكثر من صلاحها » فيخسر المرء من حيث يطلب الربح ، ويسىء من حيث يظن الاحسان .

فالعاقل لا يشرع فى العلاج الا على يد اخصائى ماهر عليم بأدواء النفوس فيتولى غسل أو ساخ النفس من قذارة الشهوات حتى تصلح تلقى أنوار متابعة

سيد الوجهاء صلوات الله وسلامه عليه ، وحينئذ يصلح للجلوس على بساط
المشاهدة .

وعملية تصفية النفس وتطهيرها من ادران الظلم والطغيان والقابلية للفساد
والضلال والفتنة والكفر ، وكل ما يصرفها عن الله خالقها ، لهى عملية من أشق
العمليات وأدقها وأصعبها وأمرها مذاقا ، وفى صعوبة قطع مقامات النفس
ومشقات الطريق يقول رضى الله تعالى عنه

« آه ، آه ، ماأحلى هذه الطريقة ، ماأسناها وما أمرها ، ماأقتلها ما
أحيها ، ماأصعبها ، ما أكبرها ، ماأكثر مصايدها ، ماأصعب مواردها ، ما
أعجب واردها ، ما أعمق بحرها ، ما أكثر أسدها ، ما أكثر حياتها وعقاربها ،
فبالله يا أولادى لا تتفرقوا ، واجتمعوا يحميكم الله من الافات ببركة
أستاذكم » (١) .

ويقول فى مشقة الطريق ونتائجها :

« الطريق الى الله تعالى تذيب الاكباد وتفنى الاجساد ، فاذا ارتفع الحجاب
تنعم بسماع الخطاب وقرأ الرموز من اللوح المحفوظ واطلع على معان دقت ،
وشرب بأوان صفت ورقى ، فكان مع قلبه ثم يكون مع مقلبه لا مع قلبه ، لان الله
يحول بين المرء وقلبه ، فاذا جاوز الكل طال لسانه بلا لسان وزاد اجتهاده
فى العمل ودام فضل الله عليه » [٢] .

وهو اذ يؤكد صعوبة السلوك ، والمشقات التى يكابدها السالك انما يشفق
على من يسلكها ظنا منه أن الطريق عبارة عن تلذذ بالمشاهدات وتمتع
بالمكاشفات ، ومثل هؤلاء هم أبعد الناس عن الطريق الى المعرفة الصحيحة
بالله عز وجل ، والاخلاص له سبحانه ، ولذا قد يلتبس الامر على الناس ،
فيشهدون الرجل يظهر بمظهر الجاد فى السلوك وهو فى الواقع لا يطبق
السير ولا يستطيع مواصلته لوقوفه مع حظوظه ، وينبه على امثال
هؤلاء المرة بعد المرة حتى لا يؤثروا فى الصادقين من السالكين فيتوقفوا
عن السير :

(١) طبقات الابرار — مخطوط — وجه ق ١١٦ .

(٢) الكواكب الدرية مخطوط وجه ق ٢٢٩ .

« كم واقف فى الماء وهو عطشان لعدم صدقه فى طلب موله ، فاعملوا بالاخلاص لترووا ظمأ العطش ، فان طريق الله تعالى لا تنال الا بقتل النفس ، وذبحها بسيف المجاهدة والمخالفة » (١) .

وصعوبة الطريق ومشقاتها انما ترجع الى صعوبة تخلص النفس من عاداتها وحظوظها وشهواتها المهلكة ، ثم التجرد من السوى والتعلق بالله عز وجل ، فتحيا الحياة السرمدية بالله عز وجل ، وتخلص الاعمال لوجهه الكريم « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهد من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » سورة التوبة ١١١ .

والمريدون يتفاوتون فى زمن التخلّى عن السوى وتصفية وجودهم لله خالقهم ، وذلك يتبع صدق الارادة ، فمنهم من يمكث العمر كله ولا يستطيع أن يكسب المعركة مع أهوائه وشهواته وحظوظه النفسية ، ومنهم من يقطع مقامات النفس فى أيام بل فى ساعات بل فى لحظات ، وهؤلاء هم أصحاب الجواهر النقية الصافية التى تنفر بطبعها عما يصرفها عن الله عز وجل « خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام اذا فقهوا »

و « من جاهد شاهد ومن رقى تباعد » « ما أعز الطريق وما أعز طالبها وما أعز من يصدق فى طلبها وما أعز الدال عليها » (٢) .

ومما يؤكد الحاجة الى مرب عارف : أن الارواح ترتبط ببعضها ارتباطا يوجب لها سريان المزايا الموجودة فيها وتبادل الغرائز المنطوية عليها ، وهذا ما يطلق عليه العلماء « سريان الاخلاق بالامتصاص والانتشار » (فلذلك جعل أهل الطريق رضى الله عنهم ونفع بهم اتخاذ الشيخ المرشد والارتباط بروحه المتعلقة بالله ، المتمتعة بدوام شهوده ورضاه ، من أعظم ما يحتاج اليه مريد السير الى الله تعالى وأهم الاصول التى يتوقف عليها سلوكه فى هذه الطريق ، لانه اذا كان الارتباط بالروح المحجوبة يوجب الموافقة لاميالها والتطبع

(١) الطبقات الوسطى مخطوط — ظهر ق ١٠٨ .

(٢) الكواكب الدرية مخطوط وجه ق ٢٢٦ .

بطبيعتها فالارتباط بالروح التي أطلقت من قيودها ، وصار ديدنها الاقبال على معبودها ، وطبيعتها العكوف على أبواب رضوانه ، وسليقتها الفرار عما يجر الى بعده وحرمانه ، يقتضى سريان تلك الصفات اليها ويستلزم افاضة هذه المزايا عليها . بل هذه الروح المطلقة أولى بسريان أحوالها الى الروح المتعلقة بها من تلك الروح المحجوبة ، لان هذه قد خلصت من عقالها ، وتلك ضعيفة مكبله بأحوالها « (١) .

من شروط المربي الذى يتصدى لتطهير النفوس من عللها

ان أنجح مدارس التربية الحديثة لم تستطع أن تتعمق فى النفس البشرية تعمقا يخلص الانسان من العلل التي تحول بينه وبين سلوك طرق الخير فى أقواله وأفعاله ، ولذا اضطرت الى فصل الاخلاق عن التربية ، وانكششت التربية حتى أصبحت وظيفتها قاصرة على طريقة اىصال الخبرة الى الكائن الحى ، وهذه أيضا لم تسلم من المسخ ، فهناك مدارس تنادى بالطريقة الطبيعية، ومدارس تنادى بالطريقة السلوكية المادية ومدارس تنادى بالطريقة الليبرالية ، ولم تفلح مدرسة منها أن تقوم خلال عملية التربية بعملية تطويع النفس وتهذيبها تهذيباً يجعلها تسير وفق المبادئ والمثل العليا التي يسعد بها البشر .

وان وسائل التربية الحديثة وطرقها وفلسفتها لتتضاعل وتتصاغر بجانب التربية العلمية والعملية كما فصلها العارفون بالله تعالى ، ولو تتبعنا مدارسهم لوجدنا أن كل عارف بالله تعالى مدرسة تربوية قائمة بذاتها .

ونهج العارفين فى التربية يقوم على الحقائق العامة التالية :

١ - المثل الانسانى الاعلى هو سيد الوجهاء وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الحائز على أعلى كمالات النوع الانسانى لاختصاصه بتلقى القرآن العظيم وتحليه بالكمالات التي يستلزمها تلقى الوحي القرآنى ، فلا نجاة للانسان الا بالاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم .

(١) الامام العارف أحمد أبو الوفاء الشرقاوى : مصباح الارواح - ص - ١٢ .

٢ - لا يمكن أن تقوم التربية على أساس اتباعه صلوات الله وسلامه عليه والاهتداء بهديه ما لم يكن المربي مجتهدا في الفهم عن الشريعة .

٣ - أصول السعادة وأصول العلاقات الانسانية والوسائل والغايات النهائية من الاعمال والاقوال لا يحددها سوى الوجود الانساني الخالص لله عز وجل .

ولا يستطيع بشر أن يسعد ابنه فضلا عن الآخرين ، ولكن الذي يسعد البشر جميعا هو الخالق عز وجل ، وهذا يتوقف على مدى الاخلاص له عز وجل ويقاس مدى الاخلاص بدرجة اتباعه صلى الله عليه وسلم .

٤ - تحديد الخير والشر لا يكون الا طبقا لما بينه سيد العلماء بالله تعالى صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى هذا الاساس تصح الدعوة الى الخير أو النهي عن الشر (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) — وهو أصل من أصول الشريعة — وليس من حق مخلوق بعد ذلك أن يحدد الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة من عندياته أو بفلسفة يبتكرها هو ، أو تمليها عليه معلوماته النسبية القاصرة ، ومن حاد قيد شعرة عن النهج المحمدي المبين فهو يضل الناس عن الحق بقدر انحرافه

٥ - لا يتصدى المربي للتربية الا اذا بلغ مرتبة معرفة علل النفوس وطرق علاجها ، ولا يتمكن في هذه المرتبة الا باتباعه الكامل لسيد العلماء صلوات الله وسلامه عليه ، فاذا لم يبلغ هذه الدرجة لايجوز له أن يتصدى للتربية وهو لم يستكمل أصولها بعد .

هذه هي الاصول العامة التي سار عليها العارفون بالله عز وجل ، وفيما عدا ذلك فلكل منهم منهجه الخاص في التربية طبقا لخصائصه الشهودية والعرفانية وتمكنه في مقامات المعرفة ، كما أن لكل مريد استعداداته الخاص وقابليته المعينة وهذا يحتاج الى منهج تربوي خاص به يتناسب مع استعداداته ومواهبه وعلله النفسية بشتى اذواها .

ونعرض مختارات من كلامه رضى الله تعالى عنه في شروط المربي ،

١ - العلم بالشرعية والعمل بها ، وفى ذلك يقول :

من أراد أن يكون اماما يقتدى به فليحكم بالحقيقة ، اذ ماسميت حقيقة الا
لكونها تحقق العلوم بالاعمال وتنتج الحقائق من بحر الشرعية » (١)

(لا يكمل الفقير الا اذا تكلم بمعانى الحقيقة ذوقا لانقلا وفعل لا قولاً ،
وتحلى باطنه بحلية الاصفياء بالسر والمعنى « فتغننى وتكلم بالحكم ونطق
بالمعجم وبالسر المكتوم واطلع وحقق ، فما ينطق الا صدقا ولا يتكلم الا حقا ،
وعند ذلك يصح ان يدعو الخلق الى الله تعالى) (٢) .

(لا يحق لك أن تأمر غيرك الا ان كانت الشرعية تزكيك بوقوفك عند
حدودها ، والا كان الامر والنهى لحظ نفسانى) و (ومن لم تزكه الشرعية
بوقوفه عند حدودها لا يصلح أن يتصدر لارشاد غيره] .

روى الامام الشعرانى عن جده العارف على بن شهاب (٨٠٤ - ٨٩١ هـ)
انه رضى الله تعالى عنه كان لا يمكن أحدا من الفقراء البرهامية من فعل شيء
مما يفعلونه اذا ما زاروا بلدته مثل أكلهم النار وجر السيف على اللسان ،
وعلى الكتف ، ويقول : « ان كنتم برهامية فأتوا لنا بالبرهان على ذلك من
الكتاب والسنة أو فعل سيدى ابراهيم الدسوقي رضى الله عنه . »

فانتصر جماعة من أهل البلد للفقراء وقالوا : لابد من أن يفعلوا ذلك حتى
نتفرج عليهم ، فرأى بعض الفقراء فى هذه الليلة القطب الدسوقي وهو يقول
لهم : « أطيعوا الشيخ عليا رضى الله عنه ، وأنا برىء من كل عمل يخالف هدى
الخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين » .

فاستغفروا وتابوا ورجعوا عن ذلك الفعل ، فقال لهم الشيخ على بن
شهاب : « انا رجل برهامى ولو كنت اعلم برضا سيدى ابراهيم بذلك لكنت
أول فاعل له لانه قدوتى وشيخى » .

فالولى يغار على الشرعية بعد وفاته كما كان يفعل اثناء حياته ، ولا عبرة بمن
انتمى الى الطريق وهو يحدد عن الشرعية قيد شعرة عن بيعة من ذلك .

(١) الكواكب وجه ق ٢٢٩ .

(٢) الطبقات الوسطى ظهر ق ١١١ وما بين علامتى التنصيص من الكبرى ص ١٥٦ .

وكان يقول : « العبد كلما خدم سيده قدم على بقية العبيد ، وأما من ادعى المشيخة وعصى ربه ، قال له : أف أف لك ! أما تستحي ! أين دعوات القرب منا ! أين غسيلك أثوابك المدنسة لمجالستنا ! » [١]

وكان يقول - وهذا من شدة تمكنه فى التحقق بأداب الشريعة « قد صرفنا هممنا اليه فأغنانا عما سواه - انا لا نعرف قط ابليس اللعين » .

٢ - الاجتهاد فى العمل :

من لم يكن مجتهدا فى البداية لا يفلح له مريد فى النهاية فانه ان نام ، نام مريده ، وان غفل غفل مريده ، وان رغب فى الدنيا رغب فيها مريده ، وهكذا فى سائر الاخلاق « وان امر الناس بالعبادة وهو بطلال او توبهم عن الباطل وهو يقول ضحكوا عليه ولم يسمعوا منه » [٢] .

فلا يتصدى أحد لمقام التربية الا اذا كان قدوة يحتذى به فى أقواله وأفعاله ، أما من يوجه غيره ولا يرتبط بتوجيهاته ولا يحفل بكلامه ، فمثل هذا لا يزيد مريده الا ضللا ولا يمدده الا بالغواية ، ومن تجرد من الهدى لا يمنح الهداية ، وفاقد الشيء لا يعطيه (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام - ٢٠٤) واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد - ٢٠٥) من سورة البقرة .

فالتربية اذن ليست بشقشقة لسان ولا مضغ عبارات وكلام ولا هى بتخدير الناس بالكذب والتمويه عليهم بالدعايات والامانى المعسولة للوثوب على المطامع والاغراض ، ولكنها قول وعمل وجد وإخلاص ، وتطهير للقلب مما سوى الخالق فلا يعرف السالك سواه عز وجل فى كل حركة أو سكونة .

أما التهاون أو التكاثر أو التواكل أو الإهمال فى الاعمال ، فكلها دلائل على الكذب فى الدعوى ، وعدم الصدق فى الطلب ، يقول رضى الله تعالى عنه : « عليك بالعمل بالشرع وإياك وشقشقة اللسان بالكلام فى الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها وقد كان صلى الله عليه وسلم يجوع حتى يشد الحجر على بطنه ، وقام حتى تورمت قدماه . ثم تبعه أكابر الصحابة رضى الله عنهم

(١) طبقات البقاعى وجه ق ١١٦ .

(٢) الطبقات الوسطى وجه ق ١٠٣ وما بين علامتى التنصيص من الكبرى .

على ذلك فكان أبو بكر الصديق إذا تنهد يشم لكبده رائحة الكبد المشوى وانفق ماله كله فى سبيل الله ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد العمل والكد حتى رقع دلقه بالجلود ، ولف رأسه بقطعة خيش ، وكان عثمان رضى الله عنه يختم القرآن قائما كل ليلة على أقدامه ، وكان على رضى الله عنه من زهاد الصحابة ومجاهديهم ٠٠ هؤلاء خواص الصحابة رضى الله عنهم مع قربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا كان عملهم ، هذا كان اجتهدهم وزهدهم وجوعهم فأحكموا الحقيقة والشرعة ، ولا تفرطوا أن أردتم أن يقتدى بكم » .

فطريقته رضى الله تعالى عنه هى العمل المتصل فى سبيل الله تعالى حتى تصفو النفس وتصلح أن تكون أداة فاعلة لكل خير قابلة له ، « فاعمل لعل أن تكون من الذين عادت ارواحهم روحانية لطيفة نورانية تجول فى الملكوت وتشاهد الحى الذى لا يموت وهى تنظر عجائب غرائب ما يكون من الامر المكنون » (١) .

٣ — العلم بأمراض النفوس وطرق علاجها : وفى ذلك يقول :

« اتقوا فراسة الفقراء فانهم ينظرون بواطنكم بنور الله تعالى فيجدون فيها ما يسخط الله تعالى » (٢) .

فمن لم يصف باطنه بحيث يكشف بصفائه عن الامراض النفسية التى تكمن فى باطن من يقابله ويتوجه اليه فلا يصلح للتربية والعلم بأمراض النفوس لا يأتى بقراءة الكتب ولا بسماع القصص ولا بالتجارب فى المعامل ، ولكن كل شخص مزود بحاسة يحس بها أمراض النفس المعافى هو منها ، وكلما صفت النفس كلما رقت هذه الحاسة وصفت حتى يستطيع أن يشخص ما عند غيره من علل ، ويكمل هذا الصفاء عند العارفين بالله عز وجل الذين وصلوا الى مرتبة تربية المريدين أو مرتبة تهذيب النفوس وعلاجها فالعارف انخلص نفسه من رق الاشياء ، قد خلصها من الامراض المترتبة على هذا الرق ، فكان طبيبا ماهرا فى تشخيص علل المكبلين بأغلال هذا الرق .

(١) لسان التعريف ق : ٢٠ ب .

(٢) الطبقات الوسطى ق : ١١١ ب .

٤ - التعفف عن اموال الناس :

في الواقع أن حب المال إذا كان هو العاطفة السائدة Master sentiment عند أى شخص : كانت جميع أقواله وأفعاله واقعة تحت دافع الكسب المالى، ولا يكثرث بموافقة ذلك لشريعة أو خلق أو قانون وتصبح هذه العاطفة هى المعيار الذى يقيس به قيمة كل شىء فى الحياة ، وليس من السهل على الانسان أن يقول : أنا رجل لا قيمة للمادة - يعنى المال - عندى ! وهو أسير المال وعبد المطيع ، فالمال وجه حياة الناس منذ القدم ، وكم من كرامة قد ابتذلت وحرمان قد انتهكت ، وعقود قد مزقت ، وأرحام قطعت ، ودماء قد سفكت فى سبيل المال .

ويحذر القطب الدسوقي من هذا الداء العضال فيقول :
« ان أردت أن تكون ولدى حقاً وتبغى صدقاً ، فأخلص العبودية لله عز وجل واجعل واعظك من قلبك ، وكن عمالاً بجسدك وقلبك ، ولا تأخذ لاحد من المريدين درهما فان هذه طريقى ومن أحببني سلك معى فيها ، فان الفقير الصادق هو الذى يطعم الناس ولا يطعمونه ، ويعطيهم ولا يعطونه » ولا يلتمس الدنيا ولا شيئاً من عروضها « فان الرشاً فى الطريق حرام يرشى المريد شيخه حتى يميل اليه ، فاذا مال ، كان حكمه حكم القاضى اذا قبل الرشوة ليحكم بحكم غير حكم الله ، وذلك شديد التحريم . . وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لاحد فلساً ، ولا درهما ولا يأكل له طعاماً الا ان سلم من العلل » (١) .

ويقول : « بالله عليكم يا اولادى اسمعوا منى ماينفعكم ، فانى بايعت الله على انى لا اطلب أموالكم ، ولا آخذ تراثكم ، ولا أدنس حرمتى بما فى ايديكم ، فاسمعوا واطيعوا ، وعلى أموالكم الامان منى ومن جماعتى الذين اخلصوا معى ، وأسأل الله تعالى ان يلحق بقية اولادى بمن خلص معى ويجعلهم مثلهم فيشفقون على اخوانهم وينصحبونهم مع تجنب أموالهم » (٢) .

٥ - التجرد من عاطفة التمرکز حول الذات : وهى عاطفة مدمرة لو سادت باقى العواطف لان صاحبها يكون همه فى الحياة تكريس الجهود لتعظيم نفسه وارضائها ويصبح مقياس الخير والشر مدى خضوع الناس له واحترامهم

(١) و (٢) الطبقات الوسطى ١٠٩ ب ، ١/١٠٦ على التوالى وما بين علامات النصيص زيادة من الطبقات الكبرى .

واجلالهم لشخصه ، ولا تنساق نفسه الا لمن يشبع غروره واعجابه بنفسه ، ومن
مظاهر التمرکز حول الذات حب السيطرة ومظاهرها ، وتأليه النفس .

ويحذر القطب الدسوقي من هذا الداء فيقول :

« اياكم وأن تقنعوا بتقبيل ايديكم والرياسة على أقرانكم » فان حب الرياسة
اذا كان هو السائد المتحكم في العواطف تحول الانسان الى وحش مسعور
يضحى بكل ما يملك في سبيل اشباع هذه العاطفة المتعطشة الى اذلال الغير
والتحكم في «مصائرهم في دائرة تخصصه وعمله . وهذا الداء يتطور الى
اشكال شتى تخفى على من يقوم بعملية استبطان ذاتية ، ولكن الاستاذ العارف
يدركها ويحسها كما لو كانت شيئاً مادياً أمامه : ولا يزال ينتبع عروق الداء
حتى يستأصلها من جذورها ، وهذا الداء - داء حب الرياسة - هو آخر العلل
الذي يمكن أن تتخلص منها النفس واصعبها علاجاً . وقل من يشفى منه .

ويعلن القطب الدسوقي على مردييه أنه اذا نصحهم قائماً يفعل ذلك اجتهاداً
في النصيحة في الدين ولا يرى لنفسه مكانة فوقهم « ما علمتكم بذلك الا لتقتدوا بي لا
للمشيخة عليكم فاني أرى نفسي دونكم وانما المراد سلامة الذمة وبراءتها من
الخلل في نصح الاخوان » ، وكثيراً ما كان ينشد اذا قيل له انصحنا أو أدبنا ،
لا تعدلين الحرائر حتى تكوني مثلهن . يقبح على معلولة وصف الدوا للناس
والناس يظنون أن المعرفة بالله عز وجل مرادفة للكرامات من جميع الاشكال
والالوان مع أن هذا ليس من المعرفة في شيء ، واذا ما وجد في النفس الميل الى
الكرامات فهذا دليل على أن صاحبها لم يذق شيئاً في المعرفة ، وأنه يتخذ من
طريق الله عز وجل وسيلة الى اشباع شهوة الرياسة التي تعتلج فيه .

« من أدخل دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة بقى هو بلا هو ،
فحينئذ يبقى زماناً ما فانياً ، ثم يعود في حفظ الله وكلاءته سواء حضر أو
غاب ، ولا يبقى له حظ في كرامات ولا كلام ولا شأن نفساني وخلص لجانب
العبودية المحضة » .

٦ - لا يقدم أحد في الطريق لسبب غير تقوى الله عز وجل ، وهذه المسألة
يترتب على مخالفتها الانقطاع عن الطريق ، ولا تتأتى مخالفتها الا لوجود بقية
من الافات النفسية المترسبة في أعماق الباطن ، ومما يحدث في هذا الصدد :

اعتبار السن كشرط من شروط الاستاذية في المعرفة ، مع أن السن لا دخل له بالمعرفة ، ولذا نجد أن بعض العارفين قد يترك الأمر من بعده إلى شاب يسند إليه تكملة تربية المريدين وفيهم من هو في سن والده أو جده . فتتفر نفوس الناقصين منهم ويهجرون الطريق ولا ينتفعون بشيء ، وفاتهم أن الطريق ليست بالسن ولا بالورثة ولا بالجاء ولا بالمركز ولا بالمكانة ، بل كل هذه حجب تحجب عن الله عز وجل وليست بسبل توصل إليه ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم . « ليس لأحد أن يقدم في الطريق لكبر سنه وتقادم عهده ، انما يقدمه فتحه ، ومع هذا فمن فتح عليه منكم فلا يرى نفسه على من لم يفتح عليه ، وتأمل يا ولدي ابليس اللعين لما رأى نفسه على آدم عليه السلام وقال : أنا أقدم منه وأكثر عبادة وقدرًا كيف لعنه الله تعالى وطرده » .

٧ - سياحة المربي لا لغرض دنيوى :

وفى ذلك يقول « ان من أحكم من هذه الطائفة أمره وارتوى من الأحوال وبلغ مبلغ الرجال ، وانجست من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكتسبة للسعادات : استنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان فى اقطار الأرض ، فيسبح فى البلدان لملاقاتهم وينبعث الى السير فى الافاق ، ويسيره مولاه فى البلاد لفائدة العباد ، يستخرج بمغناطيس حاله خبايا أهل الصدق ، ويبذر فى أرض القلوب بذر الفلاح فيكثر ببركة صحبتته أهل الصلاح ، وهذا مثل الأمة الهادية فى الانجيل «كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه» تعود بركة البعض على البعض ، وتسرى الأحوال من البعض الى البعض ، ويكون طريق الورثة معمورا وعلم الافادة منشورا » (١) .

هذه هى بعض شروط مقام التربية اقتبسناها من عباراته ، ولا يخفى أنه مقام عزيز : « يا ولادى طوبى لمن وصل الى حال تقرب العباد من الله تعالى ثم وقف يدعوهم اليها ، فكونوا داعين الى الله تعالى باذن الله » ، فجمع الناس على خالقهم عز وجل هو أساس السعادة العظمى التى استوعبت كل سعادة ، وفى الحديث الشريف : « لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » . وفى رواية أخرى : « لان يهدى الله على يدك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس » (٢) يرشدنا امام الهداى صلوات الله وسلامه عليه الى

(١) لسان التعريف ١/٤٦ .

(٢) المناوى : كنوز الحقائق فى حديث الخلائى — وقال رواه الطبرانى .

الاجتهاد فى سبيل هداية الناس الى الله عز وجل فهى خير من الدنيا وما فيها ،
اذ أن كل خير مرتبط ومتعلق بها ، فتأمل ما فى هذا الخلق المحمدى من اعجاز .

من آداب المرید مع أستاذہ العارف

ان الغاية القصوى لطالب الحق عز وجل هو الاجتماع بمرب عارف يدلّه
على الطريق المستقيم ويحذره من آفات الانقطاع والاحتجاب ، فاذا نال هذا
المطلب ، وجب عليه أن يتأدب مع أستاذہ بالآداب التى يفرضها عليه شرف غايته
العزیزة التى لا غاية فوقها أو بعدها فى الوجود ، فاذا مارأى المربى ان مریدہ
قد تحلى بحلل الآداب المناسبة لمطلبه «رباه بالطف شراب وسقاه من ماء التربية
ماء النفع بملاحظة باطن السر المعنوى والفعل المرضى المضى ، فما أسعد من
حسن أدبه مع مربيه فانه يفلح نجحا وصلحا وينفلق له من الدجنة صبحا ،
وهذه طريقة القوم المحققين المخلصين الصادقين المتميزين الواصلين المجتهدين
الطالبين الراغبين المرضيين رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى
ربه » (١) .

وقد عنى العارفون بجمع هذه الآداب ونظمها لتسهيل السلوك على المریدين :
فلم تخل منظومة فى الطريق منها وممن نظمها لتيسير حفظها : الامام أبو
العباس أحمد بن محمد الشريشى (٢) البكرى الصديقى ، والعارف
الشرنوبى (٣) ، والامام مصطفى بن كمال الدين البكرى (٤) ، والعارف الشيخ
رضوان العدل بيبرس [١٣١٠ هـ] الذى أسهب فى بيانها فى منظومته مطهرة
النفوس وروض القلوب المستطاب .

وقد تتبعنا هذه الآداب فى كلام القطب الدسوقى فجمعنا بعضها فيما يلى :

اولا : قوة الرابطة بين المرید والاستاذ :

(١) من كتاب الجوهرة المطبوع ص ١٤ .

(٢) أصله من المغرب هاجر الى مصر واستقر بالفيوم حيث نوى بها عاشى من ٥٨١ —
٦٤١ هـ وقصيده تسمى (أنوار السرائر وسرائر الأنوار) وقد عنى العارفون بشرحها مثل
شرح الامام أحمد بن يوسف الفاسى ، والقطب الدباغ ، والحافظ ماء العينين وكلها مطبوعة .
(٣) العارف الكبير أحمد عرب الشرنوبى (٩٣١ — ٩٩٤) هـ . وقصيده تسمى (نائبة
السلوك الى ملك الملوك) نشرها وشرحها العلامة عبد المجيد الشرنوبى ط القاهرة ١٩٥٨ .
(٤) منظومته (بلقة المرید ومشتهى الموفق السعيد فى آداب الطريق) مطبوعة . والفيسه
التصوف فى ١٢١٩ ببنا وهى مخطوطة .

ولكى تتصور مقدار متانة هذه الرابطة تأمل قوله رضى الله تعالى عنه « ولد
القلب خير من ولد الصلب ، فولد الصلب ورث الظاهر من الميراث ، وولد القلب
ورث الباطن من السر » (١) .

ولا يصح لمريد أى قدم فى الطريق مالم يعرف حقيقة هذه الرابطة ويتحقق
بشروطها : ويتفاسوت المريدون فى المقامات على قدر صدقهم فى محبتهم ،
ويشير رضى الله تعالى عنه الى المحبة التى تتلاشى فيها الاهواء والحظوظ
النفسية فيقول « مادمتم أنا أنا ، وأنت أنت ، فلا محبة ، انما المحبة ممانجة
الارواح بالاجساد » ينبه الى أن الجسم يتأثر بالحب الروحى وينبعه ، فلا
يتحرك الا فى خدمة من أحب .

فمن ادعى حب الله عز وجل كانت كل حركاته الجسمية فى خدمة الله
تعالى ، ومن ادعى أن الحب روحى ، والجسم غارق فى المخالقات فهو واهم
ضال مضل كذاب .

والقطب الدسوقي يرشد الى المحبة التى ينتفع منها المريد بأنوار أستاذة
وهى محبة الصغير للكبير لا الكبير للصغير .

ويقول القطب الشهير السيد عبد العزيز بن مسعود الدباغ الحسنى فى هذه
القاعدة « ان المحب لا ينتفع بمحبة الكبير له ولو كان الكبير نبيا ، حتى يكون
الصغير هو الذى يحب الكبير فحينئذ ينتفع بمحبته ، الا الله تعالى ، فانه تعالى
اذا أحب عبدا نفعته محبته ولو كان العبد فى غابة الأعراض » (٢) .

وقال « ان الصغير اذا أحب الكبير جذب مافى الكبير ولاعكس » .
واذا لم تكن المحبة صادقة لابد وأن تنتهى بانقطاع المريد وتبدل رأيه تغير
نيته نحو أستاذة .

وينقسم المريدون من حيث تعلقهم بالاستاذ الى ثلاثة أقسام :
مريد محبته لغرض من الاغراض قد يكون واضحا له ، أو مخفيا فى بؤرة
اللاشعور ، وهذا لابد من انقطاعه ولو كانت نيته فى صحبة الاستاذ لاجل
الفتح .

(١) طبقات الابرار للبقاعى ١١٥/ب .
(٢) الأبريز ص ٢٠٢ . ط القاهرة ١٣١٧ هـ .

ومريد محبته منقطعة تارة تخبو وتارة تشتعل فتقطع عنه أسرار المعرفة
وتتصل بحسب اشتعال نور محبته .

ومريد محبته خالصة دائمة حبا فى الله عز وجل ، وهذا لايزال يترقى حتى
يفتح عليه ، وهذه المحبة نابعة من شدة حبه لله ورسوله صلوات الله وسلامه
عليه ، وفى الحديث المتفق عليه عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده
ووالده والناس أجمعين » .

وفى ثمرة هذه الرابطة يقول القطب الدسوقي .

« يا أولادى ، ان صح عهدكم معى فانا منكم قريب ، وأنا فى ذهنكم وفى
سمعكم وطرفكم وجميع حواسكم الظاهرة والباطنة ، وان لم يصح لكم معى
عهد فلا تشهدون منى سوى البعد ، واذا كنت لا أرضى اللعب لاحد من خلق
الله ، فكيف أرضاه لولد قلبى ؟ فان أخذتم يا أولادى عهدى وعملت بوصيتى :
سمعت كلامى ، ولو كان أحدكم بالشرق وأنا بالمغرب ، ورأيت شخصى فمهما
ورد عليكم من مشكلات سركم أو شئ تستخيرون فيه ربكم ، أو عرض لكم أحد
بأذى فوجهوا وجهكم ، وصفوا سرهم . واطبقوا عين حسكم ، وافتحوا عين
قلوبكم فانكم سترونى جهارا وتستشيرونى فى جميع أموركم وتطلبوا منى
حوائجكم ، فمهما قلته لكم فاقبلوه وامثلوه وهذا ليس خاصا بى ، بل بكل
شيخ صدقتم فى محبته ، وقد يعلم ذلك شيخكم وقد لا يعلم ، هكذا جرت سنة
أولياء الله تعالى مع مريديهم » .

وهذا ما يطلق عليه علماء الروح الان : الجلاء السمعى ، والجلاء البصرى ،
واستقبال الخواطر او تلقى الرسائل Telepathy

ثانيا : الصبر على صحبة الربى :

هناك مدع ليست عنده قابلية للسلوك ، ولكنه يتوهم ان الاستعداد موجود
عنده ، فيطلب الربى ويصعبه ، ولكن العارف يطلع على قابليته فيجدها غير
صالحة لعدم صدقه فيما يدعى ، وحينئذ اما ان ينقطع هذا الشخص ، واما
ان يلح على الربى ان يوصله مثل فلان وفلان ، فيعرض نفسه للاختبار الشخصى
حتى يعلم من نفسه انه غير صادق فيما يدعيه فينصرف مشكورا او يستمر على
صحبة الاستاذ ان شاء .

(١) الطبقات الوسطى ١/١١٠ — ولا تخلب عن عبارة الكبرى .

اما المريد الصادق فلا يصرفه صارف عن صحبة استاذة لانه يصحبه في حب الله عز وجل لا حبا في نيل اغراضه ، وما كان لله دام واتصل ويوصي مريديه بالصبر على محبة الاستاذ فيقول :

« يا اولادى اذا صحبتكم غيرى من بعدى فاصبروا على جفاه ، فانه ربما امتحنكم ليريد بكم الخير ، وان يجعلكم محلا لاسرارده ، ويرقيكم بذلك الى معرفة ربكم ، فمن اشتغل قلبه بمحبة شيخه ترقى الى محبة الله عز وجل ، ولولا ان الشيخ سلما لتربية المريد لمقت الله كل قلب وجد فيه محبة لسواه » (١) .

ولهم في ذلك عبارات ونظم رقيق ، يقول الامام الجيلانى في عبيته :

ومسمى فيك بعدى عن السوى وفطرى اننى وجهك راجع
ويقول بعضهم :

وملأت كل منك حتى لم ادع منى مكانا خاليا لسواك
فالقلب فيك هيامه وغرامه والنطق لا ينفك عن ذكراك
والطرف حيث اجيله متلفسا فى كل شىء يجتلى معنك
والسمع لا يصغى الى منكلم الا اذا ما حدثوا بحلاك

ويقول آخر :

اترك ملامى وهند عن عذلى فالحب معنى لست تدريه
وفى ضميرى من لا ابوح به وفى فؤادى من لا اسميه
قد أدهش الطرف فى محاسنه وحير القلب فى معانيه
محجب والقلوب تشبهه مغيب والغرام يبيديه
وجهه حيث كنت واجهنى لا شىء يخفيه او يواريه
ان تلت يا بغيتى ويا أملى يقول لبيك فى تعالىه
ها أنا دان منك مقترب فخذ من الوصل صرف صافيه
وأغنم زمان الرضا فما أحد يدري الذى فى غد يلاقيه

فالمدار فى المحبة على تجريد القلب من كل حب للسوى وامتلاء القلب بحب الله تعالى ، ويرشدنا امام المحبين وسيد المتقين صلوات الله وسلامه عليه الى هذا الكنز الثمين الذى يجمع المخلوق على خالقه فيحيا حياة مضيئة بأنوار الله

(١) الطبقات الوسطى ١١٠/ب .

عز وجل فيقول : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا احببت فاحبب في الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »

ولو اخلص العبد النية لله تعالى في جميع احواله لما احتاج الى مرب ، وما طرأت العلل الا لفساد في عقد النية لله عز وجل .
ثالثا : السمع والطاعة :

العارف حكيم المرید وطبيبه ، وإذا لم يعمل المرید بقوله لم يحصل له الشفاء ، بل قد تكون صحبته وبالا عليه لاساءته الادب « فيا اولادى ناشدtkم بالله لا تسيئوا الى طريقى ولا تلبسوا فى تحقيقى ولا تدلسوا ولا تدنسوا . . وكما اجتبيناكم واخترناكم فلا تكدروا علينا ولا تروموا طريقتنا وتكتفوا فيها بالكلام ، وكما وفينا لكم بحق التربية والنصح ، فوفوا لنا بالسمع وقبول النصيحة ، وانما آمركم بما امركم به ربكم ، وان نقضتم العهد فانما هو عهد الله لا عهدى ، وان كنتم صحبتموننا لتأخذوا منا اوراقا من غير عمل فلا حاجة لنا بكم » (١) .

ويعنى بالاوراق : الاجازة فى الطريق

ويقول « رأس مال المرید المحبة والتسليم والقاء عصا المعاندة والمخالفة والسكون تحت مراد شيخه وامره ، فاذا كان المرید كل يوم فى زيادة محبة وتسليم ، سلم من القطع ، فان عوارض الطريق وعقبات الالتفاتات والارادات هى التى تقطع عن الامداد وتحجب عن الوصول »

رابعا : على المرید الا يقتدى بأحوال استاذه الا فيما يأمره به :

ذلك لان المرید مبتدىء والمربى منته ، وفرق بين المبتدىء والمنتهى وفى ذلك يقول :

« المبتدى مجاهد ، والمنتهى مشاهد ، المبتدى خائف ، والمنتهى طائف ، المبتدى تائب ذائب ، والمنتهى غائب ، المبتدى محزون ، والمنتهى مسرور ، المبتدى باك حيران ، والمنتهى ضاحك مقرر له العينان ، المبتدى صائم قائم ، والمنتهى فى بحار القرب عائم ، المبتدى محجوب بأعماله والمنتهى « مشغول بالنظر الى جلاله » هذا بالظاهر يجرى وذاك بالباطن يسرى ، هذا محجوب وذاك محبوب ، هذا سكران وذاك صاح ، المبتدى يلبس الدلوق ، والمنتهى يلبس

(١) الطبقات الوسطى ١/١٠٦ .

الخلق ، اذا عارضه فى الطريق عاطل ناداه الا كل شيء ما خلا الله باطل « (١) .

وفى كتاب الجوهرة زيادات نذكرها :

« المبتدى يلبس الصوف ، والمنتهى يلبس ثوب الصفا ، هذا جهيد وهذا شهيد ، هذا مزق اثوابه ، وهذا مزق قلبه حب أحبائه ، المبتدى يحاسب نفسه على الذر ، والمنتهى يحاسب نفسه فى سر السر ، المبتدى بالرياضة يغتدى ، والمنتهى بالافاضة يغتنى ، المبتدى محصور فى الاحوال والاقوال ، والمنتهى تعدى الحال والمقال وليس له مطلوب الا ذو الجلال ، هذا يلبس الخشن ويحمله ، وهذا رقيق الثياب لا يستطيع حمله ، لان المبتدى عذابه لجسده ، والمنتهى حاله فى قلبه ولبه ، فقلبه احرقته نيران حبه وتجليات استنزالات مواد امداد مدد ربه ، هذا له أعمال ، وهذا له أحوال ، هذا من المقربين ، وهذا من المختصين ، هذا فى خلوته ، وهذا فى جلوته ، هذا فى عزلته ، وهذا فى بدليته ، وقطبيته ، هذا فى الجمع مخلص ، وهذا فى الجمهور مجتلى . . هذا بين الناس ، وهذا عنهم باين ، وفى موطن القرب ساكن ، المنتهى ممتلىء بين الجلاس والمبتدىء يفر من مخالطة الناس ليقوى العمارة والاساس » .

خامسا : لا يصح لمريد أن يتكلم فى الطريق وفى التربية الا بعد اذن من أستاذه .

لان التربية بدون اذن من الاستاذ العارف معناها : اشباع الاغراض والشهوات الشخصية ، بدون أن يبلغ الشخص المستوى الذى يؤهله للمهمة التى صدر نفسه بها ، وفى ذلك هلاكه وهلاك من تبعه .

يقول (يجب على المريد ألا يتكلم قط الا بدستور شيخ أن كان جسمه حاضرا ، وان كان غائبا يستأذنه بالقلب ، وذلك حتى يترقى الى الوصول الى هذا المقام فى حق ربه عز وجل ، فان الشيخ اذا رآه هكذا رقاؤه الى الادب مع الله ، ورباه بلطيف الشراب ، وسقاه من ماء التربية « ويا شقاوة من أساء » (٢) .

(١) الكواكب ٢٢٩/ب وما بين علامتى التنصيص من كتاب الجوهرة .

(٢) الطبقات الوسطى ١/١٠٣ وما بين تنصيصين فهو من الكبرى .

ويمتد هذا الحكم على جميع حركات المريد وسكناته ، فلا يفعل شيئا الا بعد مشورة شيخه ومربيه : من زواج او سفر او عزلة او مخالطة او اشتغال بعلم ، او ذكر او اوراد وفى ذلك يقول « هكذا كانت طريقة السلف والخلف مع اشيائهم ، فان الشيخ هو والد القلب ويجب على الولد عدم عقوق الوالد ، ولا يعرف العقوق ضابطا يضبطه ، انما الامر عام فى سائر الاحوال ، وما جعلوه الا كالميت بين يدي الغاسل فايكم ومخالفة الاشياخ فان كثيرا من الفقراء صحبوا الاشياخ بلا ادب فماتوا بغصصهم ، آه من صدود الرجال ومن صحبة الاضداد » .

ذلك لان المريد اذا اتبع هواه قد يسلك مسلكا يظنه صحيحا وهو باب من ابواب الحطوط النفسية التى لا تنتهى فيزداد مقتا وطردا . فلا يدخل فى مسلك ولا فى عبادة الا باذن من مربيه حتى الخلوة نفسها « لا تفيد الخلوة للمريد الا ان كانت باشارة شيخه والا فضررها اكثر من نفعها » .

يقول صاحب الهائية العارف ناصر الدين بن بنت الميلى ، (فى آداب المريد مع استاذة (١) :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| واخلص وداك صدقا فى محبته | والزم ثرى بابيه واعكف بناديه |
| واستغرق العمر فى آداب صحبته | وحصل الدر والياقوت من فييه |
| وأبذل قواك وبادر فى أوامره | الى الوفاق وبالغ فى مراضيه |
| واحذر بجهدك أن تأتى ولو خطأ | ملا يحب وباعد عن منساهبه |
| وكن محب محبيه وناصرهم | والزم عداوة من أضحى يعاديه |
| واعلم يقينا بأن الله ناصره | ان لم تكن ناصرا فالله يكفيه |

الى ان قال :

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| واترك مرادك واستسلم له أبدا | وكن كميت مخلا فى أياديه |
| اعدم وجودك لا تشهد له أثرا | ودعه يهدمه طورا ويبنيه |
| متى رأيتك شيئا كنت محتجبا | برؤية الشئ عما أنت ناويه |
| ولا ترى أبدا عنه غنى فمتى | رأيت عنه غنى يخشى تناسيه |

(١) شرح الهائية المسمى (حال السلوك الى ملك الملوك) لابن علان الصديقى — مخطوط بالكتبات الازهرية . وصاحب الهائية هو قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن عبد الدائم الانصارى الشاذلى (٧٣١ — ٧٩٧ هـ) .

ان اعتقادك ان لم تأت غايته فيه فيوشك أن تخفى مبادئه
وغاية الامر فيه أن تراه على نهج الكمال وان الله هاديه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل في الاعتقاد ولا من لا يواليه
الا اذا سبقت للعبد سابقة يعود من بعد هذا من مواليه
فنظرة منه ان صحت اليه على سبيل ود باذن الله تغنيه

من شروط المريد الصادق

سلوك الطريق ليست دعوى من الدعاوى يدعيها كل جاهل أو يطمع فيها كل
كاذب أو منافق باع دينه بدنياه ، فان العارفين قد بينوا كل ما يتعلق بآداب
الوقت والمعاملات فمن ادعى انه من المرين طالبوه بشروط القيام بالتربية فاذا
انطبقت عليه سلموا له . ومن ادعى الارادة طالبوه بشروط المريد الصادق فاذا
انطبقت عليه فتحوا له الباب ، وان لم تنطبق عليه نصحوه بالاكتفاء بما هو
عليه .

والشرط الاساسى فى كل مريد صادق هو ملازمة الشريعة والتخلصى
بآدابها « من لم يكن متشعرا متحققا عفيفا فليس من اولادى ولو كان ابنى
لصلبى ، وكل من كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة
والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع ، عاملا بما علم فهم ولدى وان كان من
اقصى (١) البلاد » .

فهذا هو النوع الذى تفيده التربية جاء بجميع الادوات ولا ينتظر غير من
يوقد له فتيل المعرفة .

ومن تتبع عباراته رضى الله تعالى عنه نذكر بعض هذه الشروط :

١ - التوبة الصادقة عن القواطع :

وهى كل ما يحجب عن الله عز وجل ، ولا تتم الا بمعرفته تعالى المعرفة
الترآنية المحمدية ، وشروطها الندم على ما سلف والاقلاع عنه فى الحال والعزم
على عدم المعاودة فى المستقبل واكثر الناس يتنزهون عن الكبائر الحسية وهم
غارقون فى كبائر معنوية هى اشد من الحسية بكثير .

(١) الطبقات الوسطى ١٠٣/ب وما بين نصيحين من الكبرى .

ومنزل التوبة اول المنازل ، واوسطها ، وآخرها فلا يفارقه مؤمن الى الممات ، وهو يصاحبه فى كل منزل ارتحل اليه .

يقول : « البس من ثوب التوبة قميصا نقيا ابيض صافيا مصفى مقصورا من نور ، لا فيه كدر ولا قطع : ما ثوب البطالة الا اسود . فالبس ثوبا تقف به بين يدى الثواب . والثوب ما هو بالخشن ولا بالصفيق والرقيق ولا بتخن الزيق ، انما هو ثوب حسنك المروق » .

٢ - ملازمة ذكر الله عز وجل

فذكر الله عز وجل هو منشور الولاية لمن صدق واخلص ، وذكره عز وجل هو المنزلة الكبرى الشاملة لكل منزل حق وصدق (ولذكر الله اكبر) هو قوت القلوب ، وعمارة الديار ، ودواء الاسقام :

اذا مرضنا تداويننا بذكركم فنترك الذكر أحيانا فننتكس به تنقشع الظلمات وتتبدد الحجب وتصفو النفوس وتطهر من ادناسها : هو الباب الاعظم المفتوح بين الله عز وجل وبين عباده مالم يغلقوه بغفلاتهم ، وعلامة ذلك فقدان الحلاوة عند الذكر او سماعه . والفلاح معلق باستدامة الذكر ، والخسران معلق على الاعراض عنه ، والذاكرون الله كثيرا هم المفردون فى العناية الالهية بالدرجات العليا ، وفى المسند مرفوعا من حديث ابي الدرداء رضى الله تعالى عنه (الا انبئكم بخير اعمالكم وازكاها عند مليكم وارفعها فى درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والفضة وان تلقوا عدوكم فتضربوا اعناقهم ويضربوا اعناقكم ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل) (١)

• وعن ابي سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل اى العباد افضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال الذاكرون الله كثيرا ، قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله افضل درجة (رواه الترمذى ورواه البيهقى مختصرا قال قيل يا رسول الله اى

(١) ورواه ابن الدنيا والترمذى وابن ماجه والبيهقى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

الناس اعظم درجة قال الذاكرون الله كثيرا) وهذا الجواب من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وبيانه المعجز للعالمين : ان مدار سعادة الدارين على ذكر الله تعالى .

ونذكره عز وجل بالقلب وباللسان وبالسِر وبالقول وبالعَمَل وبالعِلْم ، وكم من ذاكر لا يتأدب مع خالقه فيذكر ويعج بصوته وهو ملعون : لانه يعصى الله تعالى ويذكره ! فكم من ذاكر غافل ، وكم من صامت يذكر الله بجميع ذرات وجوده !

وما ذكره من لم يعرفه عز وجل : ومعرفته تعالى تقتضى معرفة تعلق الوجود خلقا وامرا بالاسماء الحسنی وصفاته العليا ، فالعالم وما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها ومن المحال تعطيل اسمائه عن اوصافها ومعانيها ، وتعطيل الاوصاف عما تقتضيه من أفعال وتعطيل الافعال عن المفعولات ، كما يستحيل تعطيل المفعولات عن الافعال ، والافعال عن الصفات والصفات عن الاسماء وتعطيل اسمائه وصفاته عن ذاته المقدسة . كما ان فرض تعطيل كمالاته عن موجباتها مستحيل .

ويترتب على ذلك ويستلزم هذا ان المعرفة الصحيحة لله عز وجل غير ممكنة الان الا عن طريق واحد هو الوحي القرآنى كما بينه خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه . فمن عرف الله عز وجل المعرفة القرآنية فقد ذكره الذكر الدائم الذى لا يزول .

يقول رضى الله تعالى عنه (يجب على الفقير ان يطهر اعضائه وقلبه من الغفلات عن ذكر الله تعالى كما يجب ان يطهرها عن المعاصى الظاهرية من باب حسنات الابرار سيئات المقربين) (١) (من قام بالاسحار ولازم فيها كشف له عن الانوار وسقى من دن الدنو وخمر الخمار وطلعت فى قلبه شمس المعانى والاقمار ، فاعمل يا ولدى بما اقول تنال القبول) (٢) .

ويصف المحبين فى اجتهادهم بقوله :

[اذا جن عليهم الليل باتوا قائمين فاذا هب عليهم نسيم السحر مالوا مستغفرين فلما رجعوا عند الفجر بالاجر نادى منادى الهجر يا خيبة النائمين]

(١) الطبقات الوسطى ١١٠/ب .

(٢) الطبقات البقاعى ١/١١٦ .

(فيا هذا لو رأيت القوم وقت نسمات الاسحار وتجلي الانوار لرأيتهم كأنهم الكواكب والبدور تتلألاً وجوههم بالنور : « كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » : جنات عدن مفتحة لهم ابوابها قطوفها دائية وقصورها عالية وفيها مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (١) .

٣ — الصبر والصدق والعزم الذى لا يلين فى سبيل الل عز وجل .
وهذه الاخلاق تميز الكاذب من الصادق ، والمدعى من المخلص ، والمؤمن من المنافق والصبر هنا يقصد به الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصية الله ، والصبر على الجهاد فى سبيل الله تعالى يجمع ابواب الصبر .
وحقيقة الصبر ان يكون بالله (واصبر وما صبرك الا بالله) .
والصبر لله والباعث عليه حب الله تعالى لا لغرض نفسى كاظهار القوة ، او التحبب الى الخلق .

والصبر مع الله ، وهو دوران العبد مع الشريعة لا ينفك عنها فى جميع شئونه ، قد جعل نفسه وفق اوامره عز وجل . قال الجنيد (هجران الخلق فى جنب الله شديد ، والمسير من النفس الى الله صعب شديد . والصبر مع الله اشد) وهو درجات قال يحيى بن معاذ : صبر المحبين اشد من صبر الزاهدين . واعجبا ! كيف يصبرون ؟ وانشد :

والصبر يجمال فى المواطن كلها الا عليك فانه لا يجمــــــــــــل
ووقف رجل على الشبلى فقال : اى صبر اشد على الصابرين ! فقال :
الصبر فى الله .

قال السائل : لا . فقال : الصبر لله : فقال لا . فقال الصبر مع الله فقا :
لا . قال اشبلى : فايئش هو ؟ قال : الصبر عن الله فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف .

والعمامة تظن ان الصبر هو الصبر على الظلم والاستعباد والمعصية وهذا يكاد ان يكون كفرا لمخالفته الصريحة لنصوص الشريعة .

فهو من الكبائر التى يعاقب عليها الانسان ويذم عليها ، فجعل العوام المذمة محمداً ، والسيئة حسنة نعوذ بالله تعالى من الضلال وفساد العقائد .

(١) الجوهرة ص ٤٣ .

يقول رضى الله تعالى عنه (علامة المرید الصادق ان يكون سائراً فى الطريق ليلاً ونهاراً غدواً وابكاراً ، لا مقيلاً له ولا هدوءاً ، جواده قد فرغ من اللحم [١] . وامتلاً من الشجاعة والعزم ، وقد شقت مطيته السرى ، واسقمها البرى ، لا يفند همته مفند (٢) ، ولا يهو له مهلك ، ولا ترده ضربات الصوارم ، ولا يفتله (٣) شيطان غوى ، ولا مارد جنى كل من خاصمه فى محبوبه عاد مخصوماً لا يهدأ ولا ينام ولا يصحو بل الدهر كله عنده سواء حتى يدخل خيام ليلى ويضع خده على اطناب خيامها ، ويسمع خطابها بالترحيب ، وهناك يتنفس ويطيب ، ويسمع القائل يقول [٤] « استرح يا طول ما قطعت برارى وقفاراً ، وجبالاً وبحاراً ، وظلاماً ناراً : يا طول ما تعبت وتعذيت ، يا طول ما رجع غيرك من الطريق وجئت فأكرم الله مثواك ولا خيب مسعاك ، أنت اليوم نزيلنا وضيفنا ، وضيفتك لا تنقضى » [٥] .

وجاء مرة فقير يطلب منه ان يلبسه الخرقة : فنظر اليه وقال : يا ولدى التلبس فى الامور ما هو جيد : لا يصلح للبس الخرقة الا من درسته الايام وقطبته الطريق بجهداها ، واخلص فى معاملته وقرأ معانى رموز الطريق ، ونظر فى اخبار اهلها وعرف مقاصدهم فى حركاتهم وسكناتهم واسفارهم واخلاقهم ، فان كنت يا ولدى تعقد التوبة فى هذا الوقت فلا تكن مجونياً ولا لعاباً ولا صبى العقل ، فما الامر بقول العبد تبت الى الله باللفظ دون القلب ولا بكتابة الورق والدرج وانما التوبة ان يتوب العبد عن ان يلحظ الكون بعينى قابله او يراعى غير مولاه ، فاذا صح للفقير هذا الامر « هناك ترجى له صحة التوبة » (٦) .

« صف اقدمك فى حندس الليل ولا تكن ممن يشتغل بالبطالة ويزعم انه من اهل الطريق فان من استهزأ بالطريق استهزأ به » .

(١) يشر الى الجوع الذى يقصد منه نقوية الهمة والروح .

(٢) وفى نسخة « لا يقيد همه مقيد » .

(٣) لا يرده .

(٤) فى الطبقات الكبرى بدلا من العبارة التى بين علامتى التنصيص (أنت اليوم ضيف عندنا ، وبومنا لا انقضاء له أبد الابدين ودهر الداهرين) .

(٥) الطبقات الوسطى ١/١٠٧ .

(٦) الطبقات الوسطى ١/١٠٨ — وفى الكبرى بدلا من العبارة التى بين علامتى التنصيص (فهناك يصلح للرقى فى مقامات الرجال) .

وكان يقول : « قوت المرید الجوع وافطاره الدموع ، وفطره الرجوع ، يصوم حتى يرق ويلين وتدخل الرقة قلبه وتتفتح مسامع لبه ويزول الوقر من سمعه فيسمع حينئذ القرآن ومواعظه بقلب حاضر فينتفع واما من اكل ونام ولغا في الكلام وترخص وقال ، ما على فاعل ذلك ملام فانه لا يجيء منه شيء والسلام »

فطالب الحق عز وجل لا يعرف في الوجود غير خالقه : وجوده في خلوته مع مولاه ، لا لذة له في الحياة ولا يطيب له عيش الا اذا اجتلاء بجميع ذرات وجوده « خلوة الفقير سجاده وخلوته سره وسريته » والخلوة المشار اليها هي الخلوة الكبرى وهي عدم دخول شيء بين العار فوبين الحق عز وجل ، وهذه لا يهتم فيها وجد مع الناس ام كان وحده . اما الخلوة المكانية بمعنى الجلوس في مكان لا يصل اليه فيه احد فقد تكون اشر من المخالطة .

وهذه الخلوة الكبرى لا يطبقها الا عامل بالشرعية مقتد بآثار سيد الوجهاء والاصفياء صلوات وسلامه الله عليه ، اذ لا تتم الا على اساس العلم والنور القرآني .

ومن صدق في الطلب انفعلت له الاشياء « عليكم يا اولادى بالصدق مع الله ، فمن صدق مع ربه واخلص لا يلمس احدا في نوم او يقظة الا برىء من الامراض ونبتت من قلبه الحكمة ، وحصل عنده الزهد في هذه الدار ، فان الدنيا كحلقة بين اعين اهل التمكين لا يلتفتون اليها لحقارتها (١) يا اولادى لا احب منكم الا من كان يترقى في كل ساعة من مقام الى مقام ، وهناك تقر عيني به . يا ولدى ان اردت ان يسمع الحق تعالى دعائك فاحفظ لسانك عن الكلام في الناس وبطنك عن تناول الشبهات « يا ولدى ان شككت في قولي فافعل ما اقول لك وجرب نفسك شيئا بعد شيء تعرف صدق قولي ، فمن ثبت ثبت ، ومن اطاع اطيع ، فاذا اطعت مولاك اطاع لك الماء والنار والهواء والخطوة والانس والجن » (٢)

ومن علامات الصدق في الطلب :

المبادرة بالاعمال قبل فوات الاوان ، يقول في ذلك : يا اولادى عمركم في انتهاب ، واجلكم في اقتراب ، وقد طويت الدنيا ، وجثا اولها عند آخرها :

(١) الدنيا هي كل ما حجبك عن الله تعالى — وعرفها الامام الشعراني بأنها ما زاد على الحاجة الشرعية .

(٢) الكواكب الدرية والطبقات الوسطى ١/١٠٩ وما بين التخصيصين من الكبرى .

فالسعادة كل السعادة لمن طوى منكم صحيفته كل يوم مضمخة معنبرة ممسكة معطرة بأعماله الزكية وشيمته المرضية : والشقاوة كل الشقاوة لمن طوى منكم صحيفته كل يوم على زلات وقبائح ٠٠ يا اولادى كأنكم بالساهرة وقد مدت وبالجبال وقد دكت وبالحجارة وقد صاغت وبالحصا وهو يقطر دما ، فبادروا واعملوا ولا تسرفوا تندموا : هذه وصيتى لكم وهديتى اليكم ! .

((سألتكم بالله يا أولادى أن تكونوا خائفين من الله تعالى ، فانكم غنم السكين وكباش الفناء ، وخراف العلف : يا من تنور شواهم قد وهج .

ويا من السكين لهم تحد وتجذب قوا أنفسكم وأهليكم نارا)) [١] ومن علامات الصدق الاخذ بالعزائم فى كل أمر « طريقتنا هذه ما هى طريقة تمليق بل هى طريقة تحقيق وصدق وتصديق ، وموت وكد وجهد وسهد وكرم وكسر نفس من غير دعوى ، ومن لم يكن عنده خضوع وذل نفس (٢) لا يجيء منه شيء ، فيا أولادى ان عملتم بموعظتى هذه واشاراتى كانت اجازتى لكم صحيحة مطهرة من الشوائب « مكملة بالسر والمعنى فان المقامات ما هى محجوبة عنكم الا بكم » (٣) .

النار منك وبالأفعال توقدها كما بصالح الأعمال تطفيها (٤)
فأنت بالطبع منها هارب أبدا وأنت فى كل حال فيك تشبيهها
أما لنفسك عقل فى تصرفها وقد أتيت اليها اليوم تشقيها ؟ !
ويقول : « يا ولد قلبى تجرد من قالبك الى قلبك والزم الصمت عن الاشتغال بما لا فائدة فيه من الجدل وزخرف القول وصمم العزم ، واركب جواد الطريق » (٤) .

ولا يرضى لمريده الا مقام الجمع أو الفرق فيقول : « ولا تشرب الا شرابا فيه صحو أو سكر » .

(١) الطبقات الوسطى ١٠٣/ب — يشير رضى الله تعالى عنه الى أن كل مخلوق مآله الموت فى الدنيا فاذا كان الامر كذلك فعلم عبادة الدنيا والام الاعراض عن الله عز وجل !
(٢) لله عز وجل لا لمخلوق وان شئت فتأمل قوله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وكل من تذلل لمخلوق لم يزد الله تعالى الا ذلا .
(٣) الطبقات الوسطى ١٠٨/ب وما بين علامتى التنصيص من الكبرى .
(٤) نشر محاسن الملوك على تائية السلوك : شرح تائية العارف الشرنوبى للعلامة على بن عامر الاتيابى المالكي البرهانى — ١/٢٣٤ . مخطوط بمكتبة الازهر .
(٥) طبقات الابرار للبغافى ق ١/١١٦ .

« يا ولدى صحح عزمات عزمك واترك تخیلات وهمك ، ولج بحر الحقائق وسلم الامر لله ، واقتد واقتف أوامر شيخك ، وألق عصاك ، ولا تطلب خبر نفسك من غيرك بل اعمل حتى تنكشف لك حقائقك : من عرف نفسه عرف ربه » •

« يا اولاد قلبى ، ان اردتم ان تنالوا يوم المنة : يايتها النفس المطمئنة فليكن طعامكم الذكر وقولكم الفكر ، وخلوتكم الانس ، واشتغالكم بالله تعالى لا خوف عقاب ولا رجاء ثواب ، ولا بد لكل من معلم ، ونحن ننتظر من فيض ما افاض الله علينا ولا نعرف غير طريق ربنا ، وثم علم مكسوب من الكتب ، وعلم موهوب من قبل ربنا » •

« من أحب أن يكون من أولادى حقا ، فليقم قياما دائما ، وليجاهد نفسه جهادا ملازما ، ولا يمل ولا يولى ولا يرخص لنفسه فى ترك الاشتغال بالعبادة بحجة خوف الملل ، فان الناقد بصير والنفس من شأنها التلبيس على صاحبها •

٤ - الفرار من كل ما يقطع عن الله عز وجل :

لا يمكن لمخلوق ان يذوق معرفة الخالق المعرفة الصحيحة ما لم يتخلص من حجبته النفسية التى تشمل تعلقه بكل ما سواه عز وجل ، ويكون الحجاب كثيفا او رقيقا تبعا لشدة التعلق أو ضعفه ، وتتعدد الحجب بتعدد المتعلقات ، ولا يتيسر قطع مقامات النفوس - وهى اشد شىء على المريد - الا لمن صحت عقيدته ، واهتدى بهدى امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه فأصبح ايمانه بالله عز وجل هو مصدر كل شىء فى وجوده ، المنظم لعلاقاته بالموجودات وحينئذ يكون رحمة لكل من عرفه ، هذا هو المراد من الفرار من السوى ، وليس الامر كما يظنه الجهلة من ان المقصود منه هو العزلة والانقطاع الحسى عن الخلق ! فهذا مستحيل ، وقد يكون أحد الرهبان فى صومعته أشد تعلقا بالاشياء ممن يتصرف فى الاشياء ، فالمسألة اذن مسألة وجود الشىء بالنسبة لك : هل يحجبك عن خالقك ؟ وما شدة هذا الحجاب ؟

واذا قطع المريد مقامات النفس كان تعلقه بالموجودات مصدره تعلقه بمولاه فيصح له ان يقول ما رأيت شيئا الا رأيت الله قبله او بعده ، ولا يغيب فى رؤيته عن المعية الالهية والاحاطة القدسية بوجوده ووجود المخلوقات ، هذا وأمثاله

يتصرف فى الاشياء بالله لا بشهوة نفسه وحينئذ يكون تصرفه خاليا من الانحراف أو النزعات والاهواء الشخصية التى تفسد كل عمل • وهذا هو المقصود من قوله :

« أحب من أولادى من كان متنسكا لا يفتر ولا يحيد ، خاشعا خاضعا حملا لا لاذى ، سكران من حب مولاه لا التفات له الى زوجة ولا الى ولد ولا اخ ولا صاحب ولا وظيفة دنيوية ، اهتماما بمولاه حتى صار لا يلتفت لسواه » • ثم يعطى المريد ميزانا يزن به حاله فيقول :

«كيف يطلب أحدكم ليلى وهو ليلا ونهارا مع عذالها ولوامها والمنكرين على أهل حضراتها والمعترضين عليهم ، والخائضين فى أعراضهم ، والخائنين لعهودهم ! •• انما تبرز ليلى لمن تهتك فيها ولم يقبل عذل عذالها ، فان ليلى لا تحب من يكره أهل حضرتها أو يحب سواها ، وانما تحب من كان بشاربها ثملا ولهان ذهلان غرقان نشوان هيمان ، حتى لو اجتمع الثقلان على أن يلوا قلبه عنها أو يحلوا عقدة عهدا معه ما استطاعوا ، فانظروا أحوالكم يا أولادى » •

ومما ينسب اليه رضى الله تعالى عنه :

| | |
|---------------------------------|----------------------------------|
| إذا لم يكن معنى حديثك لى يروى | فلامهجتى تشفى ولا كبدى تروى |
| نظرت فلم أنظر سواك أحبه | ولولاك ما طاب الهوى للذى يهوى |
| ولما حلا لى الذكر فى خلوة الرضا | وغبت فقتل الناس ضلت بك الاهوا |
| لعمرك ما ضل المحب وما غوى | ولكنهم لما عمووا أخطأوا الفتوى |
| ولو شهدوا معنى جمالك مثلما | شهدت بعين القلب ما أخطأوا الدعوى |
| خلعت عذارى فى هواك ومن يكن | خليع عذار فى الهوى سره نجوى |
| ومزقت أثواب الوقار تهتكا | عليك وطابت فى محبتك الدعوى |
| فما فى الهوى شكوى ولو مزق الحشا | وعار على العشاق فى حبك الشكوى |
| وما علموا للحب داء سوى الهوى | وعندى أسباب الهوى كلها ادوا |
| وقد كنت من خوف الهوى اتقى الهوى | ولكن اذا اشتد الهوى غلب التقى |

وينسب اليه قوله ،

| | |
|--------------------------|----------------------|
| يا من حلا الصبر فى هواهم | بعزة الوصل والدلال |
| والله ما لى منى سواكم | بالله رفقا بضعف حالى |
| وافيت فى حبكم وفاتى | مالى وللحياة ومالى |
| حبنى دعائى الى التدانى | لبيك يا داعى الجمال |

ومن لوازم ذلك الخروج الخطوط النفسية :

وكل من خالف الشريعة فهو حظ نفس يصرف عن الله تعالى ، ولا يزال المرء
يرعى في المخالفات حتى تنقطع صلته بالشريعة فلا يستعذب الا مخالفتها :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وان هما محضاك النصيح فاتهم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع ، وان نعطيه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر ان توليـــــــــــــــــه ان الهوى ما تولى يصم او يصم
وراعها وهى فى الاعمال سائمة وان هى استحللت المرعى فلا تسم

واذا وصل المرء الى التلذذ بمخالفة الشريعة فقد تردى فى هوة الشقاء اللا
نهائية ولا خلاص له منها ، ويكون قد باع ايمانه بالله تعالى وصلته بخالقه
بلذات وهمية كلما قضى منها لذة تطلبت أخرى وهكذا ، ولذا نجد ان المعرضين
عن الخالق عز وجل لا يشبعون من الدنيا لان نفوسهم قد نسيت الطريق
المستقيم وسلكت سبل الهوى ، ولا يغرنك تنعمهم بما هم فيه ، فهو من قبيل تنعم
اهل الشقاء بالشقاء اذا ما اعتادوه فهى لذة تعود ، فالجاهل يتنعم بالجهل
ولو نقلته الى نعيم العلم لانقلب عليه جحيما ، وهذا هو السر فى مطاردة
العلماء والتضييق عليهم ، ومن استمر اللذات الصارفة عن الهدى المحمدى
يخشى عليه سوء الخاتمة لانه بحكم العادة لا يتلذذ الا بما يصرفه عن خلقه
ولو كان كفرا .

يقول رضى الله تعالى عنه :

« من أحب أن يكون ولدى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة وليختم عليها
بخاتم الحقيقة ، ليقتلها بسيف المجاهدة وتجزع المرات »

« اول الطريق الخروج عن النفس والحظ والرضا بالضيق والتلف ، فان
الفلاح » والنجاح والارباح « لا يصح الا لمن ترك الحظ وقابل الاذى بالاحتمال ،
والشر بالخير ووسع خلقه » .

« والفقير لا يكون له يد ولا لسان ولا كلام ولا تصرف ولا شطح ولا فعل ردىء
ولا يصرفه عن محبوبه صارف ولا ترده السيوف والمتالف .

« من لم ينخلع عن طوره ويخرج عن نفسه ويأتى بلا هو لا يجد عند ذلك
هو ، وقد بالغت لكم جهدى فى النصيح فان اتبعتم افلحتم » .

ومن لوازم الخلاص من كل ما يقطع عن الله عز وجل :
الانشغال بما هو ضرورى لعلاج الدين والدنيا :
فمن أحكم الشريعة دخلت دنياه بحكم الضرورة فى دائرة دينه ، وكان دينه محيطا بدنياه وغيرها من مستلزمات وجوده ومقتضياته .

وهناك أمور تبدو فى ظاهرها مستحسنة مطلوبة لازمة وهى غير ضرورية بل قد تكون فاتحة هلاك للشخص : كمن يطلب الرياسة لنفع الناس فإذا ما وصلها أهلكهم ، وكمن يطلب العلم لا للتعلم ولكن للتوصل به الى أغراضه النفسية ، وهنا تباع الصكوك والفتاوى والاحكام والاستنتاجات ، ومن هذا الباب ولج كل خسيس دنىء رغبة العلم الطاهرة فما نال الا ما ناسب حقارة نفسه .

يقول فى ذلك : « يجب على المريد ان يأخذ من العلم ما يجب عليه فى تأدية فرضه ونفله ولا يشتغل بالفصاحة والبلاغة فان ذلك يشغله عن مراده » .

ويقول : « لا يجب على المريد من العلم الا بقدر ما يعرف أنه يعمل به ، ثم يشتغل بالفحص عن اخلاق الصالحين ويعمل بها » .

اما بعد فراغه من استكمال نفسه فله ان يتبحر فيما شاء ، ذلك ان الجرى وراء ما هو ليس بضرورى يشغل عن تحصيل الضرورى ، وهو ما تكمل به النفس ، وكثير من ادعياء الصوفية يحصرون همهم فى قراءة كتب الصوفية والسؤال عن مقامات هم أبعد الناس عن العلم بها فضلا عن ذوقها ، وهم يظنون ان هذا هو التصوف الخالص وليس ذلك منه فى شيء .

« أهل هذا الزمان ما بقى عندهم الا المناقشة ، فاما يسألون عن معنى الصفات أو معنى الاسماء أو معنى مقطعات الحروف ، وهذا لا يليق بالمبتدئء السؤال عنه ، وأما المتمكن فله ان يلوح بذلك لمن يستحقه فان علمها طريقه الكشف لا غير .

« واما من اشتغل بحفظ كلام الناس او جمع الحقائق ولسان المتكلمين فى الطرق والطريقة ، فمتى يعيش عمرا آخر حتى يفرغ من عمر الغناء الى عمر البقاء ! فان القوم كانوا محبين وكل منهم يتكلم بلسان محبته وذوقه فهو كلام لا يحصر وبحر غرق فيه خلق كثير ، ولا وصل أحد الى قعره ولا الى ساحله ، وانما يذكر المعارف كلام غيره تسترا على نفسه او تنفيسا لما يجده من ضيق الكتمان آه ، آه ، آه . . .

« ولقد شهد الله العظيم انى ما اتكلم قط او اخط فى قرطاسى الا وأتوخى ان يكون ذلك بياناً لمعنى غامض على الناس لا غير ، فان الصدق قد ذهب من أكثر الناس » .

بل قد يوجد من يضع رسالة فى ترجمة عارف من كبار العارفين العلماء بالله عز وجل ، فاذا به يهرف بما لا يعرف ويخلص الى نتائج لاتمت الى المعرفة بل ولا الى العلم بصلة ، ولو سلمنا له أباطيله لهبط بمن يترجمه الى مرتبته هو لانه لا يتحدث الا عن نفسه لا عن العارف فى كل ما تصف بالنفس وشئونها ، ذلك لان جميع العارفين علومهم ذوقية لا دخل للمحابر والطروس فى اكتسابها ، ولذا رفض كثير من كبار الكمل أن يكتبوا شيئاً من علومهم ، وكانوا كلما طلب منهم ذلك يقولون « كتبنا صدور الرجال » ان ان كلامهم ينكره كل محجوب عن ذوقهم ومشربهم ومن هؤلاء الامام أبى الحسن الشاذلى ، فانه لم يؤلف ، وكذا تلميذه العارف المرسى وكثير من كمل العارفين .

٥ - التحلى بمكارم الاخلاق والتخلى عن سفاسفها

ومن عزل الاخلاق عن الطريق فما جاء بشيء ، وسئل بعضهم عن التصرف ، فقال هو الخلق الحسن ، ودنىء الاخلاق وسفيتها وخسيسها لا يصلح لا لدين ولا لدنيا .

على الاخلاق هدوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

وقد فصلت الشريعة جميع المراتب البشرية الممكنة من أدناها الى أعلاها ، وبين الانسان الكامل صلوات الله وسلامه عليه كل طريق يقرب الى الكمال ، وفصل كل طريق يقرب من الشر والنقص وحذر من سلوكه أو الاقتراب منه ، فمن تأدب بآداب الشريعة فقد حاز الخير كله ، وملك نواصى القضى ، فجميع المقامات والمراتب والدرجات مندرجة فى آداب الشريعة السمحة ، وكل أدب شرعى يؤدى الى كمالات لا تخطر على بال بشر ، وهذا من الاعجاز الاحاطى المختص بالشريعة المحمدية .

ومن توجيهاته الخلقية رضى الله تعالى عنه وكل كلامه فيه هذه التوجيهات لشدة اهتمامه بالعلاقات الاجتماعية السليمة :

« من كظم غيظه وعفا عمن ظلمه وآذاه ، رقاہ الله الى مراقى الرجال » .
« لا يكذل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس مشفقا عليهم ساترا لعوراتهم ، فان ادعى الفقر وهو بضد ذلك فهو غير صادق » .
وفى الحديث المتفق عليه : « لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » .

« من شأن الصادق من اولادى ألا يكون عنده حسد ولا غيبة ولا بغى ولا مخادعة ولا مكابرة ولا مماراة ولا ممالقة ولا مكاذبة ولا كبر ولا عجب ولا افتخار ولا شطح عن ظاهر الشريعة ، ولا تصدر فى مجلس ولا جدال ولا انتقاص ولا سوء ظن بأحد من اهل الطريق ولا بمن تزيا بالزيق . » ، والزيق يعنى زى الصوفية .

ويحذر المريدين من داء الغيبة بقوله : « يا اولادى اذا طلبتم ان تغتابوا احدا فاغتابوا والديكم فانهما أحق بحسناتكم من غيرهما ! » .
« الغيبة فاكهة القراء وضيافة الفساق ، وبستان الملوك ، ومراتع النسوان ومزابل الاتقياء » ولا غيبة لفاسق .

ويجب أن ينزه المرید نفسه عن حب الرياسة والتعالى على الغير فان ذلك يورث فساد الباطن ويتبعه فساد العلاقات بالغير ، فلا تحرك هذه العلاقات سوى الاغراض والاهواء ، ويتبدد نشاط المجتمع فى الضرر أكثر من النفع ، اذ ينصرف هم كل فرد الى الوقیعة بالآخرين فينقطع مايجب ان يوصل ، وتحل الكراهية محل الحب والوفاق .

فمن شرط الفقير « ألا يكون عنده التفات الى مراعاة المخلوقين له فى الحرمة والجاه والقيام والقعود والقبول والاعراض وغير ذلك من الاحوال الظاهرة وليرع الله وحده فانه هو سيده ورازقه ومحبيه ومميته » .

٦ - مجالسة اهل الحق سبحانه :

يستعين السالك أثناء سيره فى الطريق بأكبر سبب يساعده على تمام السير ، ألا وهو مجالسة اهل الحق عز وجل ، ويؤكد اهل الطريق أهمية هذا

الركن فى ارشاداتهم ومؤلفاتهم ومجالسهم ويعدونه بعد الاستاذ فى الاهمية ،
ذلك لان الارتباط فى الله تعالى بين السالكين يحصل به من اشعال جذوة
السلوك ما يحصل المربى تقريبا ، ومدى الارتباط مع الغير فى الله عز وجل
هو الذى يبين لك مدى صدقك فى دعواك فى حب الله تعالى .

فاذا كان المرید صادقا فى دعواه ، اهتم بهم وتفقد أحوالهم وساعد ضعيفهم
وواسى فقيرهم ، وبادر الى خدمتهم وكف أذاه عنهم وآثر المحتاج منهم ، وأقال
عثرة من ذل ، وعفا عن المسيء .

اما الكاذب فى دعواه فانه : ينصرف عن الاهتمام بهم ولا يكثر بأحوالهم ،
ويبادر الى الخلاف كلما ظن أنهم أساءوا اليه ويحاول أن يستغلهم لأغراضه
الدنيوية مستغلا طيبتهم وصلاحهم ، ويجتهد فى أن يؤثر نفسه بالخير دونهم .

والمحبة الروحية بين المتحابين بمثابة الاسلاك الكهربائية يسرى فيها التيار
بحسب جودتها وطاققتها وجهدها فتسطع الانوار والاسرار من أحدهم على أخيه
فيزداد نوره ويقوى غذاء روحه .

وعلى الضد من ذلك ، مجالسة اهل الباطل او المنصرفين عن الله تعالى لا
تزيد صحبتهم الا الخسران والنقص فى كل خير :

« يا اولاد قلبى ، لا تجالسوا ارباب المحال وزخرف الاقوال ولقلقة اللسان ،
وجالسوا المقبلين على ربهم الذين اخذت منهم الطريق ، ودقهم التمزيق وتفرق
عنهم كل صديق ، حتى عادوا كالخلال ، وذابت اجسامهم من تجرع المرارات
والسموم فهو انفع لكم » .

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| أحب من الاخوان من سره | أصفى من الياقوت والجوهر |
| ومن اذا سرك أودعته | لم يظهر السر الى المحشر |
| ومن اذا أذنبت ذنباً أتى | معتذراً عنك ولم يصبر |
| ومن اذا غبت عن عينه | أقلقه الوجد ولم يذكر |

٧ - تعظيم جانب الحق عز وجل :

وعلامته شهود التقصير الذاتى فى جناب الله تعالى وفى ذلك يقول :

« العارف يرى حسناته ذنوبا ، ولو آخذ الله تعالى بتقصيره فيها لكان عدلا » .

ومن علاماته الخشوع : « والله لو خشع قلب احدكم فى صلاته مثلاً لاختلط عقله وذهب ليه ، ولم يقدر على قراءة سورة واحدة من كتاب الله فى تلك الحاضرة ، فان موسى عليه السلام خر صعقا متخبضا كالطير المذبوح ، مع كونه ما تجلى له من عظمة الحق تعالى ، كما قيل ، الا مقدار جزء واحد من تسعة وتسعين جزءا من سم الخياط ، فاذا كان هذا حال اولى العزم من الرسل فكيف بأمثالنا الغارقين فى شهوة بطونهم وفروجهم ، وهذا التجلى واقع لكل مصلى لو عقل عقل موسى ، فالحمد لله على كل حال » (١) .

(١) الطبقات الوسطى : ١٠٩/ب .

(الافات النفسية والخلقية القاطعة عن الطريق المستقيم)

القاطع الجامع هو عدم القيام بآداب الشريعة ، وخيانة العهد « من ادعى الطريق وخالف قواعدها وآدابها رفضته كرها عليه » .

« جعلنى الله خصم من شهر نفسه بطريقتنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا » .

« من احدث فى طريق القوم ما ليس منها فليس هو منا ولا قينا » قال الله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

« من خان لا كان » ومن لم يتعظ بكلامنا فلا يمش فى ركابنا ولا يلم بنا » .

وقد ادعى الطريق كل جاهل بل كل منافق عليم اللسان ، كما ان العلم سخره الأديباء لخدمة الحظوظ والاغراض ، وساعف هؤلاء السفلة انتشار الجهل وغربة الدين فزج فى الدين ما الدين منه براء ، وافتنى كل مدع بما سولت له نفسه وقال هاكم القول الفصل فى دين الله ولو سئل ما معنى الدين ما راح ولا جاء ولا عرف الصحيح من المريض ، وما نكب الاسلام نكبة بمثل من ادعاه ولم يحفل بالعمل به ، بل ذهب يتمطى ويخوض ويلعب ويفسر الاسلام بما شاءت له الشياطين ، ورحم الله المقدسى اذ يقول :

| | |
|--------------------------------|---------------------------|
| ذهب الرجال وجال مثل مجالهم | زمر من الاوباش والانذال |
| زعموا بأنهم على آثارهم | ساروا ولكن سيرة البطلال |
| لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا | كتقشف الابطال والابدال |
| قطعوا طريق السالكين وأظلموا | سبل الهدى بجهالة وضلال |
| عمروا ظواهرهم بأثواب التقى | وحشوا بواطنهم من الادغال |
| ان قلت قال الله قال رسوله | همزوك همز المنكر المقتال |
| عن حضرتى عن فكرتى عن خلوتى | عن جلوتى عن شاهدى عن حالى |
| عن صفو وقتى عن حقيقة حكمتى | عن ذات ذاتى عن صفات فعالى |
| دعوى اذا حققتهما ألفيتهما | القباب زور لقبت بمحال |
| تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا | بطرائق الجهال والضلال |

جعلوا المرا فتحا والفاظ الخطا شطحا وصالوا صولة الادلال
وترصدوا اكل الحرام تخادعا كتخادع المتلصص المحتال
الى آخر القصيدة

وصفهم الشيخ عبد الكريم (١) الجبلى رضى الله تعالى عنه فى كتابه سر
الخلوة فى اوائله من الوصايا حيث قال : « يا اخى رحمك الله ، قد سافرت الى
اقصى البلاد وعاشرت اصناف العباد ، فلأرات عينى ولا سمعت اذنى اشر ولا
اقبح ولا ابعد عن جناب الحق من طائفة تدعى انها من كمل الصوفية وتنسب
نفسها الى الكمل وتظهر بصورتهم ، ومع هذا لا تؤمن بالله ورسله ولا باليوم
الآخر ، ولا تتقيد بالتكاليف الشرعية وتقرر احوال الرسل وما جاؤوا به على
وجه لا يرتضيه من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » (٢) .

فالتصوف ليس بالدعوى ولكنه علم بالشرعية وعمل بها ، ولا ذنب للتصوف
ان يدعيه جاهل او ضال مضل او محتال كما انه لا ذنب للعلم لو ادعاه امثال
هؤلاء .

ومن القواطع :

الاحتجاب بالسوى عن الله عز وجل :

فكل شئ وقفت معه من دون الله تعالى شرك سترك وحجبك عن الحق بقدر
تعلقك به ، سواء كان ذلك فى الحس او للمعنى .

وفى ذلك يقول : « لا يكمل الرجل فى مقام العرفان حتى يفر من قلبه وسره
وعمله ووهمه وفكره وعن كل ما يخطر بباله غير ربه ، فآه ، آه ، لو كشف
الحجاب عن الاثواب ، وأبصر الاعمى الحرف الذى ليس بحرف ولا ظرف ،
وفك المعمى وفتح الاقفال ، فواشوقاه لصاحب تلك الحضرات » [١] .

فما وقف الواقف الالعب طراً عليه او آفة اقعدته عن قطع مقامات النفس .

(١) الامام الصوفى الشهير عبد الكريم بن ابراهيم الجبلى (٧٠٧ - ٨٢٦ هـ) وهو من
ذرية القطب الشهير السيد عبد القادر الجيلانى أو الجبلى أو الكيلانى مكلها بمعنى واحد .
(٢) العلامة أحمد الطاهر الحامدى : الكشف الربانى عن المورد الرحمانى ص ١٦٧ .
(٣) الطبقات الوسطى ١٠٥/ب .

وكيف يقف ولسان حاله يقول :

أخاطر في محبتكم بروحي وأركب بحركم أما وأما
وأسلك كل فج في هـواكم وأشرب كأسكم لو كان سما
ولا أصغى الى من قد نهانى ولى اذن عن العذال صما
أخاطر بالخواطر في هواكم واترك في رضاكم أبا وأما

بل قد تكون المقامات نفسها من اشد القواطع وامضاها ، فان للمقامات آفات
ادركها اهل العلم بالله تعالى ويمكن حصرها في ثلاثة (١) :

الآفة الاولى ، هى آفة التطلع اليها ، اذ ان التطلع لاي مقام يتنافى مع
الاخلاص لله تعالى ، وهو تمسك بالحظوظ النفسية الصادرة عن الجهل بمعرفة
الله تعالى : وكيف يتطلع الى اى مقام من علم انه لا غاية للعبد يقف معها دون
معرفة مولاه اذ الكمالات الالهية لا تتناهى وترقى العبد فى معرفتها لانهاية له .

الآفة الثانية : هى آفة الوقوف مع المقامات فمن وقف مع العطية دون المعطى
فقد عبد العطية ، والعبد المتحزر من ملكية الاشياء له لا حكم لشيء او مقام
عليه .

الآفة الثالثة : هى شهود المرء فى نفسه بأنه من اهل المقامات ، وهذه
المشاهدة تخرجه من كمال العبودية لله تعالى وتدل على غلبة الحظوظ النفسية
عليه .

يقول القطب الدسوقي «كل مقام وقفت فيه حجبك عن مولاك وكل ما دون
الله تعالى وكتابه العزيز ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين
فهو باطل ، وذلك لان الاعراض تورث الاعراض) والاعراض الاولى يعنى
اشياء ، والثانية يعنى الانقطاع والانصراف .

ومن اشد القواطع العجب بالنفس :

وهذا الداء العضال من اشد الامراض النفسية فتكا بالبشر ، وهو ما يطلق
عليه علماء النفس مرض المتركز حول الذات فاذا اشتد تحول الى النرجسية ،

(١) راجع مكانة التصوف والصوفية للعارف محمد عيد الشافعى صفحات ٩٥ : ١٠٠ .

او عشق الذات بل ان حب الذات - وهو مصدر هذا الداء - قد جعله معظم علماء النفس اساسا لتفسير السلوك الانساني ؛ فكل الافعال والاقوال والحركات مصدرها حب الذات .

وكثير من النظريات التى تفسر السلوك الانساني سواء فى ذلك المادية او الاجتماعية انما ترجع الى نظرية الذات فى الاصل .

ونقول ان هذا التفسير صحيح اذا ما أنقطع عن الذات حب الله عز وجل .

واعجاب المرء بنفسه وبما يصدر عنها يؤدى الى تدمير نفسه والمحيط الذى يتأثر به ويؤثر فيه ؛ اذ من مستلزمات هذه الافة فرض السيطرة على الاخرين والاستعلاء عليهم ، وعدم المبالاة بأحوالهم ، بل تحقيرهم ليظهر هو بمظهر العالى عليهم فى كل امر ، ومن ثم يعطى لنفسه الحق فى الاعتداء على الحقوق ، واهدار الدماء واستباحة الاعراض والاموال ، وصاحب هذه العلة قد تلازمه حالة من الحالات المرضية مثل جنون العظمة او السادية او البخل او جنون الاصلاح (Reformism) فيعتبر نفسه صاحب دعوة يجب على كل من عداه ان ينقاد اليها بلا معارضة .

والعاصى التائب المقر بذنبه خير من ملء الارض من مطيع مثل هذا ، ولذا يقول ابن عطاء الله السكندرى (١) فى الحكم «رب معصية اورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة اورثت عزا واستكبارا» ، اذ ان المدار فى كل شأن مبنى على الرجوع الى الحق عز وجل .

يقول القطب الدسوقي : « من نظر الى اقواله وافعاله بعين العجب فهو محجوب عن مقام التوحيد ، ولا يزف الولى الى ربه حتى يترك الوقوف مع كل ما سواه من مقام او حال » .

(١) الامام العارف الشاذلى أحمد بن عطاء الله السكندرى توفى ٧٠٩ : كان أعجوبة عصره فى العلوم ، ولو لم يؤلف سوى كتابه (الحكم) لكفى فى الدلالة على علو شأنه ، وهو كتاب فريد فى بابيه لم يؤلف مثله حتى الآن ، وكل حكمة من حكمه يعجز كبار الفلاسفة عن اللحاق بمعانيها وقد عنى العلماء بكتابه الحكم ووضعوا له الشروح منها المخطوط مثل شرح الجلال الكركى والطبوع مثل ابن عجيبة وشرح ابن عباد ..

ويقول (اياك ان تقول انا فعلت ، انا وليت ، انا عزلت ، فانه تعالى يعجز كل مدع ، ولو كان على عبادة الثقليين هبط • او صاحب منزلة سقط) •

ويحذر من الالتفات الى الطاعات فيقول (من لم يزعم ان هلكته فى طاعته فهو هالك ، فان طاعتنا من جملة فضله ، ومالنا فى الوسط شئ) •

وهذا دأب الكمل من العارفين وهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وما أدراك ما عمر ، يتوجه فى الليل وقد هجعت العيون الى منزل حذيفة بن اليمان ، ويقرع الباب ، حتى ينزل حذيفة وقد راعه مجيء امير المؤمنين فى هذه الساعة ، خشية وقوع أمر جلل ، فيهدى روعه ويقسم ان يخبره هل عده رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن عدهم من المنافقين ، وكان حذيفة امين السر فى هذا الشأن ، فيقسم حذيفة انه ليس منهم • فيقول : انك عندى لصديق ولكن افعالى تشبه افعالهم ويعود ادراجه ، ويمكث فى الفراش اياما يعودونه ، وما به من مرض ولكنه الحياء والخشية من الله عز وجل : فهو يخشى ان يكون قد انحرف عما كان عليه قبل وفاته صلوات الله وسلامه عليه .

والاعجاب بالطاعات من الامراض الخفية الهدامة التى قلما يسلم منها احد الا من تجرد من حظوظ النفس وكان مخلصا لله عز وجل فى احواله كلها ، وانى له ان يحكم بهذا ! اذ لا يستطيع انسان ان يكون الخصم والحكم فى آن واحد ويدعى ان حكمه مجرد عن الهوى • ولذا يقول الصديق الاكبر رضى الله تعالى عنه لو كانت يمينى داخل الجنة ويسراى خارجها ما أمنت مكر الله تعالى • والعدالة الالهية لو اقيمت على اى عمل لطاشت جميع الاعمال ولكن رحمته عز وجل وسعت كل شئ • فالثواب كله مرجعه لا الى الاستحقاق ولكن الى محض الفضل الالهى • فحضرة الحق عز وجل حضرة عزيزة منيعة ولو أقام الله تعالى علينا ميزان العدل لما نجا منا أحد اذ الانفعال كلها تنقلب الى تقصير فى جانب عظمتة تعالى •

وفى ذلك يقول (من رأى ان له عملا يقبل فقد سقط من عين رعاية الحق تعالى) • ويقول (احذر يا ولدى ان تدعى ان لك معاملة خالصة مع الله • واعلم انك ان صمت فهو الذى صومك • وان قمت فهو الذى قومك • وان اتقيت فهو الذى وقاك ، وليس لك فى الوسط شئ ، وانما الشأن ان ترى انك عبد عاص

ليس لك حسنة واحدة وهو صحيح • فمن أين لك حسنة وهو الذى احسن اليك • وان شاء قبلك وان شاء رداك •

ويقول [يا ولدى ان كنت تصوم الدهر وتقوم الليل وتدعى ان لك سريرة ظاهرة ومعاملة خالصة ، فلا تدعى قط انك شملت لطريق القوم رائحة ولا تشهد نفسك الا عاص مقلس من جميع الاعمال الصالحة ، واحذر نفسك فكم تلف من غرورها وزورها فقير) •

٣ - الدعوى والادعاء :

الادعاء الكاذب من اسوأ الامراض التى يقود اليها الاعجاب بالنفس •

واصحاب الدعوى شرهم مستطير فهم لا يخلصون لاحد فى عمل ، بل استمروا البراعة فى الضحك على الذقون ليصلوا الى اغراضهم كائنة ما كانت وهم كالحرباء يتلونون بكل لون ويتشكلون بكل شكل : نسوا الله فانساهم انفسهم فكيف يدعون الاخلاص لله تعالى !

ومما يفضح المدعى انه لا يطبق اعمال المخلصين الصادقين ولا يصبر على صحبتهم ، بل يحقد عليهم لشعوره بتفوقهم عليه ، فيهاجمهم كلما واثته فرصة ليغطي مركب النقص فيه ، وليوهم الناس انه على الحق وانهم على الباطل ، فيقلب مدافعا عن كل زور وبهتان ، ويوغل فى العمى والضلال عن بينة . اذ ان صرخة مارد النفاق تدوى فى باطنه : اتقن التمويه والتزوير ما استطعت خشية ان يفتن الى خداعك احد ، البس مسوح الرهبان كي يعتقد الناس انك صالح !

ومن السالكين من يقلد العارفين فى اخلاصهم دون سلوك مناهجهم والتأدب بآدابهم ويظن ان هذا هو الحال السليم ، فيقوده ذلك الى الدعوى والطمع الكاذب وقلة المبالاة ، وترك الادب ومجاورة الحدود والوقوع فى اسر الشيطان وغلبة النفس والهوى ، فمثل هؤلاء كمثل من سمع بوصف الجوهرة النفيسة ولما وقعت فى يده خرزة من الزجاج اعجبته استدارتها وجذبه صفاؤها ووقع فى نفسه انها جوهرة غالية ، فلما حملها الى من يعرف الجواهر وعرفه قيمتها الحقيقية ، لم يصدقها واحتفظ بها وظن انه قد غشه . فهؤلاء كل يوم فى ضلالتهم يخسرون وفى طغيانهم يعمهون •

يقول القطب الدسوقي (اياكم والدعوات الكاذبة فانها تسود الوجه وتعمى البصيرة) [كيف يدعى أحدكم أنه يريد طريق الله عز وجل وهو ينام وقت الغنائم (١) ووقت فتح الخزائن ، ووقت نشر العلوم واطهار المكتوم ، وتجلي الحى القيوم • فياكذابون اما تستحيون • هممكم راكدة ، وعزائمكم خامدة ما هكذا درج اهل الطريق) ، بل قد يدعى الانسان الطريق وهو ابعد الناس عنها لانغماسه فى المحارم والمنهيات (اياكم ان يدعى احدكم انه من الصالحين وهو يقع فى الافعال الرديئة ، ويأكل طعام المكاسين واهل الرشاش والربا والظلمة واعوانهم ، وكيف يدعى انه من الصالحين وهو يقع فى الكذب والغيبة والوقعية فى الناس وفى أعراضهم ! وكيف يطلب أن يكون عند الله صادقا وهو يقع فى شيء من المناهى » ولعمري هذا الذى لم يتب كيف يدعى الطريق او يتوب غيره » (٢) •

ويقول (اياك أن تدعى المشيخة ثم تعصى ربك بعد ذلك ، فانه يقول لك أما تستحي ؟ أين دعواك القرب منى ؟ أين غسلك أثوابك المدنسة لمجالستى ؟ كم نعى فى بطنك من الحرام ، وكم تنقل أقدامك الى الاثام تنام وأحبابى قد صاففوا الاقدام ؟ أنت مدع كذاب والسلام) •

واذا استمر الادعاء والاعجاب بالنفس انقلب الى منافق يهدم بنيان المجتمع هدمًا يفوق فى شدته ما يفعله ألد الاعداء بكثير • ان ينطلق المصابون بهذا الداء المدمر كالكلاب المسعورة التى يدفعها سعارها الى نهش كل ما صادفها : فيأكلون أموال الناس بالباطل ، ويستبيحون دماءهم ، ويهتكون أعراضهم ويستذلونهم ، كل ذلك وهم آمنين مطمئنين لان أحدا لا يراهم ولا يعرفهم • وهذا الخلق يورث الضعة والذلة والجبن والخسة وصاحبه وان طال به الامد لا بد من أن يفتضح فيظهر للناس ما كان حريصا على اخفائه •

ويحذر من ذلك بقوله (ان طلبتم أن تكونوا أولادى حقا • فلا يسر أحد منكم سريرة سيئة • فان الله سيظهر ما كان العبد يكتمه ويخفيه ويستتره ، وينادى

(١) أى وقت السحر وأوقات الاستجابة •

(٢) الطبقات الوسطى ١١١ — أ

عليه فى عرصات - مواقف - القيامة بالصريح والتوبيخ فلان عمل كذا وكذا ،
وكان يستتر من الناس ولا يستتر من الله فلان كان يرتكب المحارم والفضائح
ويظهر للناس الصلاح زورا وبهتانا ، فلان كان ينظر الى النساء قصدا ويدعى
أنها نظرة فجأة ، ويعطف طرفه ويميل كأنه لص سارق . فيا فضيحة من نزيه
بزي الفقراء وخالف طريقتهم ، فيا أولادى جميعكم : لا ترموا من كلامى شيئا
فإنما هو تذكير وتحذير وتأديب لمن يتأدب) .

وهذا الذى يستمرىء الدعوى ويتفنن فى الغش والخواية ، ويعتقد أن أعظم
المكاسب هو خداع الغير والمكر بالناس ، يترك ما لا غنى لوجوده عنه وما هو
ضرورى لمصلحته ويشغل نفسه بما لا جدوى منه سوى جلب حظ أو نفع أو
شهرة لأنه يعتقد أن هذا له ثمرة ، أما الصلاح فلا ثمرة له سوى التعب . فعلام
التمسك بالفضائل وثمره الرذائل أشهى وأعجل ! هذا هو منطق كل فاسد ، هذا
هو تفكير كل أعمى البصيرة لا دين له سوى ما يراه هو ، ولا طاقة له فى
التفكير وراء ذلك .

ومن دسائس النفس القاطعة عن الطريق ، أنها إذا رأت صاحبها جادا فى
السلوك دعتة الى ما لا يشك أحد فى أنه خير كطلب الزيادة أو التبحر فى
العلم . وما بها من صدق فى الدعوى ولكنها عملية من عمليات الهروب تتقنها
النفس وطريقة من طرق التبرير تخفى على السالك ، تريد من هذا أن ينقطع
السالك عن الطريق الذى يجردها من حظوظها ، ويسلك بها الطريق التى
تقترحه هى ، وحينئذ تسوقه من حيث لا يشعر الى مكان الداء الخفى فى
أعماقها . فيطلب بالعلم الاستعلاء ، والشهرة والرياسة ، وحينئذ تفوز النفس
فى المعركة وينقطع صاحبها عن سلوك طريق التربية ويعيش فى ظلمات النفس
يفسد ويفسد غيره .

ولذا يقول القطب الدسوقي [اذا اشتغل الريد بالفصاحة والبلاغة فقد
تودع منه فى الطريق وما اشتغل أحد بذلك الا وقطع به ، وأما حكايات
الصالحين وصفاتهم فمطالعتها للمريد جند من أجناد الله تعالى ما لم يحفظها
دون التخلق بها] .

ولا يلتبس الامر على أحد فيفهم أنها دعوة الى انقطاع العلم فهذا خارج عن

المقصود • بل هي دعوة الى العلم لله لا الى غرض ، ثم أن الكلام هنا لا يعم كل شخص ، بل ينصب على المريدين الذين يطلبون التجرد من أوساخ النفوس وظلماتها كي تنجلي مرأى وجودهم لاستقبال أنوار الحق فيعيشون لله بالله لا يخشون لومة لائم ، ومن الكبائر أن يدعى أحد هذه الدعوى ثم ينشغل بضدها من الافات النفسية ، فيلهث وراء الشهرة ولو عن طريق العلم • وله بعد أن يفتح الله تعالى عليه أن يشتغل بما شاء من العلوم ، فان جميع افعاله تكون على بصيرة وهدى ، وتكون خيرا يعم من حوله •

ومن القواطع أن يسلك الانسان طريق المعرفة وهو جاهل بالشريعة ، وهي أصل كل معرفة صحيحة • وقد أكد العارفون هذه القاعدة ولفظوا من خالفها • قال أبو القاسم القشيري في الرسالة، اذا أحكم المريد عقد الارادة بيّنه وبين الله عز وجل ، فيجب عليه أن يحصل من علم الشريعة ما يؤدي به فرضه ، فان اختلفت عليه فتاوى الفقهاء أخذ بالاحوط ، ويقصد أبدا الخروج من الخلاف •

وفي الوصايا القدسية : أن المريد يجب أن يحصل من العلم الشرعى ما يصح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة ، وما يتحرز به عن شبه المبتدعة ، ويحصل أيضا ما يصح به عمله وفق الشريعة المطهرة •

والجهل بالشريعة درجات وأشدّها الجهل بأصولها ، فهذا تد يؤدي الى المروق من الدين أو الالحاد والكفر • كمن يخلط بين أوصاف الحق وأوصاف الخلق ، فيقع في الحلول أو التشبيه أو التجسيم ، أو كمن يصف الحق بما تسول له نفسه لا كما وصف به الحق نفسه فيضل ولا يهتدى أبدا •

وطائفة من الادعياء يظنون أنهم وصلوا الى عين الجمع فلم يضيفوا الى الخلق ما أضافه اليهم الحق ، ولم يفرقوا بين الجمع ولا الفرق ، فأضافوا الى الاصل ما هو مضاف الى الفرع وأضافوا الى الجمع ما هو مضاف الى التفرقة ، وظنوا أن ذلك منهم احترازا حتى لا يكون مع الله شيء سوى الله عز وجل فلم يحسنوا وضع الاشياء في مواضعها وأداهم ذلك الى الخروج من الملة وترك حدود الشريعة •

وهؤلاء حرموا الوصول لتضييعهم الاصول .

ومنهم من جهل الفروع فتخبط فى سره وغلبت عليه الحيرة وتشعبت أموره وتشتتت اهدافه فلم يدر صحيحه من سقيمة ، فطائفة توهمت انها وصلت الى درجة من الدنو والقرب ، فأعماهم هذا الوهم عن مراعاة آداب الشريعة وانبسطوا الى المخالفات وظنوها مؤانسات وتجاوزوا الحدود وارتكبوا المحرمات ، مع أن مقام القرب يلزم التمسك بالآداب ويتنافى مع المخالفات .

ومن الجهل بآداب الطريق فسخ العزائم بالرخص :

يسلك البعض الطريق فيظن أنه يصل الى ماوصل اليه العارفون بالمجاهدات والرياضات والتعمق فى العبادات فاذا ما طال عليهم الامد ولم يصلوا الى شيء من أحوال الكمل ، توانوا عن المجاهدة وأخلدوا الى الراحة والكسل وقالوا نحن فى مقام الرخص . والواقع أنهم قد غلطوا حين قلدوا العارفين الذين جذبهم الحق تعالى اليه فعبدوه دون فتور أو كسل وكلما جاهدوا فى سبيل الله تعالى كلما قويت أنوارهم واشتد شوقهم . ولو صدق هؤلاء صدق العارفين لما دب اليهم الكسل ولما نكصوا على أعقابهم بحجة اتيان الرخص .

والواقع أن الانسان يقوم بعملية نفسية تسمى عملية التبرير (Rationalisation) ليترخص فى سلوكه وانفعالاته ، فمثلا : قد يكره الانسان ويعلل ذلك بأنه شخص مغرور أو أنانى مع أن السبب الحقيقى للكراهية هو تفوق هذا الشخص على من يبغضه .

(فكأن وظيفة التبرير اىصال (الانا) الى حالة ارتياح عن طريق خداعها والتمويه عليها) (١) .

فالرخص مطلوبة محبوبه ما فى ذلك من شك ، ولكنها اذا اتخذت وسيلة للوقوع فى المحذور لم تعد رخصة بل تصبح وسيلة لبلوغ الاغراض : كمن يتصدق على رجل بمبلغ من المال فى ملاء من الناس ويبرر هذا بأن الرجل محتاج مثلا .

(١) د. عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية راجع من ١٣٤ - ١٣٥ .

والواقع أنه يقصد أن يقال أنه كريم • ومن عامل الحق باخلاص نزه نفسه
عن هذه الالاعيب التى يمثلها فان الله تعالى محيط به ، مطلع على سريرته •

يقول القطب الدسوقي (اياك أن تقبل فتوى ابليس لك فى الرخص فتعمل بها
بعد عملك بالعزائم ، فانه انما يأمرك بالغى والبغى بحجة رخصة الشرع ،
فينقلك من رخص الشريعة الى فعل معاصيها ، ثم يقول لك : هذا مقدر عليك قبل
أن تخلق ، وأين كنت أنت تملك ، فلا يزال بك حتى يدخلك النار) •

ومن أخس القواطع الدخول فى الطريق للتكسب بها ومنها :

وأى خسة وحقارة أشد ممن يسعى الى الاستهزاء بالله عز وجل فيحاول أن
يبيع الشريعة بالمال ، والدين بالدنيا • يبيع الحكمة والموعظة وهو متجرد من
كل حكمة ، يبيع الصدق والفضيلة وهو موصوف بكل رذيلة ، يروج الغش
والتزوير بالحلف بالله ، ويشهد الله تعالى على نفسه أنه لصادق والله يعلم أنه
ليس من الصادقين •

ولتطلع النفس الى المال وشدة تعلقها به نجد أن القطب الدسوقي يكرر
التحذير تلو التحذير ويتبرأ ممن دنس طريقته فتطلع الى كسب دنانق من وراءها
فيقول •

(اعلموا يا جميع أولادى ان من استحسن درهما أو لقمة فى طريقى حين
لعب به هواه، وسولت له نفسه، فقد خرج عن طريق الاشياخ، فان أوساخ
الدنيا تسود القلب ، وتوقف عن المطرب ، وتكتسب بها الذنوب وانى غير راض
عمن أخذ فى أجازته فلسا واحدا ، فان من أخذ الدنيا بالبأس الفقراء الخرقه ،
حقته الله ، ولو أنه عمل له حرفة وكفى نفسه كان خيرا له ، وانى أبرأ الى الله
ممن يأخذ على الطريق عوضا من الدنيا ويتلف طريقى من بعدى ، ويخالف ما
كنت عليه أنا وأصحابى : اللهم أن كان أحد من أصحابى يفعل خلاف طريقى فلا
تهلكنى بذنوبهم • فان الله يبيغض الفقير الذى يبيع أخلاق أهل الطريق بلقمة ،
وطريقى انما هى طريق تحقيق وتدقيق) •

يقول الجلال الكركى : قال استاذنا فى حقائقه أثناء موعظة :

(فان كنت ولدى حقا وتبغى صدقا فاخلص لله رقا ، واجعل جميع مواظك

فى قلبك ، وكن عمالا (١) ، ولا تلمس لاحد درهما ، فان هذه طريقى ، من أحببى يسلك تحقيقى : فالفقير يطعم ولا يطعم ، ويعطى ولا يأخذ ولا يلمس الدنيا ولا عوضها) .

» يا أولادى : ان شيخكم قد بايع الله ألا يأخذ فلسا ولا درهما ، انما أمره بالله لا لغرض دنيوى ، وليس ذلك دعوى انما أريد سلامة الذمة .

» وأعلموا يا جميع أولادى ، أن من استحسن فى طريقى وأخذ شيئا أو لعب به هواه ، وسولت له نفسه مناه بزهوها فقد خرج عن طريق شيخه .

» فيا جميع أولادى اعلموا : ان أوساخ الناس تسود القلوب وتوقف عن المطلوب ، وتكتب بها الذنوب ، ويمقت العبد بذلك علام الغيوب .

» فانى غير راض عمن أخذ فى أجازة فلسا واحدا . فان هؤلاء طالبون للدنيا بالتلبيس ، وعمل ما ليس فى طريقى ، ولو تركوا الدنيا لكان خيرا لهم ، وانما طريقى التحقيق والتصديق والتمزيق والتدقيق فى الطريق .

» اللهم ان كان أصحاب طريقى يعملون خلفى ما لا أشتهيه ويلتمسونه ، فلا تهلكنى بهم . فانى برىء اليك ممن يداجى أو يأخذ أو يتلف طريقى أو يخالف أو يأكل الدنيا بالدين . ان الله لا يحب من يبيع سره أو يأكل عليه شيئا . فالصادقون قد خرجوا عنها وكثير منهم ينفق من الغيب فما رضى وخرج عن ذلك .

» فيا أولادى أن كنتم أولادى وخالفتمونى فأنتم كاذبون) .

قال الكركى : ثم حكى أستاذنا عن ابراهيم بن أدهم أنه تصدق على طفلة بصدقة . فقالت : يا ابراهيم ، اننا لا ننفق شيئا تلمسه السماء والارض فكيف ننفق شيئا دخل السوق ، وضربت يدها فى الهواء فرمت بدينارين .

ولا شك أن السلامة فى الدين تقتضى ترك الطمع فى المخلوقين ، ورفع الهمة عنهم ، ورفع الهمة انما ينشأ عن صدق الثقة فى الله تعالى ، وتمحيص الثقة انما ينشأ عن الايمان بالله تعالى ايمان المحسنين والاحسان أن تعبد الله كأنك

(١) أى صاحب حرفة وعمل .

تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . وهذا هو الايمان الذى يوجب لصاحبه الاعتزاز بالله تعالى . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . وهو الذى يوجب النصر « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » والنجاة من المهلكات القاطعة عن الله تعالى « **كذلك حقا علينا نجى المؤمنين** » .

فعز المؤمن فى ثقته بمولاه : وهذا هو سبيل النصر على الهوى والنفس ، وشعار أهل الارادة ودثارهم : الرغبة فى الله تعالى والانقطاع اليه واخلاص النية له ورفع الهمة عما سواه وصيانة ملابس الايمان من دنس الميل الى الاكوان وأحوال الطمع فى غير الملك الديان .

نواعجياه ممن يدعى الايمان ولا يثق فى الله تعالى أن يرزقه ! واعجياه ممن يدعى الايمان ويثق فى المخلوق أشد من ثقته فى الله تعالى . واعجياه ممن يدعى الايمان ولو أحلته على الحق عز وجل ليئس ، ولو أحلته على مخلوق لهش وبش .

ومما ينسب الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

أتطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وان كان مشركا ضمينا ولا ترضى بريك ضامنا
ما آمن وان ادعى الايمان : من خشى الناس ولم يخش الله . ومن وثق فى الناس ولم يثق فى الله ، من اتكل على جاه المخلوق ، ولم تكفه عظمة الله . من استخفى من الناس ولم يستخف من الله ، وكيف يستقر نور الايمان فى قلب لا يقبل نور الله تعالى !

ومن القواطع .

الاستغناء بالكتب عن العارفين بالله عز وجل :

لما قرأ الناس كتب التصوف ظن أكثرهم أن الخوض فى علوم التصوف ومسائلة مسألة صناعة ، واتقان بضاعة ، فحاضوا البحر وهم لا يعرفون السباحة ، واندسوا بين القوم وهم دخلاء ليسوا منهم ، وكل رأس مالهم بعض الاصطلاحات ؟ ولما اعتادوا ذلك توهموا أنهم منهم . بل انعكس الوضع فاعتقد البعض أنهم هم الصوفية حقا ، وأن أئمة الصوفية هم الدخلاء ، وهذه المسألة

قديمة بدليل أن أبا نصر السراج أسهب في وصفها في كتابه اللمع ، ومما قاله :

(واعلم أن في زمننا هذا قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة ، وقد كثر أيضا المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون اليها والمجيبون عنها وعن مسائلها ، وكل واحد منهم يضيف الى نفسه كتابا قد زخرفه وكلاما ألفه وليس بمستحسن منهم ذلك ، لان الاوائل والمشايع الذين تكلموا في هذه المسائل وأشاروا الى هذه الاشارات ونطقوا بهذه الحكم انما تكلموا بعد قطع العلائق واماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات ، والوجد والاحزان والمبادرة والاشتياق الى قطع كل علاقة قطعهم عن الله عز وجل طرفة عين ، وقاموا بشرط العلم ثم عملوا به ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل) .

(وكل من أخذ من كلام المتقدمين الذين وصفناهم معنى من معانيهم التي هي أحوالهم ووجدتهم ومستنبطاتهم وحلاها من عنده بحلية غير ذلك وكساها عبارة أخرى أو أضافها الى نفسه حتى يشار اليه بذلك أو يطلب بذلك جأها عند العامة أو يريد أن يصرف بذلك وجوه الناس اليه لجر منفعة أو لدفع مضرة فانه عز وجل خصمه بذلك وهو حسيبه لانه قد ترك الامانة وعمل بالخيانة وهذه أعظم وأكبر من الخيانة التي في أسباب الدنيا (١) « وان الله لا يهدي كيد الخائنين) - من الآية ٥٢ من سورة يوسف عليه السلام .

فالتريق كلها ذوق ومن طلبها من الكتب لم يشم رائحتها .

وفي ذلك يقول « ومقصودى لجميع أولادى أن يكونوا ذائقين لا واصفين ، وأن يأخذوا العلوم من معادنها الربانية لا من الصدور والطروس وما تكلم القوم الا على شئ ذا قوة ، وقلوبهم كانت ملانة بعطاء الله تعالى ومواهبه ، ففاضت منها قطرات من الحياة التي فيها فانفجرت علومهم عن عين عين عين حاصل ماء الحياة ، وآسا الوصاف فانما هو حاك عن حاك غيره ، وعند التخلق والفائدة لا يجد نقطة ولا ذرة من ذوق القوم ، وينادى عليه هذا الذي

(١) اللمع ص ١٩ - ٢٠ .

قنع بالفشور فى دار الغرور . ولقد أدركنا رجالا وأحدهم يستحى ان يذكر مقاما لم يصل اليه ولو نشر بالمناشير ما وصفه [.

ويقول (اذا كان المقتدى بالشرائع والكتاب واقفا بين الامر والنهى كان فتحه حقيقيا حتى يفك به كل مشكل ويحل به كل طلسم ويعرف به كل مبهم ، وأما اذا كان فتحه حفظ كلام ، وترتيب ووصف مقامات . فذلك ليس بفتح انما هو حجاب له عن ادراك الادراك ، وعن مشاهدة علوم الحق ، وليس من وصف بمن عرف ونطق بلسان العرفان ، وكم من حملته العناية حتى شاهد ذلك ، ولو سئل عن وصف المقامات ما وصفها) .

(آه . آه . من مريدى هذا الزمان وكثرة التفاتهم الى الحظوظ النفسية وحفظ كلام الصوفية من غير تخلق به ، فكل من سمعهم ظن أنهم من القوم) .

وهو رضى الله تعالى عنه يسد بذلك ذريعة قد تؤدى الى التحول بالطريق الى مجرد شقشقة كلامية فتفسد ويفسد طلابها ، ويلتبس الامر على الناس فلا يدرون الصادق من المزيف ويؤديهم ذلك الى هجر الطريق والاعراض عنها . ومن القواطع الاعتماد على ورقة الاجازة (الشهادات) :

يلجأ البعض الى التلصص فى الدخول الى زمرة الصوفية عن طريق الحصول على اجازة من شيخ معتمد فى الطريق ، وهذه الاجازة تصرح له بتربية المريدين فى هذه الطريقة ، وما أن يحصل عليها حتى يسخرها فى سبيل أهوائه ومطامعه ، فيبيع دينه بدنياه ابتغاء عرض زائل ، وحياة تافهة حقيرة كلها غش وخداع وتضليل وكذب وافك ، وامثال هؤلاء من السفلة كانوا سببا فى تشويه معالم الطريق ، وانصراف الناس عنها . فالذى هاجم الصوفية انما هاجم هؤلاء الادعياء الادنياء وظن أنهم يمثلون كل الصوفية ، والصوفية من هؤلاء براء . ولو طبقنا عليهم شروط المريد لما صح فيهم شرط ، ولما انطبقت عليهم سوى شروط الفسق والفجور والاثم والعدوان ، ولا يضير الصوفية وجود ادعياء ففى كل فن وعلم وجد الادعياء ، ومع ذلك لم يقل أحد أن وجودهم يستلزم الغاء العلوم والفنون . الا أن مهاجمة الادعياء واجبة لاننا بازالة القناع عنهم ، ورفع الستار عن وجوههم انما نساهم فى بناء مجتمع سليم . ولكن اطلاق الهجوم على الادعياء وعلى المخلصين هو الخطأ . ومعايير

النقد ومقاييس التقييم التى تكشف لنا المخلص من الزيف قد وضحتها لنا امام الهداة جميعا صلوات الله وسلامه عليه .

وفى هذا يقول القطب الدسوقى [يا ولدى عليك بالتخلق بأخلاق الاولياء لتنال السعادة ، وأما اذا أخذت ورقة الاجازة وصرت كل من نازعك تقول هذه أجازتى بالمشيخة دون التخلق فأنت لا شىء ، وأنت غارق فى حظ نفسك]

ويقول : [ليس من تزيا بزي القوم ينفعه زيه أو درجه أو خرقة ، فان هذه الامور ظاهرة ، والقوم انما عملهم جوانى ، اذ بذلك يرقون الى مراقى درجة الرجال ، وما رأينا أحدا لبس جبة أو كتب له اجازة فبلغ مبلغ الرجال بذلك قط . بل فعل ذلك يوقف المرید عن طلب المزيد ، والامر ليس له قرار) .

(لا تقنع بورقة الاجازة فربما غيرت وبدلت بعد ذلك ، انما اجازتك حسن سيرتك واخلاص سريرتك ، ومن شرط المجاز أن يكون أبعد الناس على الاثام : كثير الصيام والقيام مواظبا على ذكر الله تعالى على الدوام ، فليست الاجازة الحقيقية الا لمن يزداد اقبالا على ربه فى كل نفس من الانفاس حتى يموت) .

ومن أشد القواطع :

الجهل بقواعد وأصول التربية فى الطريق :

الطريق أدب كلها ، فمن لم يحسن الادب لفظته ولم يأت بشىء مهما فعل فليست المسألة مسألة تشبه أو تقليد فى الاعمال ، فقد يحرص المرید على تقليد كبار العارفين ولا يصل الى شىء مما وصلوا اليه .

يقول القطب الدسوقى : (ما كل من خدم يعرف آداب الخدمة ولذلك كثرت ردة المرتدين عن الطريق) .

(ما كل من وقف يعرف لذة الوقوف ، ولا كل من خدم يعرف آداب الخدمة وحفظ الحرمة ولذلك قطع بكثير من الناس مع شدة اجتهادهم)

ومن أخطاء المريدين أو السالكين فى هذا الصدد .

طلب الحق بترك الطعام والشراب :

يسمع المرید المبتدئ أن النفس لا يؤمن شرها الا بالتدريب على مخالفتها ،

فيظن أن أسرع الطرق لكبح جماحها ، والسيطرة عليها ، هو طريق التقليل من الطعام والمشرب ، فيتدرب على ذلك : ويواصل الليالي والأيام . حتى يضعف جسمه وتنحل قواه ويقع فريسة الوسوسة أو الفيبوبة ، فيظن أن هذا هو الفناء الذى تحدث عنه القوم ولا يدري أنه فتح على نفسه أبوابا من الفتنة والبلاء لا يمكنه أن يتخلص منها ، وأقلها أن بعضهم قد يعجز عن أداء الفرائض لشدة ضعفه ، وبعضهم قد يرتد فاسقا كرد فعل لفشله المبكى .

وفات هؤلاء أن الفناء الذى قصده القوم إنما هو الفناء عن رؤية الأعمال والطاعات . لا الفناء بترك الطعام والشراب .

ثم أن العارف إذا قلل طعامه وشرابه إنما يفعل ذلك لغلبة الحان عليه ، لا أنه يفعله لذاته أو يقصده ليكون من الواصلين .

وكان الواجب على هؤلاء ألا يطرقوا سبيلا من سبل التربية فى الطريق الا بارشاد عارف ، لان مخالفة النفوس من العلوم التى لا يفهمها سوى أهلها .

وطائفة من المتوسمين بالتصوف : ظنوا أن طريق السلامة من غوائل النفس وشرورها مؤكد فى العزلة عن الناس ، وان هذا الانفراد هو الطريق الوحيد الموصل الى مقامات العارفين . واذا بهم لا يجنون من عزلتهم سوى التعمق فى الخطأ والانحراف عن الصراط المستقيم .

وغلطوا فى تشبههم بأئمة الصوفية الذين لم يعتزلوا بقصد العزلة نفسها والا لكانت حظا نفسانيا يحجب عن الحق شأنه شأن أى حجاب آخر ، ولكنهم لم يعتزلوا الا لغلبة الوارد وقوة الحال ولو خرج من هذه حالته عن العزلة لتكلف مالا يطيق ولدخل عيه الضرر والاذى ، فيلازم العزلة ما لازمه هذا الحال حتى ينتقل عنه .

ومنهم من تشبه بالمتوكلين فهم فى البرارى والقفار وظن أنه قد دخل الطريق من باب التوكل ، فلم يجن من تصرفه سوى العذاب والالام . وفاته ان المتوكلين قد غلب عليهم مقامهم وحالهم فاستوى عندهم وجود الاسباب وفقدانها .

وجماعة لبسوا الصوف واتخذوا المرقعات وحملوا الركاء ووضعوا الشارات وظنوا أنهم أصبحوا من القوم ، ولم يعلموا أن المظهر لا دخل له فى تحصيل الحقائق .

وجماعة ظنوا أن التصوف هو السماع والرقص والتكلف للاجتماعات على الطعام والتواجد عند سماع القصائد ، والطرب من الالحان والنغمات وأشعار الغزل وقصائده وظنوا أنهم يتشبهون بأحوال القوم ، ولم يعلموا أن كل قلب ممتلىء بحب الدنيا ، وكل نفس شيمتها الغفلة والبطالة ، فسماعه ووجده وطربه معلول وحركاته متكلفة .

ومنهم من يطلب الطريق بالفقر أو بالغنى . فيكون واهما .
فالغنى الذى يقصده القوم هو الغنى بالله تعالى . والفقر هو الاغترار الى الله عز وجل .

فيظن البعض أن الغنى بالاعراض حالة محمودة أو مقام من مقامات الآخرة فأحبوا الاعراض وركنوا اليها ، وساعفتهم أنفسهم فى السعى وراءها لأن حب الملكية ملائم للطبع غريزة فى النفس فتعلقوا بها وخسروا أنفسهم .

وآخرون ظنوا أن الفقر هو الحالة المحمودة لا الغنى ، وتوهموا أن المراد منه هو عدم الملكية لا البراءة منها ، فاشتغلوا بذلك وتعلقوا بالتقل والتقصير واعتادوا الدون من اللباس والقليل من القوت . وظنوا أن الرفق بالنفس أو الترخيص لها بالمباحات أو السماح لها بالطيبات كل ذلك علة وسقوط من المنزلة ، وان كل حالة غير ما هم عليه زلة . فجلسوا معتمدين على حالهم مستشرفين الى من يتفقدهم ويتصدق عليهم مع ضعف يقينهم وغلبة طبعهم وطمعهم واهمالهم آداب الطريق وانتهوا الى رؤية الفقر ومساكنته والاعجاب به . فهو لاء عبدوا الفقر ولم يعبدوا الله الغنى الحميد .

فالعلة قد تكون فى التقل كما قد تكون فى الترفع والترفع وكل من قام فى حالة واعجب بها أو استحلى ملاحظة الخلق له فيها ، ولم يعمل على الخروج منها والاقلاع عنها يكون هالكا لا محالة .

فيجب على المريد ألا يسلك دربا من دروب الطريق الا باذن من عارف قد اكتملت فيه شروط المربى .

ومن القواطع :

الغفلة عن محاسبة النفس :

ومن لم يخصص وقتا يحاسب فيه نفسه انقلب الى حيوان شرس ضرره أكثر

من نفعه ، فيتحتتم على كل عاقل أن يختم يومه بمحاسبة نفسه على ما فعله في ذلك اليوم فيستغفر لذنبه ، ويعقد العزم على رد المظالم الى أصحابها ، والى أرباب الحقوق عليه ، ويحاول أن يصفح عن المسيء ويقرر الاعتذار الى من أساء اليه ، ومن أهمل هذا الباب : لا تزال نفسه تملئ له بالشكر والسوء ولا يزال في ازدياد في العمى والضلال حتى يتردى في أسفل سافلين .

وفى ذلك يقول (من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وان لم يسارع الى المناقشة كشف) . ويقول (يجب على المريد أن يطهر أعضائه من الغفلات والفتور عن ذكر الله كما يجب تطهيرها عن المعاصي من باب حسنات الابرار سيئات المقربين) .

معاشرة الذين لا يبالون بدينهم :

لان الاخلاق تسرى بالانتشار ولا بد . فمن عاشر الفساق شرب من مشربهم لا مفر من ذلك ، ومن عاشر الفضلاء ذاق من كريم شيمهم وحسن سيرتهم ، بل من معجزات الشريعة الحمديدية الخالدة : فرض الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الامة ، لان السكوت على المنكر يؤدي الى انتشاره وتسلبه على الناس ، والامر بالمعروف والحدث عايه يؤدي الى تمكينه وتثبيته في المعاملات فتزداد روابط المحبة والعطف والاخوة .

ومن قواعد الطريق البعد عن كل من يقطعك عنه :

وفى ذلك يقول : (معاشرة أهل الادناس تورث ظلمة البصر والبصيرة)

[يا ولد قلبي ، اجتنب معاشرة أولى المقال والجدال ، والذين لم يتخلقوا بأخلاق الصالحين والعلماء العاملين ، ولا تتخذ أحدا منهم صاحباً . وجالس من جمع بين الشريعة والحقيقة فانه أعون لك على مقصودك] .

ويقول (يا ولدي انقش على صحيفة صفحة لوح خدك توراة درسك ، وانجيل فهمك ، ومزامير ذكرك ، وزبور صفائك ، وفرقان فرقك ، ومجموع جمعة ، واشتغل بأفنان حضورك ، ومراقبة رقيبك عن الخلق ، واشتغل بنفسك عن القيل والقال ، ولا تلتفت قط الى صحبة من يتكرم بضياع أوقاته أو أنفاسه في الغفلات ، فان صحبته هلاك لك) .

ومن القواطع : السخط عند البلاء :

السخط لا يجر الا الى ما هو أسوأ اذ تنهار أسباب الصحة النفسية من استقرار وطمأنينة ورضا ، لتفسح المجال لعلل القلق والوهم والخوف : والاولى من ذلك أن يأخذ الانسان في أسباب التخلص مما هو فيه ، ولذا يظهر الرجل عند الابتلاء • فاما أن يتحطم كالأطفال وأما أن يصمد كرجل مجرب •

يقول : (ما ابتلى الله عز وجل الفقير بأمر الا وهو يريد أن يرقيه الى منازل الرجال فان صبر وكظم الغيظ وحلم وعفا وتكرم رقاه الى الدرجات والا أوقفه وطرده) •

ومنها ارتكاب المحرمات :

يقول : (أكل الحرام وقول الحرام يفسد العمل ويوهن الدين) •

(مادام لسانك يذوق الحرام فلا تطمع أن تذوق من الحكم والمعارف شيئا •

وارتكاب المحرمات يؤدي الى التطبع بطباع الفسقة الذين يهددون سلامة المجتمع ووجوده •

(كيف يدعى فقير الطريق وهو لا يغض بصره ولا يظهر فرجة ولا لسانه من الاثام) •

ويقول :

(اياكم ومؤاخاة النساء واطلاق البصر في رؤيتهن والقول بالشاهد والمشى مع الاحداث في الطرقات فان هذا كله نفوس وشهوات) •

ويقول : (كيف تطلبون من الله تعالى أن ينبت لكم الزرع أو يدر لكم الضرع وأنتم تسلون السيوف على أحد من هذه الامة المحمدية وتلطمخون الحراب من دمائهم) •

ومنها القسوة :

(من لم تكن عنده شفقة أو رحمة على خلق الله لا يرقى مراقى أمل الله • وقد ورد أن موسى عليه السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منها بعصاه انما كان يهش بها فقط ، وكذلك كان لا يجوعها ولا يؤذيها ببطش • وجاء مرة الى نهر ليسقيها فوجد منها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول الى الماء فحملها

ونزل بها فسقاها • فلما رأى الحق تعالى منه قوة شفقتة بعثه الله نبيا وكليما راعيا لبنى اسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها فمن رحم رعيته وأشفق عليهم اصطفاه الله من بين الخلق والسلام (١) •

ومنها التقصير فى أوراد الطريق :

يعنى الشيوخ بنربية المريدين وتلقينهم آداب الذكر ويأمرونهم بالاجتماع فى أوقات مخصوصة لتلاوة أوراد يعينها لهم مربيههم ، كى تعتاد النفس على ذكر الله تعالى وتتذوق حلاوته مع تقوية الهمم وجمعها على الله عز وجل ، فمن تهاون فى ورده انما يتهاون فى مورد أنواره •

وفى ذلك يقول : (ما قطع مريد ورده يوما الا قطع الله عنه الامداد ذلك اليوم) فيشعر بثقل نى النفس والجسم وكأنه مريض وليس به سوى التهاون فى أوراده ، لما يترتب على ذلك من الاثار المتبادلة النفسجسمية ، وهى آثار معلومة فى علم النفس الحديث • •

وقد أدى الجهل بحقيقة الطريق والاستخفاف بشأنها الى أن البعض قد جعل مجالس الذكر وسيلة يتوصل بها الى الطرب بذغمات المنشدين ، وترويح النفس بسماع ترانيمهم ، والادهى من ذلك أن مجالس الذكر أصبحت وسيلة للكسب واحياء الافراح والليالى الملاح ، وترخص المنشدون بكلام (٢) (ظاهره استمداد من صاحب الغيرة العظمى على هذه الطريق صلى الله عليه وسلم ، وباطنه أذية لحضرته وتقطيع لاوصال محبته ، وينادون بأقوال ظاهرها المحن على محبة الله تعالى وباطنها محاربة لجناحه المقدس واهانة لذكره جل شأنه بجعله آلة لتحصيل أقدار الدنيا وأوساخها ، وحصار الذاكرون يظنون أنفسهم مقبلين على الله سبحانه وتعالى مع أنهم واقفون فى صفوف المحاربين لحضرته العلية [•

ومنها سوء الخلق وقبح السريرة وهما يفسدان كل عمل :

وأعمال من كان هذا شأنه لا وزن لها ولا قيمة ، بل هى فى الصورة أعمال

(١) الطبقات الوسطى ١٠٧/ب •

(٢) مصباح الارواح ص ٢٣ •

محمودة وفى الواقع أنها أشد الأعمال ، والقطب الدسوقى لا يتردد فى حكمه على أمثال هؤلاء ان يقول :

(كما أن أهل الشريعة يبطلون الصلاة باللحن الفاحش فكذلك أهل الحقيقة يبطلون الصلاة بالخلق الفاحش • فإذا كان فى باطنه حقد أو جسد أو سوء ظن بأحد من المسلمين أو نحو ذلك فصلاته باطلة عندهم • ويجمع ذلك كله حب الدنيا لان من أحبها حجب عن حضرة الله وطرده عن دخولها ولا تصح مناجاة الحق تعالى كما ينبغى الا لمن دخل حضرته وعرف قدر عظمتة تعالى ، فإذا منع من دخول حضرته فكأنه ما صلى لان أهل هذه الاخلاق فى حجاب عن شهود عظمة الله تعالى فى الصلاة ، ومن كان قلبه محجوبا فما صلى لان الصلاة صلة بالله) •

فكم أساء الى الطريق من ادعاها وظن أنه من خاصة أهلها ! وفى ذلك يقول أستاذ العارفين السيد أبو الوفاء أحمد الشريعةاوى (فكم سطت جنود الباطل على هذه الطريق واعتدت • وكم صالت عليها جيوش الفساد واحتشدت • وكم فرط المنتسبون اليها حتى استضعفها الناس واستذلوها وكم أفسد المنتمون اليها حتى نلت فى عيون الخلق واستهانوها • وكم كثر الجهال فيها وأكثروا فيها الفساد • وكم حرمت ممن يمد لها حبل الصفاء والوداد • قد أصبحت منكسة الاعلام بعد أن كانت مرفوعة • وأمست مهدومة الحصون بعد أن كانت عزيزة ممنوعة • **فانا لله وانا اليه راجعون** • قد اشتروا والله بذكر ربهم ثمنا قليلا ، وابتعدوا عن طريق الصواب وضلوا سبيلا) •

من أسباب أساءة الادب مع العارفين

أشد القواطع هي الوقعة في أحباب الله عز وجل بالانكار أو التعدي وقد أفردناها بعنوان لاهميتها ، كيف لا وقد آذن الله تعالى بالحرب أصنافا من المجرمين من بينهم الذين يؤذون أولياءه . ويحذر القطب الدسوقي أتباعه من الوقوع في هذه الكبيرة فيقول :

(اذا لم يحسن أحدكم أن يتبع القوم في مجاهداتهم فلا يقع في أحوالهم فان الفقراء تارة يتكلمون بلسان التفريق، وتارة بلسان التحقيق بحسب الحضرات التي يدخلونها » وأنت يا ولدي لم تذق حالهم ولا تمزقت ولا دخلت حضراتهم ، فمن أين لك أن تقول انهم على الضلال ! أفتعوم يا ولدي البحر وأنت لست بعوام ! ثم اذا غرقت فقد مت ميتة جاهلية لانك ألقيت نفسك للمهالك والحق قد حرم عليك ذلك بل الواجب عليك يا ولدي أن تطلب دعاء القوم وتلتمس بركاتهم ما لم تقدر على اتباعهم ، فاذا اتبعتهم سعدت [.

(واعلم يا ولدي أن أسرار القوم اذا دخلوا الحضرات منها ما هو أعجمي فلا يفهم ومنها ما هو عربي فيفهم ، وكذلك من أحوالهم ما يعبر عنه ومنها ما لا يعبر عنه ، وكذلك من أسرارهم ما لا يصل الى فهمه مؤول ولا معبر ولا مفسر . لان أسرارهم مكنون سر الله ، وقد عجز القوم عن معرفة أسرار الله تعالى في نفوسهم فكيف بأسراره في غيره ؟ فعليك يا ولدي بحسن الظن في القوم فاني لك ناصح ، فان من رمى أحباب الله بالبهتان والزور أبغضه الله ومقتته في الدنيا والاخرة) .

واساءة الادب مع العارفين ترجع الى أمور منها :

الجهل بعلومهم وأحوالهم :

لأنها كلها علوم ذوقية لا يفهمها الا من عنده استعداد خاص ، وصلاحيية لقبولها . أما من هو ليس بأهل لها فيبادر الى انكارها والى معاداة أهلها . فيحرم نفسه من أنوار العارفين بل ويتمادي حتى يصبح على شفا جرف هار

فاما أن يدرك ما جهل بعد عشرات السنين واما أن يهوى الى أسفل سافلين
والاسلم حسن الظن فى كل مخلص صادق عالم عارف قد وقف وجوده على الله
عز وجل وجمع الخلق على الله تعالى •

يقول القطب الدسوقى [عليكم بتصديق القوم فى كل ما يدعون فقد أفلح
المصدقون وخاب المستهزئون فان الله تعالى قذف فى سر خواص عباده ما لا
يطلع عليه ملك مقرب ولا بدل ولا صديق ولا ولى • ما أنا قلت هذا من عندى
انما هو كلام أهل العلم بالله تعالى ، فما للعاقل الا التسليم ، والا فاتوه وفاتهم
وحرّم قوائدهم وخسر الدارين) •

ولكن التصوف ابتلى بمن يكتب فيه على غير علم • فكتب فيه الدخيل كما
كتب فيه من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وتكلم على مقامات الصديقين كل
عرييد فاسق أو ضال مضل ، وكل منافق عليم اللسان • وفصل مقامات الولاية
كل جاهل لا يعرف سوى هواه •

وانى لاتساءل :

أستطيع هؤلاء أن يكتبوا فى أى علم من العلوم الطبيعية بنفس الجراءة ؟
الجواب • لا • لانهم لم يتخصصوا فيها •

وحينئذ نتساءل مرة أخرى :

أنتم لم تخصصوا فى التصوف بدليل أنكم تنكرونه كعلم • فلماذا تتحدثون
والفهم فى هذا الشأن • فلماذا لا يكون الامر نفسه فى علوم المتصوف ؟

لا خلاف أن من أشكل عليه الامر فى أى علم أو فن ، يرجع الى أولى الدراية
والفهم فى هذا الشأن • فلماذا لا يكون الامر نفسه فى علوم التصوف ؟ •

فمن أشكل عليه أمر فى أى فرع منه : سواء فى معاملات القلوب أو موارد
الاسرار ، أو علل الاعمال ، أفليس من العقل أن يرجع اليهم فى علومهم • وأن
يطلب حكمهم فى الاحوال والمنازل التى مارسوها وبسطوا دقائقها • فمن يفعل
غير ذلك فقد أخطأ • وليس لاحد أن يبسط لسانه بالوقية فى قوم لا يعرف
حالهم ولا يعلم علمهم ولا يقف على مقاصدهم • ولو فعل لما صح لاحد أن يلتفت
اليه أو أن يقيم وزنا لما يقول •

يقول الامام السراج :

(وينبغي للعاقل فى عصرنا أن يعرف شيئاً من أصول هذه العصابة - يعنى الصوفية - وقصودهم وطريقة أهل الصحة والفضل منهم حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم والتلبسين بلبسهم والمتسمين باسمهم حتى لا يغلط ولا يآثم لان هذه العصابة هم أمناء الله عز وجل فى أرضه وخزنة أسرارهِ وعلمهِ وصفوته من خلقهِ . فهم عباده المخلصون وأولياؤه المتقون ، وأحبائهُ الصادقون الصالحون . منهم الاخيار والسابقون والابرار والمقربون والبداء والصديقون) .

وها هو سفيان الثورى الامام الجليل المشهود له بالعلم والاجتهاد المطلق فى العلوم الشرعية يقول (لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء) .

ومع ذلك كتب فى التصوف المنافق وكتب فيه من لا يدري شروط صحة الاسلام وكل فريق وصف التصوف طبقاً لوهمه وخيالاته وفهمه المعوج ، وأخضعه لموازينه ومقاييسه .

فبعضهم وصفه بالسلبية ، وأنه هروب من الحياة الواقعية ، ووصفه آخرون بأنه سبيل كل فاشل ، وقال آخرون انه عملية تعويض أو عملية تسام بالفرائز .

وقال آخرون : انه عمليات دجل ونصب واحتيال .

وتبرع آخرون بوصف الصوفية بما يليق بمقام من صدر الوصف عنهم .

وقد يمضى أحدهم العمر متخصصاً فى دراسة شخصية صوفية بعينها ثم يخرج لنا برسائل وكتب عن ذلك الامام تصوره بأنه يعتقد فى وحدة الوجود أو أنه مارق الخ . . وكل دخيل على التصوف انما كتب لنا مفاهيمه هو وما وصلت اليه قريحته المقيدة بأبعاد عقيدته ، وكى يستتر نفسه ويحمى جهله يحيط نفسه بسياج من الهجوم المقذع على الصوفية وهى حيلة من حيل الدفاع عن النفس يقصد بها :

أن يشار اليه بالبنان كعالم لا يعجبه علم أى عالم آخر ! ويظن أنه بسلطته وتطاوله يصد كل من تسول له نفسه الرد عليه .

ودعونا نسمع اماما صوفيا جليلا وهو القطب الدسوقي اذ يقول :

(ليس واحد من القوم مبتدعا انما هم متبعون فى الادب لسيد الامم وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) فلقد كان أحدهم بعد نزولها اذا وقف يقول نعم ثلاث مرات فان أذن له والا رجع من حيث أتى] .

واستمع اليه وهو يحث مريديه على الازدياد من طلب العلم فيقول :

(يا أولادى اطلبوا العلم ولا تقفوا ولا تسأموا فان الله تعالى قال لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدنى علما) فكيف بنا ونحن مساكين فى اضعف حال وآخر زمان . وسبب طلب الزيادة من العلم انما هى للادب الالهى . يعنى اطلب الزيادة من العلم لتزداد معى أدبا على أدبك » وما قدروا الله حق قدره ،) .

ويقول (قلة معرفة اخلاق القوم من الحرمان لان خرق سياج الادب معهم يؤدى الى العطب ، والباب مفتوح ما غلق ، الا أن القوم واقفون بباب الله والجواب مناديات فى الغيب بالغيب) .

ويخطيء من يضع فى ذهنه معايير ومقاييس من عندياته يميز بها العارف من غيره : اذ ان هذه المقاييس لم توضع الا لامثاله من المحجوبين ولا تنطبق الا على مرتبة من وضعها ، والا فان المخابر والتجارب والمعايير قد عجزت حتى الان عن قياس الشخصيات العادية .

والمعيار الذى لا يخطيء هو المعيار الذى يطبقه كل عارف بالله تعالى : ألا وهو معيار الشريعة والاقتداء بسيد الوجهاء صلوات الله وسلامه عليه فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله .

ومن أهم أسباب الإنكار على الصوفية :

— أن علوم التصوف وهبية ذواتية .

علوم التصوف وهبية : وحينما دخلها أناس من الباب الخلفى وفى أيديهم المنطق والبرهان (وكان أوضح مثل لذلك دراسات المستشرقين ومن لف لفهم من الشرقيين أفسد ذلك التصوف لانه حول النبع المتدفق الى ركود آسن . وحول

السنا المتلاليء الى ظلمة حالكة ، وارجع فضل الله ونعمته الى مرضى من الامراض يعالج بالمادة ويشفى بالعقاقير) .

والواقع أن هؤلاء قد تسللوا الى التصوف من الباب الخلفى فدخله من هب ودب . لا اعتقاد هؤلاء أنه علم نظرى . وفاتهم أنه من العلوم الذوقية ، وأنه من العلوم الوهبية وأنه من العلوم التطبيقية الذاتية والموضوعية فهو تطبيق للشرعية فى جميع شئون الانسان .

فلا يصح أن يتكلم على التجليات والمقامات والمنازل وأحوال النفس ودرجاتها من لم يذوق ذلك أو يجربه ، ولا يمكن أن يتكلم فى ذلك من لم يطبق الشريعة ويعمل بها .

ثم ان العلوم الذوقية لا يمكن الوصول اليها بعبارة ، بل انك لو سألت عن وصف المحسوسات لما وجدت جوابا عن كثير منها كالسؤال عن المشمومات والمسموعات الخ ، هذا فى الماديات .

فما بالك بذوق المعانى أو العواطف السامية كالحب فى الله تعالى والاخلاص لله عز وجل . وكيف يبارز أحد قوما لا يعرفون سوى الله عز وجل فى جميع شئونهم ؟

ومادة التصوف كلها انما هى لا يقصد بها سوى وجه الله تعالى سواء فى الاخلاق أم السلوك أم المعرفة أم المشاهدات أم المناجاة أم التجليات الخ .
قال فى التعرف :

[علوم الخواطر وعلوم المشاهدات والمكاشفات وهى التى تختص بعلم الاشارة وهو العلم الذى تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التى وصفناها .

وانما قيل علم الاشارة لان مشاهدات القلوب ومكاشفات الاسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها الا من نازل تلك الاحوال وحل تلك المقامات) .

قال أبو الحسن بن أبى ذر فى كتابه « منهاج الدين » أنشدونا للشبلى :

علم التصوف علم لا نفاذ له علم سنى سسماوى ربوبى
فيه الفوائد للارباب يعرفها أهل الجزالة والصنع الخصوصى

(ثم لكل مقام بدء ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة ولكل مقام علم ، والى كل حال إشارة ، ومع كل مقام اثبات ونفى ، وليس كل ما نفى فى مقام كان منفيًا فيما قبله ولا كل ما أثبت فيه كان مثبتًا فيما دونه) (١) .

يقول القطب الدسوقي :

(لا تقنعوا من الطريق بالوصف دون الذوق وما تكلم القوم الا على شيء ذاقوه فبالله عليكم يا أولادى اذا سألكم أحد عن شيء من مقامات الطريق فلا تجيبوه الا أن كنتم متحققين به .)

(فيا جميع أولادى اذا سألكم أحد عن التصوف مثلاً أو عن المعرفة والمحبة فلا تجيبوه قط بلسان قالكم حتى يبرز لكم من صدق معاملتكم ما برز للقوم ، فيكون كلامكم عن حاصل وعن محصول ، فاذا قام أحدكم بالاوامر الدينية وصدق فى العمل يترجم لسانه بالفوائد التى أثمرت من صدقه ، وكل من ادعى الصدق والاخلاص ولم يحصل عنده ثمرة الادب والتواضع فهو كاذب وعمله رياء وسمعة لا يثمر له الا الكبر والعجب والنفاق وسوء الاخلاق شاء أم أبى) .

ولصعوبة التصوف قل من نراه مشغلاً بهذا العلم لان هذا علم الخصوص الممزوج بالمرارة والغصص وليس للنفس فى منازلته حظ لانه منوط بمخالفة النفوس وتدريبها وتكملتها وتصفيتها فمن أجل ذلك عزف الناس عن هذا العلم واشتغلوا بالعلوم التى تخف عليهم مؤونتها ، وتفتح لهم أبواب الحظوظ والمكاسب الدنيوية وهذه العلوم أقرب الى الغرائز وأخف على النفوس التى جبلت على متابعة الحظوظ .

وأين من الناس من يشغل نفسه بالتخلص من دقائق الرياء أو قطع أسباب الشرك الخفى ، وأين من الناس من يطلب الخلاص من الحقد والحسد والغل والكذب والنفاق والظلم ؟ وأين من الناس من يخلص نفسه من غرائز التعالى على الآخرين والسيطرة عليهم ؟ وأين من الناس من يعمل على تطويع نفسه ليوافق هواه كل جزء من جزئيات الشريعة ؟ وأين من الناس من يفضل أن يمزق

(١) التعريف — ص ٨٨ .

اربا عن مخالفته لسنة من السنن المحمدية ؟ وأين من الناس من يتهم نفسه فى كل عمل بالتقصير فى جانب الله تعالى ؟

ان أئمة الصوفية جمعوا فى علومهم بين التفسير والحديث والفقه ، ثم طبقوا العلم على العمل فأخضعوا النفس لاحكام الشريعة ، وتفردوا عن غيرهم بعلوم التربية والنفس وعلاجها وتزكيتها ، ومقامات السالكين وأحوالهم وآداب المنازل والمقامات . والمعاملات القلبية لاتقل أهمية عن المعاملات الظاهرية بل ان الاخيرة بعضها لا يقع الا مرة فى العمر والاولى تقع مئات المرات يوميا . قيل للحسن البصرى فلان فقيه . فقال : ان الفقيه هو الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بأمر دينه .

— ومن أسباب اساءة الادب مع العارفين : الانكار على المظهر :

من مطعم أو مأكّل أو مشرب أو ملبس أو ضحك أو بكاء وغير ذلك من الاحوال الحسية والنفسية الظاهرة للعيان .

وهذه أحكام نسبية لا دخل لها بالمعرفة وعدمها . وما ذنب العارف فى أن البعض يرى أن الصوفى يلبس ويأكل الخشن ، والبعض يرى أن الصوفى يجب أن يظهر نعمة الله تعالى عليه فيلبس الرقيق ويترفه فى مأكله ، ولا دخل لهذا بالطريق ولا بالمعرفة .

وفى ذلك يقول (لا تنكروا على فقير حاله ، ولا لباسه ولا طعامه ولا على أى حال كان ، ولا على أى ثوب يلبس ، ولا انكار على أحد الا أن ارتكب محظورا صرحت به الشريعة ذلك لان الانكار يورث الوحشة ، والوحشة سبب لانقطاع العبد عن ربه عز وجل) .

وقد يلبس بعض العارفين أرق الثياب وأغلاها لانه لا يطيق لبس الخشن لشدة نظافته ، وكما قلنا أن الجسم يتأثر بأحوال النفس . وكان القطب الكبير الامام الشاذلى وتلميذه أبو العباس المرسى يلبسان أرق الثياب وأقخرها .

وفى ذلك يقول : (اذا قويت فى القلب الانوار لم يطق صاحبه حمل ثوب رقيق ولا ازار ، فان تهتك هذا فلا يلام . وان صاح أو باح فقد حل عنه الملام ، وان رش عليه الماء فى ليالى الاربعينيات فلا يزيد الا ضراما ، وكل شئ نزل

بباطنه من الطعام والماء نار واستنار • فيا أولادى : الفقراء كلهم عندى ملاح
فليكونوا عندكم كذلك فاحذروا الانكار) •

(وقد ينكر المنكر على الصوفية تواجدهم : قيل للجنىدى : ان قوما
يتواجدون ويتمايلون • فقال : دعوهم مع الله يفرحون ولا تنكروا الا على
العصيان المصرح به فى الشريعة ، أما هؤلاء القوم فقد قطعت الطريق أكبادهم
ومزق النصب (التعب) قوادهم ، وضاقوا ذرعا ، فلا حرج عليهم اذا تنفسوا
مداواة لحالهم ، وكذلك يا أخى لو ذقت مذاقهم لعذرتهم فى صياحهم وشق
ثيابهم • وقد يعلم العارف أو المريد أن الناس سينفضون من حوله لو تعاطى ما
يتعاطونه من مزاح أو عمل مباح فيفعله بغرض صرفهم عنه :

عبد دعاه لبابه موله فأجاب لما أن اليه دعاه
ويود لو كانت حشاشة روحه طوعا لمزقها لاجل يراه

وفى ذلك يقول (اذا ضحك الفقير فاحذروه ولا تخالطوه الا بأدب فانه ربما
مزح كالناس لانه يفعل ذلك تنفيرا لهم لئلا يعتقد فيشتغل عن ربه عز وجل) •

— ومنها الانكار عليهم لقصور الهمم عن العمل بالشريعة :

فقد بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء، أى العاملين
بالشريعة ، فانهم يصبحون غرباء وسط المنصرفين عن العمل بقواعدها ،
كيف لا والعمل بالبدعة يصبح فرضا ، والعمل بالسنة يصبح بدعة ، والصدق
جفاء ، والكذب ظرفا ، والخيانة كياسة ، والكياسة حماقة • وقس على هذا
واذا تكالب الناس على الدنيا من كل حدب وصوب فأصبحت شغلهم الشاغل
فقد تودع منهم •

وفى ذلك يقول (عليك بالوحدة فانك فى القرن السابع الذى أكثرهم يجعل
الحقيقة مخالفة للشريعة ، ويقولون باب العطا أغلق حين رأوا باب العطا أغلق
دونهم ، وما علموا أن لله عبادا أفاض عليهم من جوده ما لا عين رأت من علوم
ومعارف وأسرار) •

— ومنها الانكار بسبب عقدة النقص :

اما من خلل فى الدين أو ضعف فى الايمان أو نقص فى العلم فيهاجم هؤلاء
كل من تلوح عليه مظاهر الكمال فى شىء حرموا من تحصيله : وهذا أشبه

بالعداوة التى نلمسها أحيانا فى الغبى للذكى ، والفاشل للناجح ، والعاجز فى الصنعة للماهر فيها .

وينبه على هذا الداء بقوله (اذا صدق العبد فى الاقبال على الله أحبه المؤمنون فلا يبغضه الا كافر أو منافق) .

والخلق الكريم يقتضى الا ينتقص الانسان أحدا لحظ نفسانى (ولا يقدر فى صاحب خرقة الا ان خالف صريح الكتاب والسنة اختيارا) .

وعلى المنكر أن يرينا موازينه التى يزن بها أفعال العارفين ، وعليه أن يثبت أنه يملك جميع الصنح التى يزن بها أفعال العباد كما يوزن الذهب حتى يصح له الانكار . فان لم يفعل ولن يفعل فعليه أولا بمجاهدة نفسه الهالكة قبل أن يحاسب غيره على كمالات لا تطرأ على باله .

بل ان أحق الناس بمراعاة أرفع الاداب معهم هم أهل الله تعالى . وفى ذلك يقول : (الفقير أحق بالهيبة من السلطان لانه جليس الحق وربما لا يكون السلطان ممن يصلح لمجالسة الحق لكونه أخذ المرتبة بالسيف أو يكون مبتدعا أو غير ذلك) .

لكل ولى حجاب :

قال الامام أبو الحسن الشاذلى : لكل ولى حجاب وحجابى الاسباب .
وقال الجلال الكركى (١) فى بيان حجب الاولياء :

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة . وسبب ظهور ذلك الولى بذلك ، هو تجلى الحق عليه ، فاذا تجلى بصفة ظهر بها ، فاذا غلبت عليه شهودا غلبت عليه ظهورا ، فلا يقدر على صحبته والثبات معه الا من محا الله نفسه وهواه .

ومن هذا الصنف كان أستاذنا رحمة الله عليه مع ملوك الدنيا ورؤسائها لا يجلس واحد منهم بين يديه الا والرعب قد ملك قلبه . . . فأى ملك أعظم من هذا الملك ! هذا ملك أعوز الملوك وجوده ، ألا ترى أنه لم يزل فى كل قطر وعصر أولياء تذل لهم ملوك الزمان ، ويعاملونهم بالطاعة والاذعان : كعارف هذا

(١) لسان التعريف ٥٣ — ب وما بعدها .

الزمان أبى السعود (١) أدام النفع به فى الوجود ، وعين الابدال عبد القادر
الدشوطى ، قال بعض العارفين :

ويا صاحبى قف لى مع الحق وقفه أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل للملوك الارض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى
خصوصا ياذا العقل المتين ما قيل فى شأن الملوك والسلطين :

ان الملوك بلاء أينما حلوا فلا يكن لك فى أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم اذا غضبوا جاروا عليك وان أرضيتهم ملوا
وان مدحتهم ظنوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كسرما ان الوقوف على أبوابهم ذل

ويقصد بالملوك هنا : الحكام أينما كانوا ماداموا جائرين .

ومنهم من يكون حجابيه كثرة التردد على الملوك والاكابر فى حوائج العباد
فيقول قصير الادراك : لو كان هذا وليا ما تردد على أبناء الدنيا . وهذا جور
من قائله ، بل ينظر تردده اليهم : ان كان لاجل عباد الله وكشف الضر عنهم
وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله اليهم مع الزهد عما فى أيديهم ، والتعزز بعز
الايمان وقت مجالستهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، فلا حرج على
من هذا شأنه لانه من المحسنين وقد قال سبحانه (ما على المحسنين من سبيل)
ومن هذا الصنف كان الشاذلى كما مرت الإشارة اليه (٢) .

ومنهم من حجابيه بكثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه كما قيل : كان بالغرب
رجل زاهد فى الدنيا عيشه مما يصيده من البحر يأكل البعض ويتصدق

(١) هو أبو السعود الجارحى ومقامه مشهور ببصر القديسة وكان يقسول (من حين جلست
تسحا فى مصر لى سبع وثلاثون سنة ما جاء لى قط أحد يطلب الطريق الى الله) انها يجىء
الذى يقول : امرأتى تشاكدنى جاريتى هربت جارى يؤذبنى شريكى خائنى ، وكلت نفسى من
ذلك وحشت الى الوحدة وما كان لى خيرة الا فيها فياليتنى لم أعرف أحدا ولم يعرفنى أحدا)
نوفى ٩٣٢ هـ .

(٢) تكلم فى ق ٥٢ - ب عن سعى الامام الشاذلى لخدمة الناس لدى الحكام حتى قال فيه
الامام تقي الدين محمد بن على التشيرى (جهل ولاة الامور بقدر الشيخ ابن الحسن الشاذلى
لكثرة ترداده اليهم فى الشفاعات) . ويؤثر عنده انه استدعى يهوديا كحالا ليداوى بعض
من عنده فقال اليهودى للشيخ : لا اسطيع ان اعالج مائه جاء مرسوم من القاهرة ان لا يداوى
أحد من الاطباء الا باذن من مشارف الطب (يشبه وزير الصحة) بالقاهرة . فلما خرج ذلك
اليهودى . قال الشيخ أبو الحسن لخدمته هيئوا آلة السفر . وسافر لوقته الى القاهرة .
واخذ لهذا الطبيب اذنا ، وعاد ، ولم يبت بها ليلة واحدة . ثم جاء الى الاسكندرية فأرسل
الى ذلك الطبيب ، فأعذر له بما امتذر له أولا . فأخرج له الشيخ مكتوبا باذن . فأكثر اليهودى
التعجب من هذا الخلق الكريم .

وهذا الخلق لا يقوى عليه الا عبد تخلق بالاخلاق المحمدية فبذل كل وجوده فى مرضاة
الله تعالى برحمة عبادته .

بالبعض . فأراد بعض أصحابه السفر . فقال له اذا دخلت بلدة كذا فأقريء فلانا منى السلام ، واطلب لى منه الدعاء فانه من الاولياء . قال فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح الا للملوك . فتمجبت من ذلك وطلبته فقبل هو عند السلطان . فازداد تعجبي . فبعد ساعة واذا هو قد أتى فى أفخر ملبوس ومركب كأنما هو ملك فى مركبه ، فازداد تعجبي أكثر من الاول ، فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى مخالفة الشيخ . فاستأذنت فاذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والاشياء الحسنة . فقلت له : أخوك فلان يسلم عليك . قال : جئت من عنده ؟ قلت : نعم . قال : اذا رجعت اليه قل له : الى كم الاشتغال بالدنيا ، والى كم الاقبال عليها ، والى متى لا تنقطع رغبتك . فقلت فى نفسى : هذا والله أعجب .

فلما رجعت الى الشيخ ، قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم . قال : فما الذى قال لك : قلت : لا شيء . قال : لابد أن تقول . فأعدت عليه ما قال : فبكى طويلا . وقال : صدق أخى فلان . وهو والله غسل قلبه من الدنيا وجعلها فى يده ، وعلى ظاهره ، وانما أخذها من يدي وعندى اليها بقايا التطلع .

وعلاوة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجود ، ووجود الراحة منها عند الفقد . ومن هذا الصنف كان محمد بن الحسن (١) صاحب أبى حنيفة . لما دخل الشافعى (٢) داره بالكوفة . رأى أثوابا عراقية ودهاليز سقوفها منقوشة . فذكر ضيق مالك وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى فبكى . فقال له محمد : لا يرعك ماريت يا أبا عبد الله فما هو الا مال مكتسب وأنا أخرج زكاته كل عام فأسر به الصديق ، واكبت به العدو . وقصة الامام الشافعى معه شهيرة . وكذا مع الامام مالك (٣) رضى الله عنه لما رجع من العراق واجتمع به فى حال غنائه ، فبكى الشافعى حين رأى الدنيا قد أقبلت على الامام مالك . فقال له : أخفت يا أبا عبد الله أنى بعت الاخرة بالدنيا .

(١) الامام الكبير محمد بن الحسن الشيبانى (١٣١ - ١٨٩ هـ) ، وفى غزارة علمه يقول الامام الشافعى (لقد حبلت من علم محمد بن الحسن وقر بعير) وله مؤلفات كثيرة .
(٢) الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ونسبه الى جده شافع بن السائب الصحابى رضى الله تعالى عنه ولد ١٥٠ هـ وتوفى ٢٠٤ هـ . واستدعاء الرشيد الى بغداد للعمل فشنع فيه محمد بن الحسن فعفى عنه ، ويسر له الامام محمد بن الحسن العيش فى بغداد وكان ينقل ما بينها وبين مكة حتى سنة ١٩٨ هـ وفيها خرج الى مصر وبها توفى .
(٣) هو مؤسس المذهب المالكى الامام مالك بن أنس الاصبهى (٩٩ - ١٧٩ هـ) وكان مع غزارة علمه مهيبا جليلا لا يخشى فى الحق لومه لائم وكان الخليفة فس دونه يجلس بين يديه مطرقا من مهابة .

قال : هو والله ذاك . قال طب نفسا وقر عينا . فان هذه هدايا خراسان ومصر
وسائر الدنيا . وان لى ثلاثمائة حلة من دق خراسان ، وقباطى مصر ، وعندى
عبيد مثلها ، وهى هدية منى اليك . وفى صناديقى تلك خمسة آلاف دينار أخرج
زكاتها كل حول فلك نصفها هدية . الى آخر القصة .

ومنهم من يحجب بالقبول من الخلق فاذا قبل ما يعطى منهم صغر فى أعينهم
ان لا يكبر عندهم الا من لا يعبأ بدنياهم ، وربما فعل شخص ذلك استجلابا
لقلوب الناس ليتوجهوا اليه بالتعظيم ولتنطق الالسنه بالثناء عليه . وفى هذا
يقول الامام الشاذلى : من طلب الحمد من الناس بترك الاخذ منهم فانما يعبد
نفسه وهواه وليس من الله فى شيء .

وقد يكون مرادهم بأخذهم مخالفة نفوسهم .

ومنهم من يحجب بشهود الماثلة وهو أشد الحجب عن معرفتهم لانه سبحانه
حجب به الأولين . قال تعالى حكاية عنهم (ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما
تأكلون منه ويشرب مما تشربون) (١) وقال مخبرا عنهم (أبشرا منا واحدا
نتبعه) (٢) . وقال سبحانه (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى
الاسواق) (٣) .

فاذا أراد الله أن يعرفك بولى طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود
خصوصيته . وبالجمله فالعارف قل من يعرفه ، ومن ثم جهلت أحوال الاكابر
أرباب المقامات ، واشتهر أهل الاحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن
كتمانها ولضيقهم عن وسعها . والعارف له اتساع المعرفة فاذا ورد الوارد عليه
غرق فى وسع رحمته ، وهل رأيت بحرا فاض من مطر ؟ ولذا قيل للجنيد : ما
لنا نرى المشايخ يتحركون فى السماع وأنت لا تتحرك ! ؟ فقال (وترى الجبال
تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) . فربما كان صاحب الحال أحظى
باقبال الخلق من صاحب المقام وبينهما كما بين السماء والارض . وكلمة تمكن
العارف فى العلوم الالهية والمعارف الربانية استغرب فى هذا العالم ، فيقل من
يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه .

(١) سورة (المؤمنون) من الآية ٣٣ .

(٢) سورة القمر من الآية ٢٤ .

(٣) سورة الفرقان من الآية ٧ .

شكواه من أهل زمانه

تعرض العالم الاسلامى لاشد أنواع المحن والبلايا فى القرن السابع (١) الهجرى ودخل فى ليال داجية كاد يطمس معالم الحضارة الاسلامية ظلامها الدامس .

فقد وقع العالم الاسلامى بين شقى الرحا التتار فى الشرق والصليبيون فى الغرب ، ولم يكن هذا بالسبب الرئيسى لما حل بالمسلمين من كوارث تضيق الصفحات عن تسطيرها ، بل كان السبب الاكبر هو قصور الهمم عن العمل بالشرعية والابتعاد التدريجى عن مواقع الوحي والانصراف عن كلام الله عز وجل . وانعكس هذا الوضع على جميع مظاهر الحياة .

فالحياة السياسية استبداد مطلق ، وقواعد الحكم بعيدة كل البعد عن تحقيق العدالة الشرعية ، فمن احتكار للوظائف ، الى استغلال السلطة ، الى تعال بالجاه والمولد . وانعكس هذا الموقف على الادب والثقافة ، وعلى التصوف .

فالادب انحطت أغراضه فهو اما استجداء للحاكم أو تأليه له أو نفاق وتصفيق وتسبيح بحمده . وانحدرت أهدافه الاجتماعية الى الرثاء أو الشكوى والضجر من جور الزمان ، وظلم الايام والليالى ، وأصبحت الحظوظ توزع على أساس القواعد العكسية ، فالعلم اقترن بالفقر ، والذكاء اقترن بالحقْد والرزايا ، وسعد كل منافق عليم اللسان .

والثقافة أخذت تتجمد لان المجتمع لا يبغى حراكا ، بل ولا يحسن السكون انه مجتمع الكف عن العمل المثمر المتجه الى اعلاء الحق ، مجتمع الكف الذى لا يبحث الا عن السلامة فى التقوقع على نفسه وهيئات أن يجدها لانها أشبه بسلامة النعامة التى تدفن رأسها والصياد فى أثرها .

والتصوف : أصبح حرفة يقتات منها من ضاقت به سبل العيش فلجأ الى

(١) سنذكر آخر الباب صورة سريعة لحالة العالم اسلامى فى ذلك الوقت .

ارتداء الزى الصوفى وحفظ بعض عبارات يوهم بها الناس أنه من كبار رجال الطريق ، فأساء الى نفسه وإلى مجتمعه .

ولذا نجد أن القطب الدسوقي يشكو مر الشكوى من قلة المخلصين فى الطريق فيقول (والله يا أولادى لو وجدنا الى الخلوة سبيلا أو وجدنا الى الانقطاع فى بيوتنا عن أعين الناس من سبيل لفعلنا . فان القلب فى هذا الزمان متعب ، والكبد كل وقت يذوب ، فأين الملجأ ؟ وأين المفرة ؟ من أهل هذا الزمان ، زمان كثر فيه القال والقليل (١) ولكن الذى بلانا بأهله يدبرنا ويعيننا بحوله وقوته) .

ثم يخاطب مريديه فيقول :

(يا أولادى ، كم غرور ! كم لهو ! كل لعب ! كم غى ! كم هوى ! كم افتراء ! كم نكد ! كم غدر ! كم سهو ! كم نسيان ! كم غفلة ! كم ذلة ! كم اجرام ، كم زور ! كم فتور ! كم أعظكم ولا تسمعون ! ما أنتم الا أموات !)

وكان يرى أن الوحدة اذا ما فسد الجليس أسلم (٢) حتى يكمل المرید فاذا كمل فلا عليه من المخالطة فيقول :

كان السلف الصالح يخافون من آفات الاجتماع فلذلك آثروا العزلة الا فى اوقات الجماعات ومجالس العلم التى لارياء فيها ولاجدال ولاعجب ولامدارة والسلامة من هذه الامور فى زماننا هذا قل أن توجد . فعليك بالوحدة بعد معرفة ما أوجب الله تعالى عليك فانك يا ولدى فى القرن السابع الذين أكثرهم يجعلون الحقيقة مخالفة للشريعة ، وحقيقة المحبة بدعا فى الطريق ، كأنهم ما علموا قط بعباء الله ومواهب الله وخوارق عجائبه . بل راوا من سوء حالهم أن باب العطاء قد أغلق . فمن اعتقد ذلك فانما هو معترض على الله تعالى فى فعله ونعوذ بالله من التعرض ، فانه لا بد لاهل حضرته تعالى من التمييز عن المعرضين ليشتاق المعرضون اليها حيث يرون الخوارق تقع على يد أوليائه ،

(١) وفى الكواكب الدرية (زمان كثر فيه القال بلا حال لكن من ابلانا بأهله يدبرنا معهم) ق ٣٣٠ - ب .
(٢) ليس هذا من قبيل ما سبى « حالات الهروب النفسى » وانما هو من قبيل العلاج للوصول الى الاتزان النفسى . أما فى حالات الهروب فان الحالة تزداد سوءا .

فما أجهل من جهل قدر الفقراء وما أعماه . ايش (أى شيء) يقال فى قوم كلهم طالبون الله تعالى ، أينكر عليهم مسلم ! كلا والله) .

ويقول :

[واغوثاه من أهل الزمان والله لو كان فى العمر مهلة لسكنت أطم الجبال ويطون الاودية بين الوحوش حتى أموت . فان الرجل الان بين هؤلاء الناس فى أشد جهاد . قلوب شاردة ، وأحوال مائلة ، وشهوات غالبة ، قد عدموا الصدق فى الاحوال ، وكيف يقدر الضعيف على صون نفسه حال عثرتهم ! وغض بصره عن رؤية أفعالهم الرديئة ليلا ونهارا ، ويصبر معهم على كل فتنة وشهوة وأذى من غير أن يقابلهم بمثلها . هذا لا يطيقه الا الصالحون) .

ويقول (يا ولدى ان كنت ولد قلبى حقا فكن على حذر من الدخلاء السوء ، وان عاينت من أخيك عنفا أو حسدا فعاشره بالمعروف واحفظ نفسك عنه . وأما صديقك فان صدقك فاحفظه . وما للمرء يا ولدى الا أن يكون على حذر من جميع البشر فاننا فى آخر زمان وقد قل النصيح فيه من الاخوان حتى لا تكاد تنظر ناصحا يعينك . وعاد من توليه سرورا يولييك نكدا وشرورا ومن ترفعه يريد ان يضعك ، ومن لم تحسن اليه يسىء اليك بل ثم من تحسن اليه يسىء اليك ، ومن تشفق عليه يود أنه لو رماك على الشوك وأسنة الرماح ومن تنفعه يضرك ومن توليه معروفا يولييك جفاء ، ومن تصله يقطعك . ومن تطعمه يحرمك ، ومن تقدمه ان استطاع أخرك ومن تربيته يقول انا الذى رببتك . ومن تخلص له يغشك ، ومن تهش له يكشر لك ، فوا عجبا للدنيا ولأهلها) .

(واذا كان مالك بن دينار (١) يقول فى زمانه لو نبتت للمنافقين أذناب فى هذا الزمان لما وجد المؤمن مكانا يمشى فيه) .

(واذا كان النفاق داخلا فى أيام الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف يخلو من القرن السابع . فان استطعتم يا أولادى أن تستعملوا الوحدة عن أهل

(١) من كبار العلماء العارفين بوفى سنة ١٢١ هـ وكان يقول (ما نفى لاحد رضى يساعده على عمل الآخرة انما هم بغسدهن على المرء قلبه) ويقول فى موله تعالى (وكن فى المدينه نعمة رهط بفسدون فى الارض ولا يصلحوا) فكم اليوم فى كل مدينه ممن بمسد ولا يصلح : يعنى ان ما عدا السعه كانوا كلهم يصلحون ولا يفسدون . وهؤلاء انما سكمون بحكم مربينهم ، وكلما علت المربه كلما اسند الاسلاء .

السوء فافعلوا • وان استقطعت ألا تصحب من تتعب في صحبته فافعل • فانك
ان صحبته ندمت على صحبته • وقد نصحتك يا ولدى) •

(ولا تتشبهوا بأهل التمكين ، فان أهل التمكين قد تركوا أخلاق الاراذل من
الناس وغفروا لهم أفعالهم وغضوا أبصارهم • وصموا آذانهم عن سماع
أقوالهم • وتركوا الكل لله تعالى ، وطلبوا من الله تعالى لأهل هذا الزمان عفوا
شاملا وقابلوا سيئاتهم بالحسنات ومضراتهم بالمسرات والمبرات) •

ويقول (ما بنيت طريقتي هذه الا على النار والبحر الهدار والجوع
والاصفرار ماهى بالمسدة ولا بالفشار ، دعونا من هذه البطالات فما وجدنا من
أولادنا الى هذا الوقت أحدا اقتفى آثار الرجال ولا صلح أن يكون محلا للأسرار
فآه ، آه • والله أننا كلنا مساكين في أضعف حال وآخر (١) زمان) •

وكل هذا صادر عنه لشدة غيظه من أن يرى الناس تتعلق بالدنيا أشد من
التعلق بالآخرة ، ولشدة حبه للخير للناس فهو يتمنى أن يتجهوا الى اصلاح
قوابلهم لتلقى الفيوضات الالهية ليسعدوا السعادة التي ليس بعدها شقاء
وينعموا في الدارين بالرضوان الأكبر •

هذه هي القواعد الراسخة التي أسس عليها هذا القطب الشهير بنيان
مدرسة صوفية جديدة هي الطريقة البرهامية التي لم تلبث حتى ذاع صيتها في
جميع أنحاء العالم الاسلامي •

(١) يعنى أن الامة المحمدية هي آخر الامم •

صورة سريعة لحالة العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى

كى يمكننا تقدير المدرسة الصوفية البرهامية من جهة ، وكى نتمكن من ربطها بالحياة فى ذلك الوقت من جهة أخرى ، لابد من عرض صورة سريعة للحالة فى العالم الاسلامى عامة ، والعالم العربى بوجه خاص ، فى هذه الفترة : فترة النصف الثانى من القرن السابع الهجرى .

تعرض العالم الاسلامى فى هذه الفترة الى خطرين داهمين لكنهما ليسا بالجديدين عليه . وهما الخطر التترى والخطر الصليبي .
أما الخطر التترى فقد بدا أن خلفاء جنكيز خان أخذوا يفكرون فى تكملة غزو العالم القديم بعد أن أخضعوا معظم القارة الاسيوية لحكمهم وهددت أطرافهم أوربا الشرقية بالدمار .

وفى عهد هولاكو بن فولى بن جنكيز خان 'تجه الاعصار البشرى المدمر نحو عاصمة الخلافة الاسلامية - بغداد - ٦٥٦ هـ فحولها الى أكوام من الهدم ، وبركة من الدماء غارقة فى الاحزان ، تشهد على أن التفريط عاقبته أوخم العواقب ، فقد أسفرت المذبحة الهائلة عن اراقه دماء أكثر من مليون قتيل ، لو قتلوا فى المعركة لكان خيرا لهم من مطاردة رماح التتار وسيوفهم فى حفلة الموت الاخيرة . يقول المؤرخ سيد أمير على (لم يفلت من يد المغول الا نفر قليل من السلالة العباسية ، وأما بغداد مهد الحضارة ومقر العلم والنور وعين العالم الاسلامى وقلبه النابض فقد خربها المغول ولم يبق من سكانها سوى نصف مليون بعد أن كانوا نحو مليونين من الانفس) .

وراحت بغداد ومعها العراق ، والسمرقند فى ضياعها : الصراع المذهبى بين الشيعة وأهل السنة ، والعصبية العرقية بين الأتراك والعرب ! وأهم من هذا وذاك انحطاط النفوس عن مراتب الحياة التى حددتها الشريعة الخالدة لتكريم الانسان .

ووجه البرابرة الى الاسلام ضربة ثقافية اشد فقد ألقوا بكتب المكتبات
الاسلامية فى نهر دجلة ليعبروه عليها . وما أرخص العلم لدى البرابرة الذين
يجهلون معانى الحياة ولا يفهمون الا منطق السفاحين .

ودمروا شمال سوريا وحلب سنة ٦٥٨ هـ .

ولولا صيحة النصر المشهورة التى أطلقها السلطان الملك المظفر قطز
حدوية (وا اسلاماء) فى قلب المعركة ، فبعث الحياة وقوة الايمان من جديد فى
قلوب الجيش الاسلامى فدحر البرابرة فى عين جالوت ٦٥٨ هـ ، لولا هذا
لوقعت مصر وأفريقيا تحت سنايك خيولهم .

وتوفى هولاكو سنة ٦٦٣ هـ ولم يستطع الانتقام ليمسح ما لحقه من عار فى
عين جالوت ، واستقر التتار فى العراق ، ولم يزل خطرهم الا حين اعتنق
خانهم الاسلام فى اواخر القرن السابع الهجرى ، هذا فضلا عن انشغالهم فى
مشاكل أبناء عموماتهم فى آسيا .

والغريب أن هذا الوباء التترى كان معاصراً للخطر الصليبي فى الغرب فكان
الوطن العربى محصوراً بين شقى الرحا الصليبيون فى الغرب والتتار فى
الشرق ، وكأن هناك اتفاق بين الطرفين أوجدته وحدة الهدف وهو القضاء على
العالم العربى ، وقد بلغ هذا الخطر أوجه حين تزوج هولاكو من مسيحية
نسطورية ، وكان فى الامكان أن يستغل الصليبيون هذه المصاهرة لصالحهم ،
ولكنهم ترددوا فى السير الى آخر الشوط مع حليف وتننى هائل اعتنق بعض
رعاياه المسيحية على مذهب يخالف مذهبهم ، ومن يدرى فلربما فعل بهم ما فعل
بالمسلمين فتكون نهاية الحلف نهاية بغدادية ! لذا وففوا موقفا سلبيا .

وكان هذا التردد سبباً فى انتصار المسلمين على الصليبيين فى الشام فقد
دمر السلطان الملك الاشرف خليل آخر حصونهم (عكا) ٦٩٣ هـ وهى المدينة
التي دفن نابليون الاول فيما بعد آماله تحت انقاض أسوارها ، وبسقوطها تحرر
الشام نهائياً من الغزو الاوربى المستتر تحت اسم الصليب مدة طويلة .

ولكن حظ العرب فى الاندلس كان سيئاً . فمنذ دق البابا الناقوس الصليبي
سنة ٦٠٩ هـ والحرب لا تهدأ لطرد المسلمين من الاندلس (أسبانيا) وكان هذا

ايذانا ببءء ملحمة تاريخية كتبت بالءم على صفءات الوطن الاءءلى . وءان ما كان من أهوال سءلها الاءيب الكبىر صالء بن شريف الرئءى فى نونىته المشهورة (١) .

وىالىت هءه المأسى ءء ءفعت العرب الى تصفىة ما بىنهم من ءلافات بل ومما زاء الطىىن بلة والءالة سوءا أنهم ءء ابتلوا فى ءل بءعة بالءلافات التى لا ءنءهى ءتى أصبء الءلاف ءضىة من لوازمها ءور والءسلسل .

أما من ناءية الإءوال الءاءلىة :

فمن الناءية السىاسية ساءت نظرىة الءكم المطلق ، وبءا ابتءء الءكام المسلمون عن عمء عن النظام العملى للءولة فى الاسلام ، بءءوىلهم الءكم الى سلطان اسءبءاءى ، بءىء يصبء الءاكم هو الءولة والءولة هى الءاكم ءما ءال لوىس الرابع عشر فى فرنسا .

وهءا هو السر الءى يفسر لنا ءثرة ءواءء الاغءىال والءلل وءلب الءكم فى ءلك العهد وما ءلاه من العهد اء من شأن المسءبء ألا ىءفىر ءكمه الا بالءوة لا بالطرىق السلمى . ءتى أن الملك المظفر ءطرز ءلله ءواءه عقب انءصاره الءالء فى وقعة عىن ءالوت . وهءا هو الاءءفال بالنصر ؟

واشءء ءلناطء على مراكز الءوة الى ءرءة فاقت ءءوء ءلصور ، وهءا الصراع ءمرة طبىعبة لنظام الءكم . فلو كان الءكم نءلىفا وواءبائ لكان هروب الانسان منه أءثر من طلبه له ، أما وأنه غنم لا غرم فىه ، وءسب وءاء وسىطرة ، فلا غرو اذا كان ءلسابى علىه كالتسابق على الكراسى الموسىقىة ، وىاوىل المصلءة العامة ، وىاوىل الرعىة .

ومما ءرى مءرى الأمءال فى هءا الصءء أن رءعة مساءءها لا ءزىء على ءلألئىن فرسءا مربعا فى الاءلس ءولى ءكمها أربعة ءلهم ىءمل ألقاب الءلافة وهم : الموفق والمؤىء والمهءى ، والمسءلى مع ءراطىش ءءءلة والاءءرام ءلى ءسبءها ، وهو من مركب النقص ، ءمن ىءلء على الغزلان صورة الاسوء ءى ىءىف بها من ءوله ، وءء اسءهزا ابن شرف القىروانى من ءلك بءوله المشهور ،

(١) راءع القصىءة فى الءلل الاءلسىة — الأمير شكىب أرسلان — ء ٢ ص ٥٤٦ — ٥٤٧ ط ءاهرة ١٩٣٩ .

ما يزهدنى فى أرض أندلس القاب معتصم فيها ومعتضد
القاب مملكة غير موضعها كالهـر يحكى انتفاخا صورة الاسد

أما من النواحي الاقتصادية والاجتماعية :

فقد سادت اقتصاديات الاقطاع العسكرى فى الدول الخاضعة لحكم المماليك . بمعنى أن الدولة تقسم الى اقطاعيات سلطانية وعسكرية مما كان له أسوأ الآثار فى النظام الاجتماعى الذى تحول بداهة من نظام أبقى الى نظام رأسى صارم : طبقة ممتازة وتشمل السلطان والحاشية والامراء العسكريين وبيد هؤلاء كل سلطان الدولة والطبقة المتوسطة : وتشمل التجار والمثقفين . وعامة الشعب : وهم أجراء .

فالتطبيقية التى سادت المجتمع فى ذلك العصر من النوع الذى لا وجود له فى الاسلام : وهو سيطرة طبقة معينة لها مصالح مشتركة ، وعن طريق هذه السيطرة تسخر الدولة لتحقيق مصالحها .

وهكذا أخذت تزول من البلدان الاسلامية أهم أصول الحكم الاسلامى المبني على الاخوة والعدالة والمساواة وتكافؤ الفرص وانعدام التكوين الطبقي الاستغلالي . وبدأ أن الحكام يتهربون من السياج الدستورى الصارم المحكم المنيع الذى أقامه الاسلام حول الحقوق والواجبات والضمانات الفردية والاجتماعية وتحديد مسئولية الراعى والرعية أمام أى خرق لحرمة هذا السياج . هذه الاحوال لابد أن تقترن بظاهرتين :

١ - تدنى مستوى المعيشة الى الحد الحديدي للحياة وحدوث مجاعات كلما قل المطر أو الفيضان .

٢ - حدوث الاوبئة .

وتقول المصادر أن مصر تعرضت لموجات من المجاعات فى القرن السابع الهجرى نذكر منها القحط الذى حدث سنة ٦٩٥ هـ أى فى أواخر حياة القطب الدسوقي :

يقول ابن الفرات (١) فى حوادث سنة ٦٩٥ هـ :

وفى هذه السنة اشتد الغلاء وكثر الوباء بالديار المصرية .

فأما الغلاء فإن سعر القمح انتهى الى مائة درهم وسبعة وستين درهما عن كل أردب بالمصرى ، وقيل أنه بلغ مائة وثمانين درهما ، والشعير زاد على المائة درهم .

عن كل أردب والفل من ثمانين الى تسعين درهما عن كل أردب والترمس عن كل أردب ستين درهما بعد أن كان يباع كل أردب بخمسة دراهم .

وبلغ ثمن كل فروج (دجاجة) عشرين درهما بعد أن كان بثلاثة دراهم ، وبيعت البطيخة الخضراء الصيفية بمائة درهم ٠٠٠ وبيع كل رطل لحم بسبعة دراهم نقرة ، وكل سبع بيضات من بيض الدجاج بدرهم نقرة (٢) .

ومات كثير من الدواب لعدم العلف وعدمت دواب الكرى حتى ما بقى يوجد من يسترزق منها ، كذلك هلكت الكلاب والسنانير من الجوع ، وتزايد الحال والضيق بسبب الغلاء الى حد النهاية وصار المحتسب فى كل يوم يعزر جماعة من الطباقين واللاحامين بسبب بيع اللحوم المستقذرة والمحرمة شرعا . وتزايد الحال الى أن أكل بعض الناس الميتة من المواشى والكلاب . . . الخ .

هذا ماكان من أمر الغلاء ، وأما الوباء فإنه تزايد ووقع بالقاهرة وظواهرها فناء عظيم حتى كان يحصى من يخرج من باب من أبواب المدينة من الاموات فى اليوم الواحد ما يزيد على سبعمائة نفس أو نحوها هذا من داخل المدينة من أحد أبوابها والقاهرة بالنسبة الى ظواهرها [ضواحيها] كالشارع الاعظم [وكانوا يحملون الاموات فى شباك على الجمال] الخ .

(١) تاريخ الدول والملوك — تصوير — الجزء السادس عشر : من اللوحة ٦١ الى اللوحة ٦٣ .

(٢) نقرة على وزن حفرة وهى دراهم عابرها ٢ : افضة : نحاس — صبح الاعشى ج : ٣ ص ١١٣ وما بعدها .

حكام مصر والبلدان العربية والاسلامية

في ذلك الوقت (٦٥٠ — ٧٠٠ هـ)

مصر :

حكامها من المماليك البحرية :

- المعز أيبك التركمانى ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ
 - المنصور نور الدين على بن ايبك ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ
 - المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧ — ٦٥٨ هـ
 - الظاهر بيبرس ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ
 - السعيد بركة بن بيبرس ٦٧٦ — ٦٧٨ هـ
 - العادل سلامش بن بيبرس ٦٧٨ هـ
 - المنصور سيف الدين قلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ
 - الاشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ — ٦٩٣ هـ
 - الناصر محمد بن قلاوون (المرة الاولى) ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ
 - العادل زين الدين كتبغا ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ
 - المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ — ٦٩٨ هـ
 - الناصر محمد بن قلاوون (١) (ثانية) ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ
- الخلفاء العباسيون فى مصر :

اقام الظاهر بيبرس الخلافة العباسية فى مصر بعد زوالها فى بغداد ، الا انها كانت خلافة شكلية ، والخلفاء العباسيون فى هذه الفترة هم ،

- ابو القاسم أحمد المستنصر بن الظاهر ٦٥٩ — ٦٦٠ هـ
 - ابو العباس أحمد الحاكم بأمر الله ٦٦٠ — ٧٠٦ هـ
- حكام الدول الاسلامية فى آسيا :
- حكم التتار العراق وخراسان

(١) خلع ثم عاد مرة ثالثة فحكم من ٧٠٩ — ٧٤١ هـ .

• وحكمت الدولة الارتقية فى ماردين •

والسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وكان بينهم وبين سلاطين المماليك خلاف حتى أن السلطان قلاوون استولى على قونية سنة ٦٧٥ هـ فى عهد سلطانهم غياث الدين كيخسرو الثالث [٦٦٣ — ٦٨١ هـ] •

وفى الهند كان سلاطين دلهى من الاتراك :

محمود شاه الأول ٦٤٤ — ٦٦٤ هـ •

ثم غياث الدين أولوغ خان ٦٦٤ — ٦٨٦ هـ •

ثم فيروز شاه الثانى ٦٨٩ — ٦٩٤ هـ وتلاه ابراهيم شاه الاول ٦٩٤

وقتلها محمد شاه الاول وتولى الحكم من ٦٩٥ — ٧١٥ هـ •

أما فى شبه الجزيرة العربية :

فقد كان الحاكم فى مكة المكرمة الشريف أبو نعيم محمد الاول ٦٥٢ — ٧٠١

هـ •

وفى المدينة المنورة تولى الحكم آل مهنا الحسينيون •

وكان حكام اليمن من بنى عبد الرسول •

أما فى أفريقيا : فكان المغرب الاقصى تحت حكم بنى مرين والقائم منهم

بالحكم ،

أبو بكر بن عبد الحق المرينى ٦٤٢ — ٦٥٦ هـ •

أبو حفص عمر بن أبى بكر ٦٥٦ — ٦٦٧ هـ •

يعقوب بن عبد الحق ٦٦٧ — ٦٨٥ هـ •

يوسف بن يعقوب ٦٨٥ — ٧٠٦ هـ •

وحكم الموحدون فى المغرب الاوسط والقائم بالحكم منهم :

أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦ — ٦٦٥ هـ •

ثم تلاه أدريس الواثق حتى استولى بنو مرين على ملكه سنة ٦٦٨ هـ •

وكان بنو زيان يحكمون تلمسان والقائم منهم :

يغمر اسن بن زيان (٦٣٣ — ٦٨١ هـ) ثم ابنه عثمان الاول ٦٨١ — ٧٠٣

هـ •

وفى تونس بنو حفص والقائم بالحكم منهم :

• محمد الاول المنتصر بن يحيى ٦٤٧ - ٦٧٥ هـ •

وهو الذى لقب نفسه بلقب الخلافة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ بتأييد من

شريف مكة أبى نمنى محمد الاول •

• وتلاه ابنه أبو زكريا يحيى الثانى ٦٧٥ - ٦٧٨ هـ •

• ثم ابراهيم الاول بن يحيى ٦٧٨ - ٦٨١ هـ •

• ثم أبو فارس عبد العزيز بن ابراهيم ٦٨١ - ٦٨٢ هـ •

• فأبو جعفر بن يحيى ٦٨٣ - ٦٩٤ هـ ثم محمد بن الواثق ٦٩٤ - ٧٠٩ هـ •

أما الاندلس :

فحكم بنو الاحمر غرناطة وما حولها • وفقد العرب معظم الاندلس ، جزاء

تقصيرهم وخلافاتهم •

البَابُ السَّادِسُ

تحقيق

تاريخ مولده ووفاته

من المتفق عليه بين جميع المؤلفين الذين كتبوا عن القطب الدسوقي أن عمره رضى الله تعالى عنه كان ٤٣ عاما . ولم يشذ عن هذا الاجماع سوى الكاتب التركى خواجه زاده احمد حلمى فقال انه عاش اربعين عاما ، ولا يؤخذ بقوله لان العرب اضبط فى شئونهم من غيرهم اذا اعوز الدليل .

وقد استغنى المؤلفون بذكر عمره عن تحديد مولده ووفاته معا واكتفى معظمهم بتسجيل تاريخ وفاته الى جانب عمره المبارك . وعلى كل فان التصريح بعمره رضى الله تعالى عنه الى جانب احد التاريخين - المولك او الوفاة - يعتبر تحديدا للتاريخ الاخر قطعاً ، كما أن هناك اجماعاً على أن مولده كان اول ليلة من شهر رمضان المكرم .

وتنقسم المصادر من حيث ضبط تاريخ المولد والوفاة الى ثلاثة أقسام :

- الاول : متفق على أن مولده سنة ٦٣٣ هـ - ووفاته سنة ٦٧٦ هـ .
- الثانى : متفق على أن مولده سنة ٦٥٣ هـ - ووفاته سنة ٦٩٦ هـ .
- الثالث : من خالف هذين القسمين وذكر تاريخاً غيرهما .

ونبين فيما يلى مصادر كل قسم منها :

مصادر القسم الاول

نذكرها بحسب الترتيب الزمنى :

١ - الامام الشعراى (ت ٩٧٢ هـ) قرر فى الطبقات الوسطى انه (مات رضى الله تعالى عنه سنة ست وسبعين وستمائة [٦٧٦ هـ] ودفن بدسوق على ساحل بحر النيل ومقامه بها ظاهر بزار يقصده الناس من سائر الافاق وكراماته كثيرة مشهورة) (١) .

٢ - الامام الوترى : ضياء الدين احمد بن محمد الوترى الموصلى البغدادى المصرى وفاة الشافعى الرفاعى (ت ٩٨٠ هـ تقريباً) قال : مات سنة ٦٧٦ هـ . وكراماته أشهر من أن تذكر (٢) .

(١) لوائح الانوار القدسية مخطوط = ١/١١٢

(٢) روضة الناظرين . ط القاهرة ص ٥٠ .

- ٣ - الامام عبد الرؤوف المناوى (١) ت ١٠٢١ هـ .
- ٤ - المحقق السيد عبد القادر بن محمد الطبرى الحسينى المكى (٢) ٩٧٦ - ١٠٣٣ هـ .
- ٥ - المؤرخ الشهير ابن العماد الحنبلى (٣) ت ١٠٨٩ هـ .
- ٦ - الحافظ السيد محمد مرتضى الزبيدى الحسينى ت ١٢٠٥ هـ [٤] .
- ٧ - العارف الشهير السيد احمد الصاوى الخلوتى ت ١٢٤٠ هـ (٥) .
- ٨ - العارف العالم العامل الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ١٢٢١ - ١٣٠٣ هـ (٦) .
- ٩ - العلامة على باشا مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١ هـ] [٧] .
- ١٠ - السيد عبده حسن راشد المشهدى (٨) .
- ١١ - العلامة الكبير السيد يوسف بن اسماعيل النبهانى ت ١٣٥٠ (٩) .
وممن تابعهم على ذلك :
- ١٢ - المؤرخ الصوفى الحسن بن محمد الكوهن الشاذلى الفتحي (١٠) .
وممن تابعهم على ذلك :
- المؤلفان الكبيران خير الدين الزركلى (١١) . وعمر رضا كحالة (١٢) .
ودائرة المعارف الاسلاميه (١٣) .

(١) الكواكب الدرية - مخطوط سنة ١٠١٨ هـ = ق ١/٢٢٢ .
 (٢) كشف السقاب عن انساب الاربعة الاقطاب . ط . القاهرة ص ١٤ .
 (٣) شذرات الذهب - ج ٥ ص ٣٥٠ . ط القاهرة .
 (٤) عقد الجواهر الثمين فى الذكر وطرف اللباس والفلقطين خط سنة ١١٨١ هـ ص ٣٢ .
 (٥) حاشية الامام الصاوى على شرح الخريدة فى السوحد للقطب الدردر ط القاهرة ص ٧٩ .
 (٦) منارق الانوار - ط القاهرة - ص ١٣٤ .
 (٧) الخطط النوفيسية ج ١١ ص ٨ .
 (٨) الانوار الاحمدية فى المناقب العلية (هامش النسخات الاحمدية) ط - سنة ١٣٢١ ص ٢٥١ .
 (٩) جامع كرامات الاولياء ط القاهرة ١٣٢٩ - ج ١ ص ٢٤٠ .
 (١٠) طبقات الشاذلية ط القاهرة ١٣٤٧ - ص ٨١ .
 (١١) قاموس الاعلام - الطبعة الثانية ج ١ ص ٥٤ .
 (١٢) معجم المؤلفين ط دمشق ١٩٥٧ - ج ١ ص ٧٩ .
 (١٣) مادة الدسوقي .

مصادر القسم

وهى التى صرحت بأن مولده سنة ٦٥٣ هـ ووفاته سنة ٦٩٦ هـ ونذكرها بحسب ترتيبها الزمنى :

١ - كتاب الجوهرة المنسوب الى القطب الدسوقي تضمن ترجمة له لا ندرى من وضعها والحقها بالكتاب وفيه ان الوفاة كانت سنة ٦٩٦ هـ وعمره ٤٣ سنة (١) .

٢ - العالم الصوفى البرهامى السيد جلال الدين الكركى - وهو اولى الناس بالكتابة عن القطب الدسوقي فى عصره ، لانه تولى مشيخة المسجد البرهامى مدة طويلة وكان خليفة السادة البرهامية ، وله اكثر من عشرة مؤلفات .

وقد أسهب فى تاريخ مولده سنة ٦٥٣ هـ فى بداية مؤلفه عن القطب الدسوقي (لسان التعريف) (٢) وقال بصدد وفاته فى اواخر نفس مؤلفه (٣) :

(ولما شعر بدنو اجله ارسل نقيبہ الى اخيه السيد شرف الدين ابى العمران موسى ، وكان مدة حياة الاستاذ يقطن مصر بجامع الفيلة ، فأمره ان يبلغه السلام ، ويسأله ان يظهر باطنه قبل ظاهره .

[فاتفق أن النقيب وصل مصر ودخل المسجد على الشيخ شرف الدين وهو يقرأ على الطلاب كتاب الطهارة . فأخبره النقيب برسالة اخيه القطب الدسوقي فلما سمعها ، طوى الكتاب وسافر من فورہ الى دسوق فوجد الاستاذ قد قبض وهو ساجد سنة ست وتسعين وستمائة ودفن بدسوق محل مولده] ١ هـ بنحسه الحرفى .

٣ - العارف الشيخ حسن شمه الفوى [ت ١١٧٧ هـ] [٤] .

٤ - المؤرخ الفقيه محمد امين بن حبيب بن ابى بكر المذيلة لى المدنى (ت ١٢٤٠) (٥) :

(١) الجوهرة - ط - الماعرة - ص ١٠٨ .
(٢) ، لسان التعريف - مخطوط - ١١/ب ، ٦٤/ب على الدوالى .
(٣) مسرة العبنين بشرح حزب أبى العنن ط القاهرة - تاريخ مولده ص ٥ ووفاته ص ١١ .
(٥) طبقات الفقهاء والعباد والزهاد - مخطوط - ق ٧٨/ب .

قال (وعاش من العمر ٤٣ سنة ولم يغفل قط عن المجاهدة للنفس والهوى
والشيطان حتى توفى سنة ٦٩٦ هـ) .

٥ - العلامة حسن بن حسين المصرى الحنفى القادرى : قال (ولد ليلة
الثلاثين من شعبان سنة ٦٥٣ هـ وعاش ثلاثا واربعين سنة وتوفى سنة ٦٩٦
ست وتسعين وستمائة) (١) .

٦ - كمال الدين محمد الحريرى الحلبي (ت ١٩٢٧ هـ) (٢) .

ناقش الرايين ورجح القسم الثانى

القسم الثالث

ويشمل مصادر انفردت بذكر تاريخ يخالف القسمين السابقين :

وهذه لم نأخذ بها لانفراد كل مصدر بمخالفة غيره . وها هى :

١ - الامام المقرئى : ت ٨٤٥ هـ :

ذكر وفاة القطب الدسوقي فى كتابه السلوك فى وفيات سنة ٦٨٦ هـ ، ثم
قال : (ومولده سنة ٦٤٤ هـ اربع واربعين وستمائة تخميناً وقبره احدى
المزارات التى تحمل اليها النذور ويتبرك بها) (٣) .

٢ - الامام البقاعى : على بن غانم بن احمد الخطيب البقاعى (٤)
الشافعى ، قرر انه عاش ثلاثا واربعين سنة وتوفى سنة ٦٧٩ هـ فيكون مولده
سنة ٦٣٦ هـ .

(١) مئة الوهاب فى معرفه تواريخ ولادة الاربعة الائمة والاربعة الاقطاب مخطوط ١٢٨٨ هـ
— ق ١٠/ب .
(٢) بيان وسائل الحقائق فى بيان سلاسل الطرائق — ميكروفيلم — تصوير معهد احياء
المخطوطات العربية — الجزء الاول : مادة : البرهامية .
(٣) الامام بقى الدين احمد بن على المقرئى . وقد قام د. محمد مصطفى زيادة بالاشراف
على نشر كتابه « السلوك » والتعليق عليه : راجع الجزء الاول . القسم الثالث ط القاهرة
سنة ١٩٣٩ . ص ٧٣٩ .
(٤) طبقات الابرار — مخطوط ق ١١١/ب .

٣ - خواجه زاده احمد حلمى (١) .

وقد انفرد بتحديد عمره بأربعين عاما ، اذ قرر انه ولد سنة ٦٥٣ هـ وتوفى سنة ٦٩٣ هـ .

رأينا فى هذا الموضوع

نأخذ برواية القسم الثانى التى تقرر انه عاش من ٦٥٣ - ٦٩٦ هـ .

ومما يؤيدها :

ما رواه الجلال الكركى وغيره من الوقائع بين القطب الدسوقى والسلطان الملك الاشرف خليل وتبشيريه بالاستيلاء على حصن عكا وتحريره من يد الصليبيين وقد تم هذا سنة ٦٩٠ هـ ، وما تبع ذلك من وقف الجزيرة المواجهة لدسوق على الفقراء وقد ذكرنا ذلك فى موضعه (٢) .

ومما يؤيد ذلك ايضا :

ان ابا العمران موسى شقيق القطب الدسوقى ، قد تولى تربية المريدين بعد وفاة اخيه .

وكانت وفاة ابي العمران عام ٧٣٩ هـ وفى رواية ٧٢٩ هـ وكان عمره حوالى السبعين عاما .

ومعنى ذلك ان مولده يقع ما بين عام ٦٥٩ هـ وعام ٦٦٩ هـ ، ولا يصح ان يقوم بشأن الطريق بعد وفاة اخيه لان سنه بناء على هذا التقدير لاتصلح لذلك اذ ان عمره يكون ما بين ٧ : ١٧ عاما (٣) . هذا اذا اخذنا بالرواية التى تقول بأن وفاته كانت سنة ٦٧٦ هـ ، وبذلك تبطل هذه الرواية وتثبت صحة الرواية التى تنص على ان الوفاة كانت عام ٦٩٦ هـ .

ويشبه هذا ان القطب سليمان السيونى اخذ عن القطب الدسوقى وقد عاش

(١) أحمد حلمى بن حافظ محمد خلوصى المعروف بأشرف زاده الشروانى اليعياوى : حديقة الاولياء ط وزارة المعارف التركية ١٣١٨ هـ .

(٢) راجع ص ٨٦ : ٨٨ .

(٣) وكيف يصح ان يكون عمره عند وفاة اخيه ما بين ٧ : ١٧ عاما ، مع قيامه بتدريس العلوم الشرعية فى القاهرة ؟

الاول ما بين ٦٦٠ - ٧٣٥ ، وتوفى بمدينة بسيون بمسجده المشهور ومعنى ذلك ان عمره وقت وفاة القطب الدسوقي ٣٦ سنة ، فيكون الاخذ واضح ظاهر دون تكلف فى مطابقة التواريخ للوقائع .

والسر فى هذا اللبس : ان والد القطب الدسوقي وهو العارف الكبير السيد ابو المجد عبد العزيز بن على قريش كان مشهورا فى عصره وقد اجمعوا على انه توفى حين بلغ القطب الدسوقي ٢٣ سنة من عمره وحددوا هذا التاريخ لخروجه من الخلوة .

فالذين توهموا انه توفى سنة ٦٧٦ هـ التبس الامر عليهم اذ جمعوا هذا التاريخ هو تاريخ وفاة القطب الدسوقي مع انه تاريخ وفاة والده .

ولا يؤخذ بما ذكره السيد عبد القادر الطبرى الحسينى (١) انه يقول (وقد كان السيد ابراهيم صغيرا يوم وفاة ابيه فلما كبر اخذ الطريقة من العارف بالله نجم الدين الاصفهانى [.

اذ ان هذا الاخذ لم يثبت كما سبق ذكره فى شيوخ القطب الدسوقي .

الاحتفال بالعارف بعد وفاته

اشد من الاحتفال به حال حياته

وهذه قاعدة تكاد تكون عامة فى حياة الناس جميعا يستوى فى ذلك الرجل العادى او العالم او العبقري .

يقول ابو العباس المرسى : يكون الرجل بين اظهرهم فلا يلقون اليه بالا ، حتى اذا مات : قالوا كان فلان ٠٠ وربما دخل فى طريق الرجل بعد وفاته اكثر مما دخل فيها فى حال حياته .

وللقطب الدسوقي ثلاثة موالد تقام كل عام تهرع اليه فيها الناس من كل جهة . يقول على باشا مبارك فى هذا الصدد [٢] :

(١) كشف النقاب ط القاهرة ١٣٠٩ ص ١٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١١ - ص ٨ .

(احدها فى شهر برمودة وهو اقلها زورا ، وثانيها فى شهر طوبة وهو المسمى بالرجبى وهو اكثر منه واردا يجتمع فيه جملة من الزوار والتجار للبيع والشراء ويمكث ثمانية ايام وثالثها المولد الكبير فى شهر مسرى يأتى اليه داني البلدان وقاصيها للزيارة والتجارة وتضرب فيه الخيام ويحضره مشاهير البلاد المجاورة بأنواع الاطعمة، ومشايخ الطرق والسجادات بجميع الاثاير، وتدوم حركة البلاد ليلا ونهارا بالاذكار وتلاوة القرآن والبيع والشراء لجميع انواع البضائع ٠٠ ويستمر ايضا ثمانية يام) .

والزيارة الرجبية اصبحت تحدد بعد الرجبية الاحمدية بسبعة ايام ، وكذا المولد الكبير يقام بعد المولد الاحمدى بسبعة ايام .

البَابُ السَّابِعُ

خلفاؤه وفسر وع طريقته

تولى أمر الطريقة بعد وفاة مؤسسها شقيقه العارف الكبير شرف الدين أبو العمران موسى . وهو أصغر سناً من القطب الدسوقي ، وقد تلقى الطريقة عن والده ثم عن أخيه ولما كمل أذن له أخوه بالسفر إلى مصر فأقام بها ينشر العلم ويربى السالكين في حياة أخيه . قال العلامة ابن الملتن الشافعي اجتمعنا عليه قبل أن يحصل التمكين ولبسنا منه خرقة أخيه تبركا .

وبعد وفاة أخيه تولى أمر الطريق وعاش متنقلاً ما بين دسوق والثغر بالاسكندرية مجتهداً في نشر العلم وتربية المريدين حتى أدركته الوفاة بالاسكندرية ٧٣٩ هـ أو سنة ٧٢٩ هـ طبقاً لرواية الحافظ السيد مرتضى الزبيدي وكلام ابن الملتن (٧٢٣-٨٠٤ هـ) - صاحب الطبقات المشهورة في تاريخ الصوفية - يؤكد صحة التاريخ الأول .

قال الجلال الكركي (١) :

وكانت وفاة الشيخ موسى بالثغر الاسكندري سنة سبعمئة وتسع وثلاثين (٧٣٩ هـ) بعد عشرة السبعين ، وحمل إلى دسوق ودفن بقرب شقيقه سيدي إبراهيم من الجبهة القبلية تغمدهما الله برحمته ومتعهما بفسيح جناته العبدانية ولهما رحمة الله عليهما من الخوارق واللطائف ما لا يكاد يحصر .

ومن كبار خلفائه المعاصرين للسيد موسى : السيد العارف الشهير سليمان البسيوني بن عثمان بن علوان بن يعقوب الحسنى وجده يعقوب أول من قدم من بلاد المغرب الأقصى إلى مصر سنة ٦٠٠ هـ وتوجه إلى شبرا بسيون . والسيد سليمان عاصر السيد موسى ويكاد عمره يضاهي عمر السيد موسى والعصر الذي عاشه . فقد ولد سنة ٦٥٨ هـ وتوفي حوالي سنة ٧٣٥ هـ ، فيكون عمره حوالي ٧٧ سنة ودفن ببسيون موضع خلوته التي كان يتعبد فيها وعليها مسجد عامر بالشعائر ، وله مولد يقام كل عام .

وبعد وفاة السيد موسى تولى أمر الطريق :

١ - ابنه شمس الدين محمد بن أبي العمران موسى ويسمى أيضاً بدر الدين

محمد .

(١) نور الحدق - مخطوط ق ١/٦٧ .

٢ - ثم استخلف من بعده ولده لصلبه الورع الزاهد الشيخ جمال الدين عبد الله المتوفى عام نيف وثمانمائة . وله قصة مشهورة مع السلطان الملك الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ) : قال عنه الكركى (وهذه القصة أشهر من أن تذكر) (١) .

٣ - ثم استخلف من بعده ابن ابن عمه وهو العارف المربى أبو عبد الله شمس الدين محمد بن العارف ناصر الدين محمد بن أيوب بن أبي المجد وكانت وفاته سنة ٨٣٤هـ .

٤ - السيد نور الدين على بن محمد بن على بن ذى الاسمين أيوب عثمان بن ذى الاسمين عبد العزيز عبد المجيد الشهير بأبى المجد بن محمد ابن عبد العزيز ابن قريش . وربما كنى بأكبر أولاده النجم فيقال أبونجم الدين الأبودرى نسبة لآبى درة من أعمال البحيرة ، الدسوقي المالكى ، ويعرف بسنان لسن كانت بارزة ، (وأيوب فى نسبه هو أخو الشيخ ابراهيم الدسوقي صاحب الاحوال) ولد سنة ٧٧٥ هـ بأبى درة وانتقل منها وهو صغير بعد وفاة والده وحفظ القرآن ثم ذكر السخاوى (٢) شيوخ المترجم ومنهم : صلاح الزفتاوى وابن الشيخة والعراقى والهيثمى ، والابنسى والدجوى والمراغى والنور الهورى والجمال الرشيدى والمحلاوى الخ . ثم قال : (وكان يخبر أنه أخذ الخرقة الدسوقية عن ابن عمه الجمال عبد الله بن محمد بن موسى المتوفى بدسوق فى سنة نيف وثمانمائة عن أبيه عن شقيقه الشيخ ابراهيم وقصد دسوق من سنة ٨١٢ هـ الى أن مات شيخ المقام الابراهيمى بها وهو ابن عمه الشمس محمد ابن ناصر الدين محمد بن أيوب سنة ٨٣٤ هـ ، فاستقر عوضه فى المشيخة ، فبأثرها وصرف عنها مرارا وحج وزار بيت المقدس ودخل الاسكندرية مرارا ، وحدث وسمع منه الفضلاء بالقاهرة ثم بدسوق . وكان خيرا ضابطا صدوقا نبأ ساكنا وقورا صبوراً على الاستماع متواضعا ، سليم الفطرة توفى ليلة الجمعة حادى عشر من رمضان سنة ٨٥٩ هـ بدسوق على مشيختها ودفن عند الضريح البرهانى) .

وقال الحافظ السخاوى فى كتاب التبر المسبوك فى وفيات سنة ٨٥٥ هـ

(١) لسان التعريف - ق ١/٤٢ .

(٢) الحافظ المؤرخ صاحب الضوء اللامع ج ٥ ص ٣١٩ .

وفيهما توفى الشيخ (عبد الغفار بن نفيس شيخ معمر من خلفاء المقام
الابراهيمى بدسوق، مات يوم الاربعاء رابع عشر من المحرم ودفن بتربة ابن جلبان،
من القراقة الصغرى (١) والظاهر أنه تولى المشيخة خلال الفترة التى صرف
عنها سابقة .

ويطلق على طريقته : البرهانية نسبة الى لقبه : برهان الدين ابراهيم ،
والابراهيمية أو البرهانية نسبة الى اسمه المبارك ، والدسوقية نسبة الى
الشهرة المكانية .

وقد تشعبت الطريقة فيما بعد الى فروع ذكر منها الكمال الحريرى أربعة
وهى : الشهاوية والشرنوبية والعاشورية والتازية .

وذكر خواجه زاده أحمد حلمى فى حديقة الاولياء نفس الفروع ما عدا
الشهاوية التى استبدلها بالسيوطية ، ونجن نشك أن هذا من التحريف فى
النقل اذ أن الفرع الشهاوى هو أهم فروعها :

الشهاوية البرهامية :

تنسب الى القطب الشهير السيد محمد الشهاوى الحسينى الشافعى ولد
سنة ٨٧٥ بقرية نمرة البصل من أعمال المحلة الكبرى ، ونشأ على العلم
والتقوى والمجاهدة ، وتخرج عليه كثيرون وشاع ذكره وقصده المريدون
وراغبو العلم والناس للتبرك به ولم يزل قائما بحقوق الطريق حتى توفى
سنة ٩٤٩ هـ ودفن بمقامه ومسجده المعروف ، بقرية نمرة البصل .

وهو من ذرية القطب أبى العمران موسى شقيق القطب الدسوقى، وقد تلقى
الطريق عن العارف محمد الشربينى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ عن نجم الدين الكبير
عن محمد الديروطى عن عبد الله أبى المكارم عن العارف السيد جمال الدين
عبد الله عن والده السيد شمس الدين محمد عن والده أبى العمران موسى عن
أخيه القطب الدسوقى .

وقد وقعت له قصة مع القطب الدسوقى ساقها فى آخر كتاب الجوهرة

(١) الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى (٨٣١ — ٩٠٢ هـ) التبر المسبوك
فى ذيل السلوك — ط بولاق — ص ٣٦٠ .

المخطوط ونذكر طنا مادونه بلفظه قال: كانت عندي النسخة المباركة المسماة بالجوهرة لسيدى الشريف سيدى ابراهيم رضى الله عنه ، فأخذتها يوما من الايام وتوجهت الى القاهرة المحروسة ، فأردت أن أحفظها ، فطالعتها ، فرأيت قد فقد منها ورقة ، فأغتممت لأجلها ، وحصل عندي ما حصل ، فبينما أنا كذلك فى الوقت والساعة اذا برجل قد أقبل على وبيده ورقة . فقال لى : اشتر منى هذه الورقة ، فأخذتها منه فرأيتها الورقة المفقودة بعينها فوضعتها فى محلها فاذا هى كما كانت ، والتفت الى الرجل فلم أجده ، ولا شك أن ذلك هو السيد ابراهيم ، وتعد هذه من كراماته ، ومناقبه كثيرة لا تكاد تحصى رضى الله عنه) . (١) .

الطريقة الشرنوبية :

وهذه فى الواقع فرع من الشهاوية اذ أن مؤسسها من أكبر الذين تخرجوا على يد القطب الشهاوى .

وصاحبها هو العارف المشهور صادق الانفاس أحمد عرب الشرنوبى بن عثمان بن أحمد سليل العارف على البرهانى صاحب المزار بشرنوب ، ويتصل نسبه بالسيد محمد قمر الدولة الحسينى بنفيا ، وأمه السيدة عايده من ذرية العارف أبى بكر الراعى بمحلة مرحوم .

ولد رضى الله تعالى عنه سنة ٩٣١ هـ فى شرنوب بالبحيرة وأخذ الطريق عن القطب الشهاوى ورحل الى القاهرة وظهرت عليه دلائل الفتح قال السيد ابراهيم اللقانى (شاهدت من سيدى أحمد عرب الشرنوبى الكرامات الخارقة عند اجتماعى به حال بدايتى فى مصر المحروسة بزاويته التى بالدرب الاحمر ورأيته متمسكا بالكتاب والسنة ورأيت جميع أتباعه مشتغلين فى الزاوية بالقرآن وطلب العلم وسمعت منه علوما لم أسمعها من غيره (٢) .

وأخذ عن كثير من العارفين : ذكر منهم رضى الله تعالى عنه : السيد على المتقى الهندى ، وأمام أبى الحسن البكرى ، والسيد سليمان الخضيرى ، والسيد

(١) كتاب الجوهرة — مخطوط بمكتبة الازهر : ١/١٧٦ .
(٢) شرح تائيه الساوك الى ملك الملوك للشيوخ عبد المجيد الشرنوبى ط القاهرة ص ١٥٩ .
وترجمته بنهاى من ١٦٤/١٥٦ .

ابراهيم الذاكر والسيد زين بن بنت المرصفي ، وقد سافر الى القسطنطينية
واخذ عن عارف زمانه في بلاد الترك الشيخ نور الدين زاده .

واشتهر رضي الله تعالى عنه بانه وزير القطب الدسوقي لانه كان على قدمه
ومشربه : فهو في هذه المرتبة من حيث الائتلاف الروحي وان لم يجتمع معه في
عالم الاشباح .

وقد تخرج عليه جماعة من كبار العارفين منهم :

السيد أبو النصر الدسوقي ، والعالم الشهير ابراهيم اللقاني صاحب
الجوهرة في علم التوحيد ، وقد ألفها بإشارة من شيخه . والشيخ عبد ربه
الابشيطي ومزاره بالمحلة الكبرى ، والشيخ محمد البلقيني ببغتين ، والعارف
سليمان البرهامي بسنديون وكثير غيرهم .

وكان يقول : الشيخ يحفظ المرید الصادق في قربه وبعبده .

ومن تأثيته في وجوب طلب الاستاذ المربي :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| ولا بد من فكر وذكر ووجهة | على يد شيخ عارف بالطريقة |
| يفضي كضوء الشمس تبدو لناظر | له همة تبرى عليل الجبل |
| حكيم يداوى الطالبين بطبه | خبير بداء القلوب في كل لحظة |
| يرى بعيون القلب ما كان خافيا | ويدرك بالأبصار حجب الاكث |

توفي رضي الله تعالى عنه سنة ٩٩٤ هـ في أرجلى بأسيا الصغرى .
وهذا وتتصل معظم أسانيد الطرق الصوفية المشهورة بعد القرن السابع
الهجري بالقطب الدسوقي .

مثل الطريقة السنوسية ومؤسسها الامام محمد بن علي (١) السنوسي
الحسني الادريسي .

وكثير من فروع الطريقة (٢) الشاذلية .

(١) ساق سنده في الطريقة البرهامية في كتابه السلسيل المعين في الطرائق الاربعين
مخطوط بدار الكتب العامة ق ٣٥ .
(٢) راجع أسانيد الحافظ الصوفي السيد محمد مرتضي الزبيدي الى القطب الدسوقي
في كتاب عقد الجواهر الثبن مخطوطات السيورة ص ٣٣ : ٣٥ .

فالمطرق الصوفية لافواصل بينها وهى وان تعددت فهدفها جميعا واحد .

الوان الخرق الصوفية

الوان الخرق والاعلام التى اتخذها الصوفية خمسة : —

الابيض والاخضر والاحمر والاصفر والاسود

يقول العلامة حسن بن حسين الحنفى القادري (١) :

ان سيدى عبد القادر له الخرقه السوداء والعلم الاسود .

وان سيدى احمد الرفاعى له الخرقه السوداء والعلم الاسود .

وان سيدى احمد البدوى له الخرقه الحمراء والعلم الاحمر .

وان سيدى ابراهيم الدسوقي له الخرقه الصفراء والعلم الاصفر .

ثم تتبع من قال ان العلم البرهامى أخضر وان اللون الأخضر للعلم
انما هو خاص بالامام الجيلانى وهو أسبق فى اتخاذه من القطب الدسوقي
فلا ينسب العلم الأخضر الى البرهامية

ويقول السيد توفيق البكرى الاحمدية زيتها الاحمر والبرهامية زيتها (٢)

الاخضر (٣) والرفاعية زيتها الاسمر والابيض .

(١) منة الوهاب مخطوط فى ١٩ .

(٢) ، (٣) بيت الصديق ص ٣٨٣ ، ٣٨٧ على التوالى .

خاتمة

هذه هي حقيقة الطريقة البرهامية وهي صورة متألقة للطرق الصوفية الحقّة ، فمن ادعاهما طالبها بشروط صاحبها ، فإذا أخل بشرط منها لفظته الطريق واقتضح في دعواه .

يقول القطب الجيلاني (١) لا تدع حالة القوم يا صاحب الهوى ، أنت تعبّد الهوى ، وهم عبيد المولى . أنت رغبتك في الدنيا ، ورغبة القوم في العقبى . أنت ترى الدنيا وهم يرون رب الأرض والسما ، وانت أفسك بالخلق وأنس القوم بالحق ، أنت قلبك مشغول بمن في الأرض ، وقلوب القوم برب العرش . . . فإن القوم وحصلت لهم النجاة ، وبقيت أنت مرتها بما تنتهي من الدنيا وتهواه) .

وقد ابتلى التصوف بأرباب الزور والبهتان والمضلّين الذين يجرون وراء المغانم عن طريق التلبّيس على الخلق واتباع الاوهام والخيالات : حتى عدوا المنكرات من القربات التي يجب الحرص على أدائها ، والضلالات من الاصول التي يجب اعتقادها فكم من مدع يتزيا بزى أهل الله تعالى ، (ويتكلم بما يوهم الناس أنه منهم والحال أنه بطال يملأ بطنه من الطعام سواء كان حلالا أو حراما ، وليله من المنام ، ويثب على الدنيا وثوب الاسد على الفريسة ، وربما جعل نفسه شيخا وله اتباع يصطادون له بشرك مشيخته قاذورات الحطام الفاني ويزعمون أنهم على شيء : أولئك هم الكاذبون . وقد أشار لهم العارف بالله تعالى سيدي عمر بن الفارض رضى الله عنه بقوله :

**رضوا بالأمانى وابتلوا بحظوظهم
وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم
وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا**

بل تأخروا ورجعوا القهقري ، لانهم تبعوا هوى أنفسهم والشيطان يقودهم الى كل ما يحبه منهم كما قال :

(١) فتوح الغيب للابام الجيلاني — هامش قلائد الجواهر ص ٢٧/٢٨ ط القاهرة ١٩٥٦ .

وعن مذهبي لما استحبوا العمى على الهدى حسدا من عند أنفسهم ضلوا
يأكلون أموال الناس بالباطل ويدعون المراتب العلية ، وهم فى الدركات
السفلية، وقد كثروا فى هذا الزمان حتى ملأوا طباق الأرض فى كل قطر ومكان
نعوذ بالله منهم .

قال أستاذنا البكرى فى الفية التصوف :

وقد نما فى ذا الزمان شرهم حتى سما فى الناس جدا ضرهم
ولم يكن لهم هنا من يردع من أجل ذا الدين الحنيفى ودعوا

ولما نظر أهل الله الى كثرتهم وكثرة فسادهم واختلال عقاندهم : غلقوا
أبواب زوايا الارشاد ، وفوضوا الامر الى رب العباد ، واحتفوا فى الناس فلم
يعرفهم الا من خصه الله بالانوار الالهية والسعادة السرمدية (١)

يقول استاذ العارفين السيد أحمد أبو الوفاء الشرقاوى فى بيان ما يجب على
من انتمى الى طريق القوم :

(هذا ومن أهم الاصول وأعلاها وأرفعها عند القوم وأغلاها المحافظة على
التخلق بالاخلاق العالية المرضية ، والتأدب بالاداب السامية السنية . بل ذلك
روح حياة هذه الطريقة . وباب رياضها الزاهرة الانيقة . وهو الامر الذى
يتوقف عليه سلوك السالكين : والشرط الذى لا بد منه للسائرين ، لانه اذا كان
القرب من أكابر أهل الدنيا والوصول اليهم لا ينال الا بتهديب الاخلاق والتحلّى
بأجمل الاداب والتخلّى عن كل أمر لا يليق بشرف مقامهم فالسائرون فى طريق
الحق المقبلون على الله بقلوبهم الطالبون الدخول بها لحضرة شهوده أولى بأن
يتحلوا بأجمل حلية . ويتزينوا بأحسن خلعة . لملاقاة مولاهم سبحانه وتعالى
وأجدر بأن ينزهوا أرواحهم عن كل ما يدنسها لتكون قابلة لافاضة أنوار الحق
وأسراره عليها ، والا فلا يليق أن توضع نفائس الجواهر فى أماكن
القاذورات . ولا يصح أن يجالس الملوك من يزاحم الكلاب على الاوساخ
والنجاسات) .

(١) شرح الخريدة للامام الزردير — هامش حاشية الصاوى على هذا الشرح ص
٨٢/٨١ .

(هيا ايها المرید كيف تقبل على مولاك وانت متلبس بما يكرهه من الاحوال !
وكيف تدخل حمى حضرته المنزهة وانت متدنس بقبيح الاقدار والاحوال !
ويا ايها السائر الى الله كيف تفعل - وانت على اعتابه - ما يفضبه عليك ! وكيف
تتجسراً وانت ببابه على ما يجر سخطه اليك ! وكيف تسير في طريق المنتقم
الجبار وانت متحمل بأثقال السيئات والاوزار : ولا شك ان ذلك يوجب ابعادك
وطردك ويقتضى حرمانك وصدك ويؤدي الى انتقامه منك بخيبتك وخذلانك .
وعقابه لك بهجرانك وخسرانك) .

(فيجب على المرید أن يكون على أعلى الصفات • متخلقا بأحسن النعوت
والسمات • فانه بمعاهدته على التمسك بهذه الطريق صارت تعد عليه
حركاته • وتحسب عليه خواطره وسكناته • وصار كل أمر يقتضيه طلب الحق
سبحانه وتعالى يتحتم عليه • ويلزمه إلقاء به والنهوض اليه • وكل أمر ينافي
ذلك يجب عليه الفرار منه ويتحتم عليه تركه ويتأكد التباعد عنه • والا كان
كاذبا على الله ورسوله في معاهدته على السير في هذه الطريق ، طالما لها
بدعواه الانتماء اليها خائفا لها ولاهلها بتلاعبه بها بعدما ائتمنوه على
الدخول فيها • وقبلوه في ضمن مريديها وطالبيها • فيخشى عليه أن يحرم من
ثمرات التقريب والاسعاد • ويقضى عليه بعذاب الطرد والابعاد والله المستول
أن يفتح للطالبيين أبواب التوفيق والهداية (١) •

فتطوي لمن تمسك بالكتاب والسنة واهتدى بهدى سيد الوجهاء وخاتم النبيين
صلوات الله وسلامه عليه • • واتبع سبيل المؤمنين العارفين وتأدب بآدابهم •

(١) مصباح الارواح : المقررات الثلاث مقتبسة من ص ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ على التوالي •

مصادر البحث

ملحوظة : اذا أضر بنا عن ذكر مكان الطبع ، فالطبع مكانه القاهرة واذا كان غير ذلك ذكرنا مكان الطبع ، والمطبوع نشير اليه بعلامة ط .

والمخطوط الذى لاندكر أمامه المكتبة الموجود بها فمعنى ذلك أنه فى دار الكتب العامة بالقاهرة ، والمخطوط نشير اليه بعلامة : خ

الابيارى : محمد بن رضوان :

— انسان المقلتين بشرح حزب أبى العينين — خ — سنة ١١٨٤هـ .

الانبابى : نور الدين على بن عامر الانبابى المالكى البرهانى .

— نشر محاسن السلوك على تائية السلوك — خ بالمكتبة الازهرية .

ابن اياس ، ٨٥٢ — ٩٣٠هـ ، المؤرخ محمد بن أحمد بن اياس الحنفى :

— بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

بابا التنبكتى : ٩٦٣ — ١٠٣٢ هـ الامام الحافظ أحمد بن أحمد الشهير ببابا

التنبكتى :

— نيل الابتهاج بتطريز الديباج ط ١٣٥١هـ على هامش الديباج المذهب .

البرهانى : ق ١٠هـ : نور الدين على بن الحسن الشاذلى البرهانى .

— الزهرة المضية فى أسماء طرق السادة الشاذلية — خ — ألفه سنة

٩٠٧هـ .

البغدادى : اسماعيل باشا البغدادى :

— هدية العارفين فى أسماء المؤلفين استانبول ١٣٧٠هـ .

— ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون ، استانبول ١٣٦٦هـ

البقاعى ، على بن غانم بن أحمد الخطيب البقاعى الشافعى ،

— طبقات الابرار — خ — ١١٦٤هـ .

البكرى : ١٢٨٧ — ١٣٥١هـ : السيد محمد توفيق البكرى .

— تراجم بعض رجال الصوفية — خ — .

— الطرق الصوفية فى الديار المصرية — خ — .

- بيت الصديق ط ١٣٢٣هـ .
- حجاب : معاصر : العارف الكبير السيد أحمد محمد حجاب :
- العظة والاعتبار ، آراء فى حياة السيد البدوى .
- طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .
- البكرى الخلوتى : ١٠٩٩ — ١١٦٢ هـ الامام مصطفى بن كمال الدين :
- بلغه المريد ومشتهى الموفق السعيد فى آداب الطريق ، ضمن مجموعة
- اوراد السادة الخلوتية ط ١٣٢٦هـ .
- ألفية التصوف — غ — المكتبة الازهرية .
- البنانى الكبير ١٢٨٤هـ : العارف أبو بكر بن محمد بنانى :
- مدارج السلوك الى مالك المنوك ط ١٣٣٠هـ .
- البنانى الابن : فتح الله بن أبى بكر بنانى : ت ١٣٠٢هـ .
- عقد الدر واللال فى بيان فضل الفقر والفقر (على هامش السابق)
- البهى ، ت حوالى ١٢٦٠ هـ : العارف الشهير محمد بن احمد .
- شرح حزب القطب الدسوقى — غ — سنة ١٢٩٥هـ .
- التادفى الحلبي ت ٩٦٣ — العلامة محمد بن يحيى .
- قلائد الجواهر ط ١٣٧٥ هـ .
- ابن تغرى بردى : ت ٨٧٤هـ : أبو المحاسن يوسف :
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ج ٩
- التلمسانى الامام محمد بن أحمد .
- كتاب التصوف — غ — .
- الجندي ت ٧٣٢هـ : القاضى يوسف بن يعقوب الشهير بالجندي :
- السلوك فى طبقات العلماء والملوك — غ — .
- الامام الجيلانى ت ٥٦١ هـ ، القطب الكبير عبدالقادر بن موسى الحسنى :
- الاوراد والديوان (الفيوضات الربانية) ط — ١٣٥٣هـ .
- فتوح الغيب ط ١٣٧٦ على هامش قلائد الجواهر .
- حاجى خليفة ت ١٠٦٧هـ : مصطفى كاتب جلبى :
- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — ط .
- الحريرى ت ١٢٩٧هـ : كمال الدين الحريرى الحلبي :
- تبيان وسائل الحقائق فى بيان سلاسل الطرائق .

٣ أجزاء ميكرو فيلم تصوير معهد احياء المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية .

حسن بن حسين المصرى الحنفى القادرى ق ١٣ هـ .

— منة الوهاب فى معرفة تواريخ ولادة الاربعة الائمة والاربعة الاقطاب — خ .
— ١٢٨٩ هـ

الحمزاوى ١٢٢١ — ١٣٠٣ هـ : العلامة حسن العدوى الحمزاوى ،

— مشارق الانوار فى فوز اهل الاعتبار ط ١٢٧٥ هـ .

ابن خلكان ت ٦٨١ هـ : المؤرخ شمس الدين احمد بن ابراهيم :

— وفيات الاعيان ، جزءان ، ط .

خواجة زاده احمد حلى :

— حديقة الاولياء ط استانبول ١٣١٨ هـ .

ابن دقماق ت ٨٠٩ هـ ، ابراهيم بن محمد المصرى

— الانتصار لواسطة عقد الامصار ط — ١٣١١ هـ .

الدوادارى ٧٣٢ هـ : ابو بكر بن عبد الله بن ابيك الصرخدى :

— درر التيجان وغرر تواريخ الزمان — تصوير .

— كنز الدرر وجامع الغرر — خ .

الامام الدردير المالكى الخلوتى ت ١٢٠١ هـ .

— شرحه على كتابه الخريدة فى التوحيد — ط .

القطب الدسوقى :

— كتاب الجوهرة وهو مطبوع عدة طبعات بدون تاريخ ، واقدم طبعة له ،

طبعة حجر بعنوان (كتاب منير من كلام القطب الكبير من اعطى العلم الشرعى

والحقيقى سيدى ابراهيم الدسوقى) .

وهناك نسخ خطية منه بدار المكتبة العامة والمكتبة الازهرية وبعضها

بعنوان (فتوح الغيب)

الامام الزبيدى الشرجى ٨١٢ — ٨٩٣ هـ زين الدين احمد بن احمد

ابن عبد اللطيف :

- طبقات الخواص أهل الصدق والاخلاص — ط —
الحافظ الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ السيد محمد مرتضى الحسيني .
- عقد الجواهر الثمين في الذكر وطرق الالباس والتلقين — خ سنة ١١٨١ هـ .
- تاج العروس من جواهر القاموس ط بولاق ١٢٨٥ هـ والكويت ١٣٨٥ هـ .
- شجرة النسب (ملحقة بكتاب بحر الانساب المحيط) ط ١٣٥٦ هـ
الزركلي : خير الدين :
— قاموس الاعلام ط ثانية .
- زروق — ٨٤٦ — ٨٩٩ هـ — الامام احمد زروق البرنسي ،
— القواعد في التصوف ط — .
- د . زكي مبارك ١٣٠٨ — ١٣٧١ هـ : محمد زكي بن عبد السلام بن مبارك :
— التصوف الاسلامي ط ١٣٥٧ هـ .
- الزكي بن هاشم العلوي ق ١٢ هـ :
— مطالع الزهراء في ذرية الزهراء — تصوير .
- السخاوي ٨٣١ — ٩٠٢ هـ ، الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد
— التبر المسبوك في ذيل السلوك — ط .
- الضوء اللامع — ط .
- السراج : ت ٣٧٨ هـ . أبونصر عبدالله بن علي السراج الطوسي :
— اللمع ط ١٣٨٠ هـ .
- السلمي ٣٢٥ — ٤١٢ هـ : الامام أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين :
— طبقات الصوفية : لندن ١٩٦٠ م .
- السنوسي ١٢٠٢ — ١٢٧٦ هـ : الامام محمد بن علي ،
— السلسبيل المعين في الطرائق الاربعين — خ .
- السهرودي ٦٣٣ : الامام عمر بن محمد الصديقي :
— عوارف المعارف ، طبع ضمن مجموعة .
- السيوطي : ج ٩١١ هـ : الامام جلال الدين ،
— حسن المحاضرة — ط — ١٣٢٧ هـ .

- الشبراوى ١١٧١هـ العارف عبد الله بن محمد بن عامر :
- الاتحاف بحب الاشراف — ط ١٣١٦هـ .
- الشبلنجى ت أوائل ق ١٤ : السيد مؤمن بن حسن مؤمن :
- تنوير الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ط بولاق ١٢٩٠هـ .
- الشرقاوى أبو الوفا ١٢٩٦ — ١٣٨٠هـ ، أستاذ العارفين أحمد أبو الوفاء
- الشرقاوى
- مصباح الارواح — ط — ١٣٢١هـ .
- الشرنوبى ١٣٤٦ — ١٣٤٩هـ : الشيخ عبد المجيد الشرنوبى .
- شرح تأيية السلوك للقطب الشرنوبى — ط ١٣٧٨هـ .
- الشريشى ٥٨١ — ٦٤١هـ : الامام أبو العباس أحمد بن محمد البكرى
- الرائية فى التصوف المسماة (أنوار السرائر وسرائر الانوار) وشرحها
- للإمام أحمد بن يوسف الفاسى ط ١٣١٦هـ .
- الامام الشعرانى ت ٩٧٢هـ :
- بهجة النفوس والاحداق فيما تميز به القوم من الآداب والاخلاق
- خط ٢ ج المكتبة الازهرية سنة ١٣٠٤ هـ .
- تنبيه المغترين ط ١٣١٥ .
- الطبقات الكبرى ط
- الطبقات الوسطى — خ .
- لواقح الانوار القدسية فى بيان العهود المحمدية ط ١٢٨١هـ
- الامام الصاوى ت ١٢٤١ هـ ، أحمد بن محمد الخلوتى المالكى :
- حاشية على شرح الخريدة للإمام الدردير — ط .
- الصفى بن أبى المنصور ظافر الازدى ٥٩٥ — ٦٨٢ هـ .
- الرسالة فى التصوف خ ٨٤٠ هـ
- الصياد الرفاعى ٦٧٠هـ : العارف عز الدين أحمد :
- المعارف المحمدية ط ١٣٠٥هـ
- أبو طالب المكى ت ٣٨٦هـ : الامام محمد بن على بن عطية :
- قوت القلوب : ٤ ج — ط — ١٣٥١ هـ
- الطاهر الحامدى ت أوائل ق ١٤ :

— الكشف الربانى عن المورد الرحمانى للقطب أبى المعارف أحمد بن شرقاوى •

الطبرى الحسينى المكى ٩٧٦ — ١٠٣٣هـ عبد القادر بن محمد
— كشف النقاب عن أنساب الاربعة الاقطاب ط •

ظافر المدنى ١٢٤٤ — ١٣٢١هـ : العارف محمد ظافر بن محمد بن حسن بن حمزة ،

— الأنوار القدسية فى تنزيه طرق القوم العلية ط استانبول ١٢٩٧ هـ •
عبد الحى بن على •

— مختصر مسرة العينين — خ •

— الفتح النبوى (وهو شرح على الصلاتين البدوية والدسوقية) — خ
ابن عجيبه ت ١٢٦٦هـ : العارف أحمد بن محمد :

— شرح الحكم العطائية المسمى : ايقاظ الهمم — ط •
ابن عطاء الله السكندرى ٧٠٩ هـ —

الامام احمد بن محمد بن عبد الكريم —
الحكم العطائية •

على باشا مبارك ١٢٣٩ — ١٣١١ هـ —
— الخطط التوفيقية ج ١١ ط بولاق :

ابن العماد الحنبلى ت ١٠٨٩هـ :

— شذرات الذهب ج ٥ ط سنة ١٣٥١ هـ —

عمار : على سالم عمار :

— الامام أبو الحسن الشاذلى ٢ ج ط سنة ١٣٨٢هـ —

ابن علان الصديقى الشافعى النقشبندى ت ١٠٢٣هـ العلامة أحمد ابن ابراهيم •

— حال السلوك الى ملك الملوك (شرح هائية ناصر الدين بن بنت الملق الشاذلى (خ ١٣٠٧ هـ المكتبة الازهرية •

الامام الغزالى ٥٠٥هـ •

— احياء علوم الدين ط لجنة نشر الثقافة الاسلامية ١٦ جزءا •

- الغزى ٩٧٨ - ١٠٦١ هـ : نجم الدين محمد :
- الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ط - بيروت - ١٩٤٥ م .
- ابن فارس الوفاى الشاذلى ق ٩ هـ —
- المنح الالهية فى مناقب السادة الوفائية خ .
- ابن الفرات ٧٢٥ - ٨٠٧ هـ :
- تاريخ الدول والملوك . الجزء السادس عشر . تصوير .
- الفوى ١١٧٧ هـ . العارف حسن شمه ،
- مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين ط .
- القادرى ١٠٥٨ - ١١١٠ هـ : عبد السلام بن الطيب بن محمد :
- الاشراف على نسب الاقطاب الاربعة الاشراف ط ضمن مجموعة
- القاوقجى ١٣٠٥ هـ : العارف محمد بن خليل الطرابلسى الحسنى :
- تحفة الملوك فى السير والسلوك ط القاوقجية ١٢٤٩ هـ .
- القشاشى : ١٠٧١ هـ : الامام صفى الدين أحمد بن محمد بن يوسف الدجاني
المدنى ،
- السمط المجيد فى شأن البيعة والذكر وتلقيته وسلاسل أهل التوحيد ط الهند
١٣٢٧ هـ .
- القشبرى ٣٦٧ - ٤٦٥ هـ : الامام عبد الكريم بن هوازن :
- الرسالة : ط ١٣٧٧ هـ . القلقشندى ت ٨٣١ هـ أبو العباس أحمد :
- صبح الاعشى ج ٣ — ط ١٣٣٣ هـ .
- القوصى ٦٧٨ هـ : العارف عبد الغفار بن نوح :
- الوحيد فى سلوك أهل التوحيد خ - ٢ ج سنة ١١٢١ هـ .
- القيصرى : داود بن محمود ت ٧٥١ هـ .
- نظم الدرر - (وهو شرح على التائية الكبرى لابن الفارض) .
- ابن قيم الجوزية ٦٩١ - ٧٥١ هـ ،
- مدارج السالكين فى شرح منازل السائرين ٣ ج ط ١٣٧٥ هـ .
- ابن كثير الدمشقى ٧٧٤ هـ : الحافظ اسماعيل بن عمر القرشى :
- البداية والنهاية فى التاريخ .

- كحالة : عمر رضا :
- معجم المؤلفين ط دمشق ١٣٧٧ هـ .
- الكركي . ق . ١٠ هـ : العارف الصوفي أحمد جلال الدين بن محمد خير الدين ،
- لسان التعريف خ ١١٨٨ هـ .
- نور الحدق — خ — ضمن مجموعة
- الكمشخانوي : الامام أحمد ضياء الدين النقشبندی المجددي :
- جامع الاصول في الاولياء وأوصافهم وأصول كل طريقة ط ١٣٢٨ هـ .
- الكوهن الفتحي ق ١٤ هـ : الحسن بن أحمد الكوهن الشاذلي :
- طبقات الشاذلية ط ١٣٤٧ هـ .
- الكلاباذي : ٣٨٠ هـ ، تاج الاسلام أبو بكر محمد :
- التعرف لمذهب أهل التصوف ط ١٣٨٠ هـ .
- ابن المبارك ١١٥٥ هـ : الحافظ أحمد بن المبارك السجلماي الصديقي :
- الابريز ط ١٣١٧ هـ .
- محمد عيد الشافعي (معاصر) ،
- مكانة التصوف والصوفية في الاسلام : ط سنة ١٣٨٢ هـ .
- المخزومي الرفاعي ٧٩٣ — ٨٨٥ هـ : الامام سراج الدين محمد :
- صحاح الاخبار في نسب السادة الفاطميين الاجيار ط الهند سنة ١٣٠٦ هـ .
- المذيلة لى المدني ١٢٤٠ هـ ، العلامة محمد أمين بن حبيب :
- طبقات الفقهاء والعباد والزهاد — خ — .
- المشهدى ق ١٤ هـ : عبده حسن راشد :
- الانوار الاحمدية في المناقب العلية ط ١٣٢١ هـ .
- (على هامش النفحات الاحمدية والجواهر الصمدانية)
- ابن مغيذل ق ١٠ هـ : الامام عبد القادر بن الحسين ،
- الكواكب الزاهرة في اجتماع الاولياء يقظة بسيد أهل الدنيا والاخرة
- خط ، المكتبة الازهرية ، وقد قمنا بتصحيحه والتعليق عليه .

- المقریزی المؤرخ المشهور ت ٨٤٥ هـ .
- السلوك لمعرفة دول الملوك — ط .
- المناوی ت ١٠٣١ هـ : الامام عبد الرؤوف المناوی الحدادی .
- الكواكب الدرية ٢ ج خط ١٠١٨ هـ .
- أبو المواهب الشاذلی ت ٨٨٢ هـ : العارف محمد بن زغران التونسی الشاذلی
- الوفائی .
- — قوانین حکم الاشراق — خ .
- النبھانی ١٢٦٥ — ١٣٥٠ ، العلامة یوسف بن اسماعیل :
- — جامع کرامات الاولیاء ٢ ج ط ١٣٢٩ .
- — سبیل النجاة فی الحب فی الله والبغض فی الله ط ١٣٧٣ هـ .
- النشابی ت ١٣٣٨ هـ أبو المعارف محمد عبد الرحیم الحسنی الشاذلی
- الاحمدی :
- — أسرار الحقیقة لمن سلك الطریقة ط ١٣٤٠ هـ .
- — مجموع الاوراد له — ط — طنطا — ١٣٤٢ هـ .
- النفزی ٣٥٤ هـ : الامام محمد بن عبد الجبار ،
- — المواقف والمخاطبات ، ط المستشرق اربری ١٣٥٣ هـ .
- أبو الهدی الرفاعی الصیادی ١٢٦٦ — ١٣٢٨ هـ :
- — تنویر الابصار فی طبقات السادة الرفاعیة الاخیار ، ط ١٣٠٦ هـ .
- الهروی ٤٨١ هـ : الامام عبد الله بن محمد بن علی الحنبلی :
- — منازل السائرین ط ١٣٢٨ هـ .
- الواسطی ٦٧٤ — ٧٤٤ هـ : الامام تقی الدین عبد الرحمن بن عبد المحسن :
- — تریاق المحبین فی طبقات خرق المشایخ العارفین ط ١٣٠٥ هـ . الوتری
- ٩٨٠ هـ : الامام ضیاء الدین أحمد بن محمد الوتری :
- — روضة الناظرین و خلاصة مناقب الصالحین ط ١٣٠٦ هـ .
- الوفائی ق ١٤ : محمود عقیف الدین الوفائی :
- — معاهد التحقیق ط ١٣٢٣ هـ .
- الیافعی ٧٦٨ هـ : الامام عبد الله بن أسعد :
- — روض الریاحین ، ط .

— نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات
العالية ط ١٣٢٩ هـ : على هامش جامع كرامات الاولياء .

ومن المراجع في علم البلدان

- ابن ممتى ٦٠٦ هـ : الاسعد أبو المكارم بن أبي سعيد .
- قوانين الدواوين تحقيق د. عزيز سوريال ط ١٣٦٢ هـ .
- المقريزى ٨٤٥ هـ .
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ، ط .
- ابن الجيعان ٨٨٥ هـ ، شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان .
- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ط ١٣١٦ هـ .
- محمد رمزي ١٣٦٤ هـ .
- القاموس الجغرافي ج ٢ من القسم الثاني ط ١٩٥٨ م .
- القاموس الجغرافي للقطر المصري . ط بولاق ١٨٩٩ م .

مصادر في علوم الاجتماع والنفس والتربية والاخلاق

- د. أبو مدين الشافعي : الاطمئنان النفسى .
- د. توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ط ١٩٦٠ .
- د. جمال زكى ، السيد يس ، أسس البحث الاجتماعى ط ١٩٦٢ .
- د. صادق سمعان : الفلسفة والتربية ، ط ١٩٦٢ .
- د. عبد العزيز القوصى ، أسس الصحة النفسية ط ١٩٤٨ .
- د. محمد عماد الدين اسماعيل وآخرون : قيمنا الاجتماعية وأثرها في تكوين الشخصية .
- . محمد يوسف موسى ، فلسفة الاخلاق فى الاسلام .
- تاريخ الاخلاق ١٩٤٣ .
- د. مصطفى سويف : علم النفس الاجتماعى ، ط ١٩٦٦ .
- د. مصطفى زيور واحمد فؤاد الاهوانى ،
- التحليل النفسى ، ط وزارة الارشاد القومى .
- د. مصطفى فهمى : الدوافع النفسية ، ط ١٩٥١ .
- الصحة النفسية فى الاسرة والمدرسة والمجتمع ط ١٩٦٣ .

ومن الكتب المترجمة

- جيوم P. Guillaume ، علم نفس الجشطلت ط ١٩٦٢ .
- ترجمة د. صلاح مخيمر وعبيده ميخائيل رزق .
- فرويد Freud مترجمة د. محمد عثمان نجاتي : القلق ط ١٩٥٧ .
- فلوجل J.C. Flugel ترجمة عثمان نويه الانسان والاخلاق والمجتمع ط ١٩٥٨ .

فنكس Phenix ترجمة د. محمد لبيب النجیحی ، فلسفة التربية ط
١٩٦٥ .

مادفیلد — ترجمة ، محمد عبد الحمید أبو العزم : علم النفس والاخلاق—
ط ١٩٥٨ .

مصادر أجنبية فی التصوف والادب والتاریخ

Brockelmann, Carl: Geschichte der Arabischen Litteratur: 2 vols.
Depont et Coppolani: Les Confreries Religieuses Musulmanes. Al-
gerie 1897.

Le Chatelier et Coppolani: Les Confreries Musulmanes du Hed-
jas — Paris 1887.

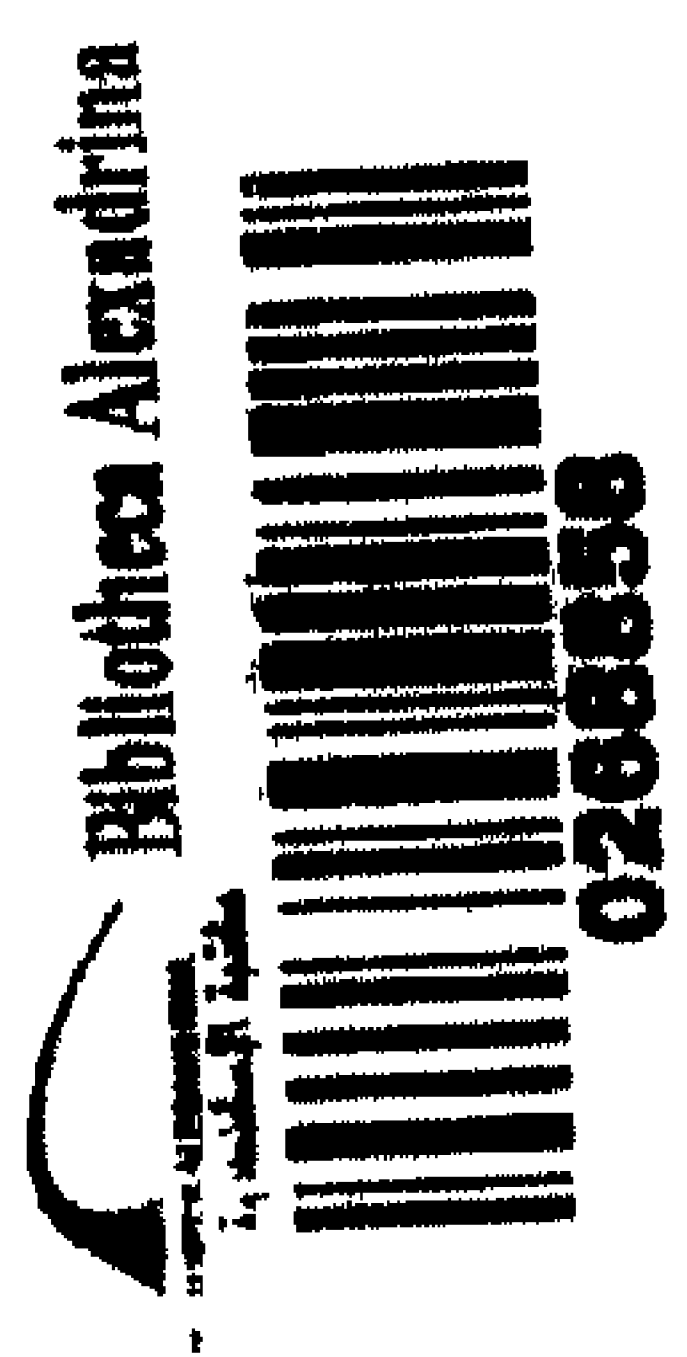
معجم الانساب والاسرات الحاكمة فی التاریخ الاسلامی للمستشرق
زامباور — ط جامعة القاهرة ١٩٥١ .

محتويات الكتاب

| | |
|--|-----|
| الباب الاول : | ٧ |
| نسبه ونشأته | ٧ |
| الباب الثانى : | ٢١ |
| المنابع التى استقى منها طريقته فى التصوف | ٢١ |
| الباب الثالث : | ٥٩ |
| بعض صفاته من شريف أحواله | ٥٩ |
| الباب الرابع : | ٩٧ |
| آثاره العلمية | ٩٧ |
| الباب الخامس : | ١١٧ |
| مختارات من أقواله تصور منهجه الصوفى | ١١٧ |
| الباب السادس : | ٢٧٥ |
| تحقيق تاريخ مولده ووفاته | ٢٧٥ |
| الباب السابع : | ٢٨٥ |
| خلفاؤه وفروع طريقته | ٢٨٥ |
| خاتمة | ٢٩٣ |
| مصادر البحث | ٢٩٦ |

١٩٩٢/٩٣٩٤

مطابع الأهرام التجارية - قلوب - مصر



مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر